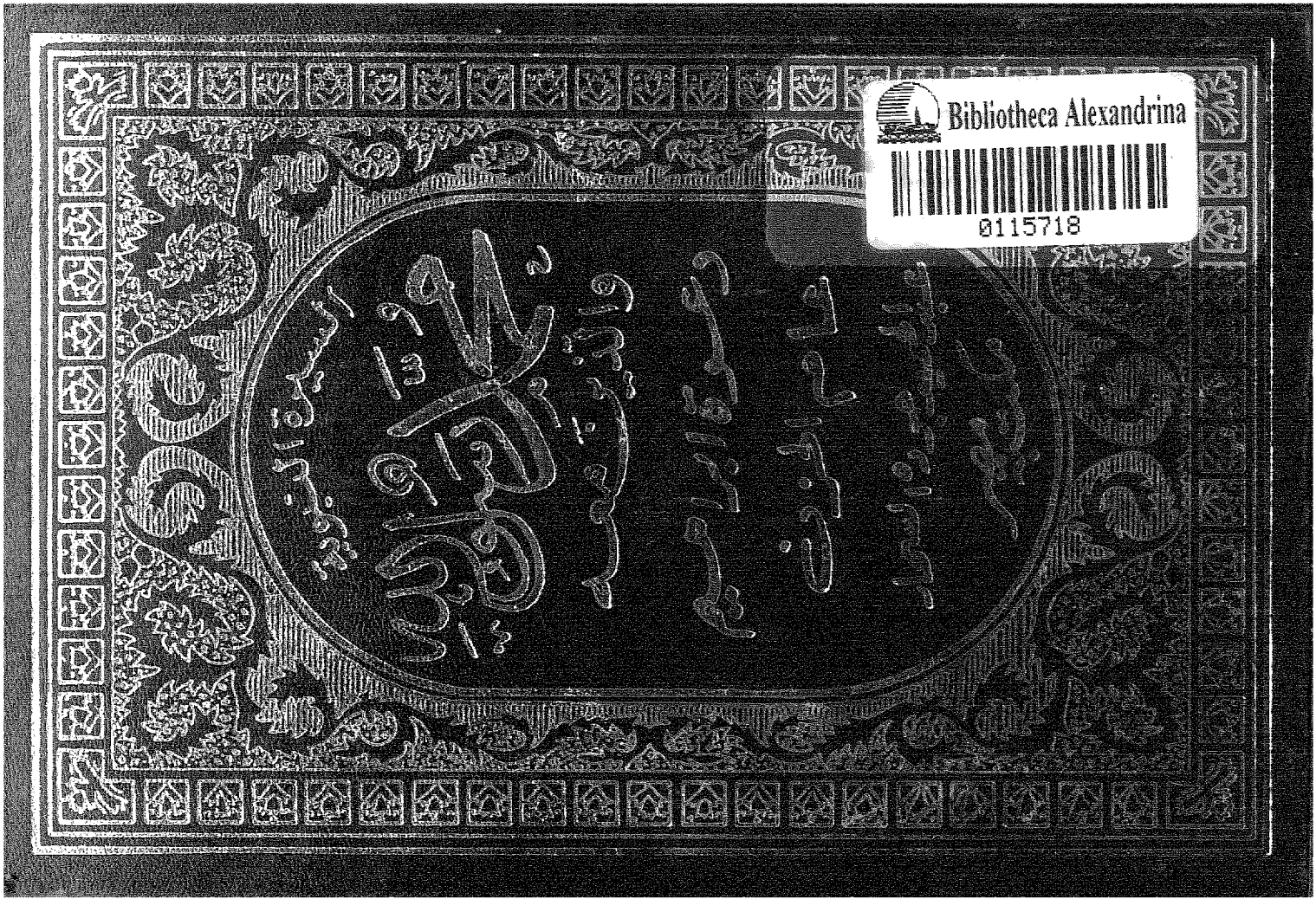

Bibliotheca Alexandrina
0115718

السيرة النبوية

# محمد رسول الله والذين معه

## دعوة إبراهيم

عبد الحميد جودة السحار

## بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك انت العزيز الحكيم ﴾ *

( قرآن كريم )

قال ﷺ :

( أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ) .

# ١

شمس تغيب ويقفو إثرها قمر ، ونور صبح وبعده حلك ، والقوافل تنساب فى معبد الكون إلى الشمال ، والرياح تهب من الجنوب ، والأرض وشى والنسيم معنبر ، قد صنع فصل الربيع الرياض عقودا ، وحلى الثرى بنجوم الثريا ، والتفت الغصون كتعانق الأحباب ، وانتشر النوار الأصفر على جبين الصحراء كتاج من الذهب النضار على رأس عروس ، ونبعت العيون بماء زلال ، وسالت الأودية بالحياة ، وراح كل ركب يلتمس الواحات فى الطريق ليسعد بطيب ظل ظليل ، وترتاح الأرواح فى الأجساد .

وكانت صوامع الرهبان علامات على الطريق ، اعتكف فيها أناس فروا من الحياة وضجيجها وانقطعوا للعبادة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ما دار بخلدهم أن الانعزال عن الناس انعزال عن الدين ، فالتقوى لا تعرف الأنانية ، بل هى أن يتجاوبوا مع أنفسهم ومع العالم كله فى سبيل الخير الأسمى .

وانطلقت القوافل إلى دومة الجندل حيث سوقها السوى ، وقد نسى الناس أن أول من نزلها كانوا أبناء دوما ابن إسماعيل وكان كل ما يذكرونه أن أكيدر غرس فيها الأشجار وأعاد بناءها ، وأن بنى كلب ينزلونها وأنهم يحكمون السوق إذا ما غاب عنها أكيدر ملكها .

وجاء أول يوم من ربيع الأول فاجتمع الناس للبيع والشراء والأخذ

والعطاء ، وكانت المبايعة بيع الحصاة ، يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم . أو يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشيء المبيع . أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم . أو يعترض قطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصبتها فهى لك بكذا .

كانوا يقامرون بالنهار يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل . ويعكفون فى الليل على الخمر والميسر والنساء ويمضون الوقت فى اللهو واللعب ، فثقلت أرواحهم بأوزار الأجساد وصاروا مجرد أشياء ، آمالهم محدودة بالعالم الأرضى الذى يتنفسون فيه ، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تتلاشى ولذة لا تدوم ، قد أوغلوا فى الحياة الحيوانية فانعدم انسجامهم مع إنسانية الإنسان .

أطلقوا عنان نزواتهم وعواطفهم فاتجهت شهواتهم ورغباتهم إلى غايات جسدية ، فأهيضت أجنحة ارواحهم وانجذبت إلى الأرض ، وسيطرت عليهم أنانية مدمرة طاغية استبدت بهم فتفككت الحياة الإنسانية ، بل صارت حياة ضارية لا تحترم . الخير الإنسانى العام . بل تقدس كل ما يجلب منافع ذاتية أو يشبع شهوة عارمة ، لا فرق بين تجارة أو مضاربة أو غارة وسلب ونهب أو سفك دم برىء أو ظلم أو دعارة ، لا تمييز بين الحلال والحرام ، قد ساد بينهم قانون الغاب .

وكانوا يتمسحون بأصنام الآلهة التماسا للرزق والعافية فى الدنيا ، وما كان محراب ربهم فى أغوار نفوسهم بل كان حجرا يحملونه معهم إذا خرجوا أو يلتقطونه من هنا أو هناك ، ومن سفاهة أحلامهم تعصبوا لتلك

الحجارة التي لم يكن لها عليهم سلطان .

وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا حساب قد ذوى النور المقدس فى قلوبهم وذبل ، وخفت الضوء الذهبى الذى يشرق بنور ربه بعد أن قدموا البطون والشهوات على العقول ونقاء النفوس والأرواح ، فلم يكن للأخلاق جذور فى عين وجودهم ، وما كانت لهم سلطة مقدسة تتفجر منها قوانين الخير والمحبة وقواعد الأخلاق ، فسقطت كل القيم الإنسانية ، وظهر الفساد فى البر والبحر وأصبحت حياتهم فراغا وأوقاتهم هباء .

قطعوا كل العلائق بالذات العلية ، وأغلقوا نوافذ قلوبهم دون النور الإلهى ، فلم يروا داخل نفوسهم ، و لم يعرفوا ذواتهم ليعرفوا ذات الله ، وعجزوا عن أن يسبروا أغوار الكون ليرتقوا إلى ما فوق الطبيعة وإلى ما وراء عالمهم المادى ، فضلوا السبيل واستكانوا للشر واستجابوا لعواطفهم الجامحة ، وغذوا عصبيتهم وجاهليتهم بحطام أنبل المبادئ الإنسانية ، فهاموا فى طرقات ملتوية لا تقود إلا إلى الظلام .

صار الإنسان مادة تافهة ، لا يؤمن إلا بما يلمسه بيده ويراه بعينه ويذوقه بلسانه ويشمه بأنفه ويسمعه بأذنه ، فاستكان لحدوده فلم يحاول أن يصرع الشر أو يواصل حياة ثانية بعد الموت ، فإن كان سيدا أسلم نفسه للشره فى الأكل والشرب والعواطف ، وإن كان عبدا فللذل والجوع والحرمان ؛ قد ظلموا أنفسهم سادة وعبيدا .

وكانت القبائل متشاحنة قد نزلت البغضاء قلوبهم ، فالعداوات مشبوبة، والحروب دائرة، والثارات لا يخبو أوارها، والشعراء يهيمون فى الأودية يؤججون نيران الكراهية ، وسوس الفساد ينخر فى المجتمع ويشيع التحلل والانحطاط ؛ فصارت رحلة الحياة بلا هدف ، تشق طريقها فى

شعاب القسوة وبيداء الضياع وعفن البشرية .

ونسى البشر أرض الله ، فصارت فى أشد الحاجة إلى غيث من السماء يطهرها لتستمر عليها الحياة الكريمة التى تليق بالإنسان الذى قبل أن يحمل الأمانة ؛ إلى رسول من عند الله مؤيد من عند الله يعيد البعث الروحى إلى الناس ، ويرتقى بالنظرة إلى الحياة فيقتلع الشرور من نفوس البشر ويحقق انتصار الإنسان .

وتقضت أيام سوق دومة الجندل بما فيها من مقامرة وهضم للحقوق وولوغ فى الدنايا التى تحط من قدر البشر ، فانقلبت بعض القبائل إلى منازلها . وانطلق بعض التجار إلى الحيرة وبلاد فارس ، ويمم بعض التجار إلى بلاد الشام وبلاد الروم ، وتوغل بعض تجار من كلب فى البلاد الرومية حتى بلغوا عمورية .

كانت الثعالب السود تمرح فى شعاب الجبال ، والأرانب البيض تفر مذعورة إذا ما عكر سكون الفضاء وقع حوافر الخيل على الأرض الصلبة ، وفاحت روائح المسك واعترى العرب سرور لا يدرون مبعثه ، فقد كان كل من يفد إلى هذه البلاد ينعم بنشوة تملأ جوانحه .

وانساب تجار كلب فى أسواق عمورية ، كانت المتاجر كثيرة والبضائع من طرف وحرير ومصنوعات مكدسة هنا وهناك ، فراح التجار العرب يشترون بما معهم من عملات قيصر ، ويبيعون الطيب والسيوف اليمانية ، ويستبدلون العملات لدى الصيارفة الذين انتشروا فى كل مكان ليستفيدوا من فروق أسعارها .

وكان سلمان الفارسى يعيش فى عمورية على أمل أن يجد من يحملونه إلى أرض العرب بعد أن سمع من صاحبه أن قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث

بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مُهاجره إلى أرض بين حرتين . فلما مرَّ به التجار العرب هرع إليهم متفرحا وراح يحدثهم ، فعلم أنهم من كلب فقال لهم وهو ينظر إلى بقراته وغنيماته :

ـــ احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيماتى هذه .

قالوا والطمع يسيل مع لعابهم والجشع يطل من عيونهم :

ـــ نعم .

وساقوا بقرات سلمان وغنيماته إلى حيث أناخوا قافلتهم ، ثم حملوه معهم يكاد يطير من شدة الفرح وقد هان كل شيء فى عينى الباحث عن الحقيقة ، فهو فى طريقه إلى النور الذى ينشده ، النور الذى هجر الأهل والخلان فى سبيله ، النور الذى يبدد القلق والحيرة والشكوك وينزل بالقلب أنوار اليقين .

انصرفت رغبته عن كل ما حصَّل من علم المجوس وعلم النصرانية ، وعن الاستقرار الذى ذاق طعمه فى عمورية ، وعن البقرات والغنيمات التى اقتناها إلى الخير الأسمى الذى ينشده ، إلى جوهر الحقيقة التى صارت هدف حياته ، فقد زهد فى الدنيا وفى كل ما تجلبه من مسرات رغبة فى سرور روحى وحبا فى انشراح الصدر الذى ينيره قلب مؤمن أشرق بنور ربه .

إنه زاهد مطلق لا يحب إلا الله ولا يريد إلا وجهه ، ترك حظ نفسه فى أصبهان وفى نصيبين وفى الموصل وفى عمورية ، وزالت عنه كل رغبة فى جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو سلطة أو سلطان . ولم تبق له إلا رغبة واحدة : أن يلتقى بذلك النبى العربى الذى بُشر به وبشرت به الأنبياء ليأخذ بيده إلى طريق الحق . وهل يقوده إلى الصراط المستقيم مثل نبى !

نبذ الدنيا و لم يتخذها ربا لكيلا تتخذه عبدا ، ونبذ الشهوة فرب شهوة أورثت حزنا طويلا ، وقطع كل علائقه بالماديات فى سبيل غاية أسمى تجذبه إلى ملكوت السماء فأخرج من قلبه حب الدنيا وأدخل فيه حب الغاية التى ليس وراءها غاية ، فاختار جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، وصبر على مكروهها وصبر عن محبوبها طمعا فى حياة روحية سامية تشبعه أبدا وتغنيه أبدا وتشرح صدره أبدا وتهون عليه مصائب الأيام ، فصار يرى بنور الله ويفكر بهدى رب العالمين الذى بات يحسه فى عين ذاته ، وأصبحت كل آماله ومنتهى أمانيه أن يلتقى بذلك النبى ويؤمن به ويصدقه ليعيش فى شعاع شمسه حواريا كحواريى السيد المسيح عليه السلام .

إنه جرب الرهبنة والعكوف فى الكنائس وتمضية النهار والليل فى المحاريب يردد ما لقن من ابتهالات ، غير أن طول السهر والقيام آناء الليل وأطراف النهار والاجتهاد فى الصلوات لم تشرح صدره و لم تكشف له عن لب الحقيقة ، فظلال الشك ترين على ما حاول أن يدخل قلبه من معتقدات ، وهو يريدها حقيقة ناصعة نقية بلا ظلال من ريب . فما إن سمع عن قرب ظهور نبى يأتيه الخبر من السماء حتى زهد فى الرهبنة وفى الدين الذى وجده أفضل من دين قومه وإن لم يهده الطمأنينة الخالصة ، فهو راغب فى الصفاء الذى لم تعكره أساطير الشعوب ولا أهواء الرهبان ولا مطامع القياصرة الذين فرضوا إرادتهم على المجامع المسكونية التى شرعت فى الدين ما يرضى أصحاب النفوذ والسلطان .

وانطلقت القافلة وسلمان بين الرجال وإن غاب عنهم بما فى فؤاده من أشواق وما فى رأسه من أفكار ، فلم يعد همه زينة الحياة الدنيا بل صار يرى

بعين بصيرته جمال الجمال ، بعد أن أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه و أصبح همه جوهر الحقيقة ووجه الله .

وبلغت القافلة وادى القرى وقد غمرت السعادة سلمان ، فهو فى أرض العرب مبعث ذلك النبى الذى خرج فى طلبه . وزاد فى سعادته أنه أحس أن الله أراد له الرشد والهداية بعد طول التأمل والبحث والحيرة .

سار سلمان مع تجار كلب فى السوق يتلفت وإذا بالرجال الذين ما أعطاهم بقراته وغنيماته ليحملوه معهم ينظر بعضهم إلى بعض وقد أطل الغدر من أعينهم ، فانقضوا عليه وأسروه بضاعة وعرضوه بين ما عرضوا من رقيق .

ولف سلمان حزن عميق ، فقَدَ فى لحظة حريته وهو الذى عاش طوال حياته حرا ينطلق من بلدة إلى بلدة كفراشة طليقة جريا وراء وجه الحقيقة ، وزاد فى أساه أن هؤلاء العرب الذين سيخرج منهم ذلك النبى الذى سيبعث بدين إبراهيم عليه السلام قد ظلموه وباعوه لرجل يهودى عبدا ، و لم يستسلم لثورة عواطفه فما لبث أن ضاءت بصيرته حقيقة أن الأنبياء لا يبعثون إلى أقوام صالحين ، فما رآه من هؤلاء النفر من تجار كلب مذ غادر معهم عمورية إلى أن باعوه فى وادى القرى يؤكد حاجتهم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور .

وانطلق سلمان خلف سيده اليهودى مطرق الرأس يفكر فى حكمة أسره فلم يهتد عقله إلى السر الدفين ، فما كانت عنده مفاتيح الغيب ليطلع على ما يخبئه له العليم الخبير ، وكان الأسى يعتصر فؤاده ولكنه لم يدع اليأس يتسرب إلى قلبه ، وكيف يعرف اليأس طريقه إلى قلب أشرق بالنور ؟

وراح سلمان يعمل فى أرض ذلك اليهودى ، ورأى النخل فاستبشر ،، فصاحبه قال له وهو يحدثه عن النبى العربى : يخرج بأرض العرب ،

مُهاجَره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى . فهرع سلمان يطوف بوادى القرى بحثا عن الحرتين : عن الأرض ذات الحجارة السود وقد امتلأت جوانحه بالأمل والرجاء ، ولكن فترت حماسته لما لم يجد الصفة التى حدثه بها صاحبه وإن لم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا .

ومرت الأيام وسلمان يعمل فى أرض سيده ، فبينا هو عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فلما رأى سلمان أعجب به فابتاعه من سيده ، فلم يستشعر سلمان أسى بل غمره شعور بالرضا ، فمن يدرى لعل الله قد بعث ذلك القرظى ليحمله إلى مبعث ذلك النبى الذى ينتظره أو إلى مهاجره .

وخرج سلمان مع سيده الجديد وانطلقا إلى المدينة ، فراح سلمان يقلب وجهه فيها فإذا بنشوه عارمة تغمره ، وإذا بنفث فى روعه يؤكد له أنها البلد الذى وصف له صاحبه . وما إن استقر فى أرض بنى قريظة حتى هرع ليطوف بالمدينة فإذا بفرح فياض يتفجر ينابيع من عين ذاته ، وإذا بسرور روحى عجيب يلفه . إنها أرض بين حرتين بينهما نخل ، إنها مهاجره ، إنها هى ولا ريب . وارتفعت الأسجاف عن عين بصيرته فرأى حكمة غدر تجار كلب به ، فخر إمام الزاهدين ساجدا لله يروى بدموعه الأرض ، وبات ينتظر فى صبر ذلك اليوم الأغر الذى يجتمع فيه بالنبى الذى أطل زمانه .

# ١

كان اليمنيون يرحلون إلى الشمال ، وكان أهل الحجاز يرحلون إلى الجنوب إلى اليمن ، وقد كثرت هجرة اليمنيين إلى الحجاز وشمال الجزيرة العربية عقب النشاط التجارى الذى قام به الرومان فى البحر الأحمر ، وبعد انهيار سد مأرب . وعلى الرغم من الاتصال الدائم بين الشمال والجنوب ، واجتماع الشماليين بالجنوبيين فى مواسم الحج وفى الأسواق ، فقد كان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى إن كلا منهما اتخذ لنفسه شعارا فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر .

وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء ويقوى روح الشر بينهم ، وقد كان العداء شديدا بين الأوس والخزرج الذين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب وبين العدنانيين سكان مكة ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات كل يدعى أنه أشرف نسبا وأعز نفرا ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة قديمة وملك راسخ .

وكانت القبائل فى عداء دائم ، وكان المثل الأعلى للعربى الكامل أن يتحلى بالشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرام إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، وما كان أحد يفكر فى إخضاع منافعه الشخصية ومنافع قبيلته للخير العام .

وكانت أسماء مشاهير العرب تزداد تألقا كلما زادت سفاهاتهم . وكلما زادت جرأتهم على حرمة الجار بالقول أو الفعل ، وكلما انتشرت فى الأرض فواحشهم ، فكان الشعراء يتغنون بكرم لاعبى الميسر ، وشجاعة سافكى الدماء والذين يغيرون على القبائل الآمنة لسلب حرية الرجال والنساء والولدان ، ويمتدحون شاربى الخمر وكل عاهر يلعب بعقول الغوانى ويطوف بدور البغاء .

وكانت بعض لمحات من الجود ومكارم الأخلاق تومض فى ذلك الظلام الحالك ، لا لفضيلة متأصلة فى قلوب الناس بل طمعا فى ذيوع الصيت وحسن الأحدوثة وإرضاء لغرور السادة الذين يريدون علوا فى الأرض والارتقاء إلى قمم الأمجاد .

كان الفساد يجرى فى شرايين المجتمع العربى مجرى الدم ، وكانت غارات المغامرين على القبائل تتعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكان الذين ينتزعون النساء من أحضان أزواجهن أو من كنف أسرهن لا يتسترون على أفعالهم النكراء ، بل كانوا يتفاخرون فى أشعارهم بما اقترفوا من آثام لتشيع بين الناس .

وكان فى كل قبيلة فارس يمشى فى الأسواق ويدعو الإماء والفتيات إلى نفسه ، أو يشن الغارة على قبيلة ليخطف منها امرأة أعجبته دون حياء . وقد جمع عروة الورد العبسى صعاليك قومه يغزو بهم القبائل من حوله ، فإذا أخفقوا فى غزواتهم كان يقوم بأمرهم فلقب عروة الصعاليك .

وأصابت الناس سنة شديدة فتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف . وخرج عروة فى صعاليكه وقد كنف على الناس الكُنُف ( اتخذ لهم حظائر يأوون إليها ) فانطلق للغارة والشتاء شديد وعشيرته

تكاد تهلك من الجوع ، وبينا هو وصعاليكه يبحثون عن فريسة إذا بناقتين دهماوين ، فنحر لهم إحداهما وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى ، وجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان . وإذا برجل صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه ، فقتله وأخذ إبله وامرأته .

وكشفت المرأة عن وجهها فإذا بها من أحسن النساء ، فوقع جمالها فى قلب عروة وفى قلوب صعاليكه فانقلبوا بما معهم إلى أصحاب الكنيف فحلبوا لهم الإبل وحملهم عروة عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم وأخذ مثل نصيب أحدهم ، فقالوا :

ـــ لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها .

فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ثم يذكر أنهم صنيعته وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، ففكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحله يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله .

كانت المرأة التى سباها من بنى هلال بن عامر بن صعصعة . يقال لها ليلى بنت شعواء . فمكثت عنده زمانا وهى معجبة له تريه أنه تحبه ، ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم فأقبل عليها فقال لها :

ـــ يا ليلى ، خبرى صواحبك عنى كيف أنا .

ـــ ما أرى لك عقلا ! أترانى قد اخترت عليك وتقول خبرى عنى !

وأخذ بنو عامر امرأة من بنى عبس ففخر عامر بن الطفيل بذلك وذكر أخذه إياها ، فراح عروة يعيرهم بأخذه ليلى الهلالية . كانت مثل هذه الأشعار التى تفخر بسلب الحرائر تنتشر بين الناس فيتلقفونها ليسمر بها

السمار فى نواديهم ، فقد كان سبى النساء والعبث بهن أمرا مألوفا شاع فى كل القبائل .

وسبى عروة سلمى من بنى غفار ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا وكان شديد الحب لها . وذات يوم حملها معه إلى يثرب ونزل فى بنى النضير ، فلما رأى اليهود حسن سلمى طمعوا فى جمالها فقدموا إليه خمرا معتقة فراح يشرب ، فلما انتشى منعوه . وراح يطلب مزيدا من الخمر فالتمسوا منه فى رقة أن يدفع ثمن ما يشرب ، وما كان معه شىء إلا زوجه فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى استحق اليهود الرهينة . فلما أفاق قال لها :

ـــ انطلقى .

قالت فى أسى :

ـــ لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى .

وأخذ اليهود سلمى الغفارية لما لم يقدر عروة على افتكاكها فى الوقت المشروط ، فقال عروة فى أسى :

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

وراحت سلمى تثنى عليه فقالت :

ـــ والله إنك ما علمتُ لضحوك مقبلا ، كسوب مدبرا ، خفيف على متن الفرس ، ثقيل على العدو ، طويل العماد ، كثير الرماد ، راضى الأهل والجانب(١) ، فاستوص ببنيك خيرا .

وانصرف عروة الصعاليك حزينا ، ثم ما لبث أن عاد لحياة الصعلكة يهاجم القوافل ويوزع ما يسلب على رجاله ، وينشد الشعر وينال إعجاب

---

(١) الغريب ويراد به الضيف .

المجتمع المريض ويفضله فى الجود على حاتم الطائى .

ولم يكن المجتمع فى يثرب بأحسن حالا من المجتمعات العربية الأخرى ، فقد دب الشقاق بين اليهود واليهود ووقعت البغضاء فى قلوب الأوس والخزرج . وكثيرا ما كانت المنازعات تنشب بين العرب واليهود ، وكثيرا ما كانت تثور الحروب ولا تحقن الدماء إلا لفترة وجيزة ، ثم سرعان ما تندلع ألسنة نيران الفتن لتخرق اليهود والعرب دون تمييز .

وفى ذلك الجو المشحون بالعداوات والقلاقل والخوف راح ابن الهَيَّبان يجود بآخر أنفاسه ، وقد التف به ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسيد بن عبيد ، وهم نفر من بنى هدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، وقد لاح فى وجوه الرجال هم ثقيل . فابن الهيبان رجل من يهود أهل الشام قدم عليهم ، حل بين أظهرهم ما رأوا قط رجلا أفضل منه .

كانوا إذا قحط عنهم المطر قالوا له :

ـــ اخرج يا بن الهَيَّبان فاستسق لنا .

فيقول :

ـــ لا والله ، حتى تقدموا بين يدى مَخرجَكم صدقة .

فيقولون له :

ـــ كم ؟

فيقول :

ـــ صاعا من تمر أو مُدَّين من شعير .

فيخرجونها ثم يخرج بهم إلى ظاهر حرتهم فيستسقى الله لهم ، فوالله ما يبرحوا مجلسه حتى يمر السحاب ويسقون .

وعرف ابن الهيبان أنه ميت، فالتفت بعيون زائغة إلى من كانوا عنده وقال:

ـــ يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟.

قالوا :

ـــ إنك أعلم .

قال فى صوت خافت :

ـــ فإنى إنما قدمت هذه البلدة أتوكّف ( أنتظر ) خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مُهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ، فمن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه .

ومات ابن الهيَّبان وحديثه يرن فى أعماق قلوب الفتية ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد بعد أن حفر فى أعماق نفوسهم ، ثم قبر ابن الهيبان وما أسرع أن نَسى الناس تلك العبرة المؤقتة التى ينزلها بالأفئدة رهبة الموت وجلاله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من سعى للدنيا وكذب وبهتان وزور ، وأكل الأموال بالباطل ، ومد العيون إلى نساء الآخرين ، والاحتيال بالخمر والميسر على سرقة الأموال وسلب الزوجات والحريات ، وإحالة السادة والحرائر إلى عبيد .

واستمرت الشرور بين العرب من الأوس والخزرج واليهود ، ودات يوم نال العرب من اليهود ما يكرهون ، فقال لهم اليهود :

ـــ إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وأحس الأوس والخزرج رهبة ، فكثيرا ما سمعوا ذلك من اليهود وهم أهل كتاب عندهم علم ليس عند أصحاب الأوثان ، ترى لو تحقق ذلك الوعيد وبعث ذلك النبى ، فماذا يفعلون ؟!

## ٣

كانت الدولة الرومانية تترنح تحت حكم الإمبراطور فوقاس ، وكانت تعيش فى ظل كابوس رهيب من الفوضى الهدامة والظلم الذى يئن من وطأة سكان القسطنطينية وسكان الممالك الخاضعة للنسر الرومانى على السواء ، فقيصر الإله يضارب فى تجارة القمح لتتكدس فى خزائنه الأموال ، ورجال الدولة يقترفون كل الموبقات فى سبيل الثراء العاجل ، فسيطرت الأسر النبيلة على النشاط التجارى وعلى الملاهى ودور البغاء وعلى كل ما يجلب الذهب والفضة ، فقامت بعض الأسر بتربية الدواجن واحتكرت تجارتها ، واحتكرت أسرات أخرى صناعة الأبسطة ، وسيطرت أسرات على حانات الخمر ودور الدعارة ، حتى الكنيسة نفسها اهتمت بالمسائل المصرفية وإقراض الأباطرة بأموال تصرف على حروبهم للفرس لقاء فوائد باهظة ، فلا غرو أن صار الناس جميعا فى الإمبراطورية الرومانية عبيد المال .

وكانت مصر وسورية وبعض الممالك الأخرى التى أوقعها سوء طالعها بين براثن الرومان ، تقاسى من ظلم جباة الضرائب الذين ينتزعون ثمرات الجهود المضنية ليحملوها إلى خزائن الإمبراطور الذى لا يشبع نهمه للذهب والفضة ، فلم يجد أهلها منفسا للثورة على الاضطهاد غير معارضة القسطنطينية فى لاهوتها ، فكانت حركة وحدة طبيعة المسيح فى مصر وسورية تستلهم وحيها من العداء الذى تكنه للحكام الرومان أكثر منها

للعداء للمذهب .

وكانت عبادة الدولة والإمبراطور سائدة فى الإمبراطورية التى كان سوس الفساد ينخر فى عظامها ، وقد استشرى الانحلال لما أبت الطبقة الأرستقراطية أن تنسجم مع تلك العبادة والخضوع خضوعا مطلقا لقيصر ، فأصحاب الأراضى الواسعة يشكلون مشكلة خطيرة استعصى حلها على الدولة ، فهم أصحاب نفوذ وسلطان وقوة ومنعة ، وقلما كانوا يلينون للدولة وقوانينها أو يخضعون لرغبات الإمبراطور .

وزاد الأمر سوءا لما كثرت هجرات البرابرة إلى المقاطعات الرومانية ، فقد جلبوا معهم المتاعب وعاثوا فى الأرض فسادا ، فقضى ذلك على قيمة الأرض وتمزقت الضياع الكبرى شر ممزق ، ووهنت قوة أصحاب الأراضى المناوئين لنزوات رأس الدولة فخلا للإمبراطور وجه الشعب يرهقه كما يشاء ، ويمتص دماءه يروى بها أراضيه لتثمر مزيدا من الذهب والأموال .

وضربت الفوضى فى جنبات عاصمة الإمبراطورية بعد أن ضاق الشعب بأعباء الحروب الطاحنة الناشبة بين الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم ، وقد أرهقت تكاليف هذه الحروب دافعى الضرائب ووضح أثرها فى القسطنطينية ، فارتفعت الأسعار ، وزادت الضرائب وعاش فقراء العاصمة فى ضنك شديد ، وراحت أخياؤهم القذرة تزاحم قصور الأغنياء ، ولم يبق شىء بلا ثمن غير السيرك الذى فتح أبوابه للجميع ليشغل التعصب لأحد فريقى السيرك قلوب الناس ، وكان الإمبراطور يحسب أن فى ذلك اللهو منفسا لما يعانى الشعب من حرمان وضيق ، ولم يدر بخلده أن الفتن الداخلية كانت تجد لها مرتعا خصبا بين الحشود التى تتقاطر على

السيرك كل ليلة .

وأغلق فوقاس جامعة القسطنطينية وهو يحسب أنه يخنق بذلك صوت المثقفين الذين يرفعون أعلام العصيان فى وجه سياسته الخرقاء التى لا تنشد إلا إشباع شهواته المادية ، وملء خزائنه بالذهب معبود العصر المحبوب ، و لم يخطر له على قلب أن السيناتو : مجلس شيوخ الإمبراطورية قد تآمروا عليه وبعثوا إلى هرقل ابن حاكم إفريقية يحرضونه على أن يقبل بجيشه لتخليص البلاد من الإمبراطور الجشع الذى يشترى قمح البلاد لحسابه ، ثم يبيعه بما يشاء من أسعار باهظة فى زمن المجاعات .

وحمل هرقل جنوده فى السفن وأقلع من إفريقيه إلى القسطنطينية لينقذ البلاد من التردى فى هاوية الفساد ، وليرفع عن صدرها الكابوس الرهيب الذى جثم عليها مذ تولى الحكم فوقاس المفتون بالمظالم وجمع المال ، ودارت معارك بين حامية القسطنطينية التى لا تؤمن بما تحارب فى سبيله وبين جنود آمنوا بأنهم ما جاءوا إلا لإنقاذ بلادهم من الطاغية ، فدارت الدائرة على من كانت قلوبهم هواء ، ودخل هرقل القسطنطينية دخول الظافرين وهتافات الترحيب بالمنقذ تتعالى من كل مكان .

وقتل فوقاس ويقتله انهارت أسرة يوسطنيانوس ، وهرع شيوخ السيناتو للترحيب بالرجل الذى اختاروه سرا لتخليص البلاد من براثن الإمبراطور الجشع الطماع ، وتأهبت القسطنطينية لتتويج المنقذ إمبراطورا على البلاد التى أنهكتها حروبها مع فارس ، ومزقت وحدتها اختلافها فى المسيح ووحدته وطبيعته وإرادته ، وإن كانت كل المماليك الخاضعة للنسر الرومانى تدين بالديانة المسيحية .

وازدان القصر ورفعت الأعلام خفاقة فوق الدور والحوانيت وفى

الشوارع والميادين ، ولبست كنيسة أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة أبهى حللها ، وماجت الجماهير فى الطريق بين القصر والكنيسة ، وتسلق الشباب الأشجار والتماثيل ، وتدفقت البغايا من حيهن القريب إلى طريق الموكب الإمبراطورى مشاركة منهن فى أفراح الشعب .

ونفخ فى الأبواق ، وسرعان ما فتح باب القصر وخرجت منه الموسيقات والمشاة فى ثيابهم المزركشة ، ودروعهم المعدنية تتألق فى الشمس ، وفى أيديهم الرماح والمتاريس ، وقد تدلت على جنوبهم السيوف . ومن خلفهم الفرسان على ظهور الجياد كأنهم فى حصون ، ثم خرجت عربات رجال القصر والدولة ، ثم عربة الإمبراطور تحف بها كوكبة من خيرة فرسان الإمبراطورية . وما إن وقعت أعين الجماهير على هرقل حتى تعالت الهتافات مدوية بحياة المنقذ ، ابن السماء .

وبلغ الركب الفخم ميدان أيا صوفيا ، وقد اصطف فيه الجند ، ووقف عند باب الكنيسة رجال السناتو ورجال الدين وكبار الضباط والقضاة وكبار رجال الدولة فى ثيابهم المزركشة ، وهبط الإمبراطور من عربته بين ترحيب المستقبلين الذين علا وجوههم بشر واستبشار بفاتحة عهد جديد فى حياة الإمبراطورية الرومانية الخالدة .

وسار هرقل يعلوه الوقار فى الكنيسة التى كانت آية من آيات الفن البيزنطى ، وتقدم بين الصفوف إلى حيث وقف البابا هونوريوس الأول ومن خلفه كبار رجال الدين حتى إذا ما بلغ المحراب أدى صلاة شكر لله ، ثم دوى فى جنبات الكنيسة الهادئة الصامتة صوت البابا يعلن تتويج هرقل إمبراطورا على الدولة الرومانية بكل ما فى حوزتها من بلاد .

ودخل هرقل قاعة العرش وفتحت الأبواب لوفود المهنئين ، وما انتهت

مراسيم الاحتفال حتى بعث فى طلب المنجمين والعرافين ليروا ما يخبئه القدر ، فراح المنجمون يرصدون النجوم ثم عادوا إليه مطأطئى الرءوس باسرى الوجوه ، فالأسرار التى كشفت عنها النجوم كانت رهيبة لا يجرؤ أحد منهم على أن يلقى بها فى وجه هرقل أمل الإمبراطورية ومنقذها العظيم .

ودخل المنجمون والعرافون على الإمبراطور وقد ملأت النشوة جوانحه وتأهب ليسمع ما يثلج الصدور وما يشرق عليه من بهجة من وراء الغيب ، وراح المنجمون يحاولون أن تنم أساريرهم عن الطمأنينة والهدوء وإن كانت أفئدتهم تدوى بين ضلوعهم فى فزع وخوف ، وتقدموا وهم يترنحون حتى إذا ما وقعت أعينهم على الإمبراطور خروا له ساجدين وقد أرهفت حواسهم وتمنوا لو يطول السجود حتى لا يرى هرقل ما يكره فى وجوههم .

وأمرهم بالنهوض فرفعوا رءوسهم وقد زاغت الأبصار وانقبضت الصدور وظهر فى لفتاتهم وحركاتهم خوف شديد ، وأحس هرقل ما هم فيه من قلق واضطراب فأوجس خيفة وقال فى صوت متهدج :

ـــ ماذا قالت النجوم ؟

فتقدم كبير منجمى القصر فى خطوات وجلة وقال فى صوت بدا كأنما قد أتى من أغوار سحيقة :

ـــ نفس ما قالته من قبل يا مولاى .

ـــ وما الذى قالته من قبل ؟

ـــ سيدمر الإمبراطورية شعب مختون .

فهب هرقل فى ثورة وقال فى حنق شديد :

— ومتى هذا البلاء إن كنتم صادقين ؟

وصمت كبير المنجمين وإن كان يرتجف من الرأس إلى القدم ، وسرت فى أبدان العرافين رعدة شديدة خوفا من بطش الإمبراطور الغاضب الذى غاض إشراقه لما مست النبوءة المشئومة أذنيه . وتقدم هرقل من كبير المنجمين خطوات وهو يقول :

— تكلم .

— الأمان يا مولاى .

— لك الأمان .

فراح الرجل يروى على مسامع الإمبراطور نبوءة تقلص ظل النسر الرومانى عن الأرض التى يرفرف عليها ويؤكد اندحار الجيوش الرومانية أمام جحافل جيش الشعب المختون ، وأن ذلك البلاء ليس قريبا وليس بعيدا[1] . فزفر هرقل فى غيظ وراح يصر على أنيابه يكاد أن ينفجر حنقا، وما إن غادر المنجمون والعرافون قاعة العرش مطأطئى الرءوس حتى راح الإمبراطور يفكر فى التنكيل باليهود ، فهم فى وهمه الشعب المختون الذى تقول النبوءة إن صرح الإمبراطورية سيتقوض بسيوف بنيه .

كان اليهود يعيشون فى عزلة فى الإمبراطورية الرومانية لا يختلطون بغيرهم ترفعا ، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم حتى لا يضيع الدم الطاهر فى الأمم ، فهم يؤمنون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم كلاب البشرية ، وأن الإله إنما هو إله إسرائيل وحدهم وأنه فضلهم على العالمين ، ولما كانوا

---

(١) تولى هرقل الملك سنة ٦١٠ م وكانت معركة اليرموك التى انتصر فيها خالد ابن الوليد على جيوش الروم ٦٣٦ .

متشبثين بتلك العزلة كان التنكيل بهم سهلا ميسورا ، فراح هرقل يسوقهم زمرا إلى الملاعب الرومانية يلقى بزعمائهم إلى الأسود أمام شعبه المفتون بإراقة الدماء ، ويفرض عليهم المجالدة والقتال حتى الموت على أعين فاتنات الإمبراطورية وشبابها الماجن وشيوخها الذين قدت قلوبهم من فولاذ ، والهتافات تتجاوب فى جنبات الملاعب التى كانت منفسا لكل الشرور .

واستمر هرقل فى تعذيب اليهود وإلهاب ظهورهم بسوط عذاب ، وما دار بخلده أن الشعب المختون الذى سيدمر إمبراطوريته تدميرا هم أتباع النبى الأمى الذى بشر به السيد المسيح ، الفارقليط الذى سينزل عليه الكتاب المنير الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد .

## ٤

برارى سهلة كثرت فيها المزارع وقامت عليها أشجار النخيل كالأبراج ، وانتشرت هنا وهناك بساتين خضراء وعيون جارية وثمرات مختلفة الألوان كأنها العقيق والزمرد والمرجان ، ومراعى ممتدة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، وجبال وعرة وصحراء واسعة مترامية وحصون مرتفعة ومعاقل منيعة وبحر يخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وقصور عجيبة وأبنية عظيمة ومدن عامرة ، وتجارة ممدودة فى الدر والياقوت والمسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفل والحديد والحرير القصب والتحف والسجاجيد والسيوف ، إنها أرض اليمن أرض الخير والبركات .

وفى قبيلة دوس فى أرض اليمن كان الناس يطوفون بصنم ذى الكفين وكان لعمرو بن حُمَمة الدوسى ، وكان الإله العظيم الذى تقدم إليه القرابين والصلوات وترفع إليه الابتهالات والدعوات ، وكان بين الطائفين الطفيل ابن عمرو الشاعر الشريف الغنى الذى فتح أبواب داره للضيفان ، وأبو أزيهر الدوسى الذى خطب ابنة الوليد بن المغيرة أخت هاشم بن الوليد وخالد بن الوليد والذى ربط بهذه المصاهرة الأسباب بين دوس وبين حى من أعظم أحياء قريش ، فبنو مخزوم قد تساووا على الركب مع بنى هاشم وبنى أمية ، وقد اشتعلت بين تلك الأحياء المنافسة على شرف زعامة أهل الحرم ، وإنه لمجد عظيم قد جلبه ابو أزيهر لقبيلته بتلك المصاهرة الكريمة التى تتوق إلى مثلها كل قبائل العرب .

وكان إلى جوار أبى أزيهر صديقه الحميم سعد بن صبيح بن الحارث بن سابى بن أبى صعب بن هُنية ، وقد تعلقت عيون الناس بالطفيل وأبى أزيهر وابن هُنية أشراف دوس وساداتها وأصحاب الأموال وأهل الذكر من بنيها .

وكان بين الطائفين شاب فقير آدم بعيد ما بين المنكبين ذو ضفيرتين أفرق الثنيتين لا يلتفت إليه أحد ، إنه عبد شمس ابن أخت ابن هُنية ، ولو قال كل العرافين والمنجمين للناس إن ذلك الشاب الفقير الذى يرعى غنم أهله والذى يقاسى شظف العيش سيصبح أشهر أهل دوس ، بل أشهر أهل اليمن جميعا لما صدقوهم .

إن عبد شمس وجد هرة وحشية لما كان صبيا فأخذ أولادها وعاد إلى البيت ووضع أولاد الهرة فى حجره وراح يداعبها ويحنو عليها ويطعمها ، ومر أبوه به فقال له :

ـــ ما هذه فى حجرك ؟

فقال عبد شمس فى فرح :

ـــ أولاد هرة وحشية .

ووقف أبوه ينظر إلى حدب ابنه على الهريرات الصغيرة وعنايته بها وصبره عليها ، فقال له وهو منطلق إلى حجرته :

ـــ أنت أبو هريرة .

وغلبت كنيته على اسمه فعرف فى دوس كلها بأبى هريرة ، وراح أبو هريرة يمضى وقته فى رعى الغنم مع أخيه كُريم ، ويلعب أحيانا مع ابن عمه أبى عبد الله الأغر ، حتى مات أبوه وهو صغير فشب يتيما لينصهر فى بوتقة الحزن ويعتزل الناس ويعود إلى نفسه ، استجماعا لشتات ذاته وامتلاكا

فأشرقت الوجوه واتجهت الأبصار إلى العروس بنت الوليد فأطرقت حياء ، فقامت إليها أسماء بنت مخربة أم أبى الحكم بن هشام تطيبها بأفضل ما عندها من أنواع الطيب ، وتحدثها حديثا رقيقا عن الدوسى القادم من اليمن بأموال قومه ليدفع مهر العروس الجميلة سليلة بنى المغيرة الأمجاد .

ومر الوقت وطال السمر و لم يفتح أبو أزيهر فمه بكلمة عن المهر الذى وعد بدفعه لبنت الوليد فران على المجلس قلق ، وبلغ ذلك القلق غايته لما نهض أبو أزيهر مستأذنا فى الانصراف دون أن يرد ذكر المهر على لسانه ، فاستشعر بنو المغيرة بطعم الإهانة إلا أنهم تحلموا على مضض .

وبعيدا عن أهل البيت خلا هاشم بأبيه وقال فى ثورة وغضب ، إن مماطلة أبى أزيهر فى دفع مهر أخته إهانة لهم ، ولو ذاع ذلك الخبر بين الناس لنال من كرامتهم ، وإن الأمر أصبح يستدعى وضع حد لهذه المهانة . فراح الوليد يعمل جاهدا على إخماد ثورة ابنه ، وإن كانت نار الغضب تندلع فى صدره وتلسع أفكاره .

وتصرمت أيام وأبو أزيهر يغدو ويروح بين دور بنى مخزوم والحرم ومجالس سادات قريش ، وبنو المغيرة يسألونه أن يدفع المهر الذى اتفقوا عليه وهو يعد ولا ينفذ شيئا مما يعد به ، فيزداد هاشم بن الوليد حنقا على حنق ، وهمس الناس فى مكة أن أبا أزيهر الدوسى يماطل فى دفع مهر بنت الوليد بن المغيرة ، وارتفع الهمس حتى صار حديث النوادى والسمَّار ، وترامى ما يتندر به القوم إلى مسامع هاشم فران الغضب على قلبه وانسدلت أسجاف الحقد على بصيرته ، فانطلق كالعاصفة إلى حيث كان ذلك الدوسى الذى جعلهم سخرية فى أفواه الناس .

واحتدم النقاش الغاضب بين أبى أزيهر وهاشم ، وملأ الحنق فؤاد هاشم

فأعمى بصره وعقله واستولت عليه فكرة واحدة : إن ما لحقهم من إهانة لا يغسله إلا دم من دفعه طيشه إلى الجرأة عليهم ، فاستل سيفه وطعن به أبا أزيهر فأرداه قتيلا ، وفى مثل لمح البصر ذاع فى مكة خبر مقتل هاشم لأبى أزيهر الدوسى ، وفى لحظات كان سادات قريش يديرون قداح الرأى بينهم ليروا لهم رأيا فى تلك العداوة التى نشبت فجأة بين قريش ودوس بعد أن أصبح بين القبيلتين ثأر .

كان تجار قريش فى الشراة ، وهى صقع بالشام بين دمشق ويثرب ، لا علم لهم بالثأر الجديد الذى سيجعل كل قرشى مطلوبا لدوسى ولو لم يشترك فى دم أبى أزيهر ، فكان على أشراف قريش أن يبعثوا أرطأة بن سيحان حليف حرب بن أمية ، وأن يعجلوا بذلك وأن يحثوه على الإسراع ليبلغهم الرسالة ليأخذوا حذرهم قبل أن يصل النبأ إلى الدوسيين فيغمسوا خناجرهم فى قلوب القرشيين الغافلين .

ورأى حاجز الأزدى ما نزل بسيد من سادات قومه فراح يسابق الريح ليخبر أهله بالرزء الفادح . وكان سباقا رهيبا بين أرطأة الذى كان مع بنى أمية كواحد منهم وبين الأزدى . سباقا بين الحياة والموت ، وقد أحس أرطأة أن أرواحا بريئة معلقة بأرجل راحلته فراح يستحثها على العدو دون رحمة أو شفقة .

وبلغ أرطأة السراة وقد نال منه الجهد وكادت راحلته تموت من التعب ، وما أسرع ما انطلق إلى تجار قريش يقص عليهم قتل هشام بن الوليد أبا أزيهر ويحذرهم غدر الدوسيين أخذا بثأر من قتله هشام لمطله إياه بمهر أخته .

ونجا تجار قريش الذى كانوا فى السراة ولكن ابن هُنَيَّة صديق أبى أزيهر

لزمام أمره لكى يزيد فى خصب حياته الباطنية ويضاعف من ثراء عالمه الداخلى ، حتى إذا ما بلغت أذنيه الدعوة إلى الله كان معدا إعدادا نفسيا للتصديق والهجره إلى الله ليرتمى بكل كيانه فى أحضان الدعوة الجديدة .

وأتم الطفيل بن عمرو سيد دوس وشاعرها ، وأبو أزيهر صهر بنى مخزوم ، وابن هُنية صديق أبى أزيهر الحميم مناسكهم ، فابتعدوا عن بيت ذى الكفين وهم يتحدثون فى أمر دنياهم ، فما كان الدين فى أعماق ضمائرهم فهم يمارسون ما وجدوا عليه آباءهم عاكفين .

كان الحديث يدور حول سفر أبى أزيهر إلى مكة لزيارة بيت الوليد بن المغيرة ، وكان الطفيل سعيدا بخطبة أبى أزيهر لبنت الوليد فأخوها خالد هو قائد فرسان قريش له الأعنة وله القبة التى يضربونها إذا ما تأججت نيران الحرب ليجمعوا إليها ما يجهزون به الجيش ، فمصاهرة دوس لبنى مخزوم سترفع من شأن دوس بين قبائل اليمن . وكان ابن هنية متهلل الأسارير فزواج صديقه من قرشية سيفتح له بيوت سادات أهل الحرم وأشرافها ، فراح يتحدث عن تلك الزيجة فى انفعال وحماس لا يقل عن حماس الطفيل ، بينا كان أبو أزيهر صامتا يتظاهر بالإصغاء إلى الصديقين العزيزين وإن كان مشغولا عنهما بالأفكار التى استولت على رأسه واستبدت به .

وانطلق أبو أزيهر إلى مكة فلما بلغها راح يطوف بالحرم . ثم اتخذ سبيله إلى دار الوليد بن المغيرة فألفى هناك الوليد وهاشم بن الوليد وخالد بن الوليد وأبا الحكم بن هشام بن المغيرة ( أبا جهل ) وسادات بنى المغيرة وبنى مخزوم . فما إن وقعت أعين القوم عليه حتى خفوا إليه يرحبون به أجمل ترحيب .

وانتقل إلى حيث كان النسوة مجتمعات فى الدار خبر وفود أبى أزيهر

كان لا يأخذ أحدا من قريش إلا قتله بأبى أزيهر الدوسى ، ورأى أبو هريرة مقت خاله للقرشيين فنزل فى قلبه بغضهم ، وقد وقر فى ضميره أن هذه البغضاء قد سكنت سويداء قلبه وأن الزمن يعجز عن أن يغسل ذلك الغل الذى يملأ صدره ، و لم يخطر له على بال أن قرشيا أوشك أن يصطفيه الله ويبعثه رحمة للقبائل بل للناس جميعا ليطهر القلوب من البغضاء ويؤلف بينها ، وأن أبا هريرة الحاقد سيكون بفضل من الله من أتباعه المقربين الذين يجدون فى قربه غذاء للروح ونبراسا للعلم الصادق والحكمة الغالية .

## ٥

ألفان وخمسمائة بعير أناخت خارج الحرم والرجال يغدون ويروحون بين دورهم ودار أبى سفيان ، فمكة كلها تتأهب لرحلة الصيف التى ستنطلق إلى الشام وعلى رأسها سيد بنى أمية ، وقد جاء إلى أم القرى تجار ثقيف يقودهم أمية بن أبى الصلت صديق أبى سفيان الحميم ورفيقه فى السفر .

وراح معاوية بن أبى سفيان يمشى إلى حيث جلس أبوه بين سادات قومه وأمه هند بنت عتبة ترقبه وقد رفت عل شفتيها ابتسامة رضا ، وسرعان ما شرد ذهنها لترى نفسها فى دار الفاكه بن المغيرة زوجها الأول الذى جرح كبرياءها جرحا لا تنساه .

كان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت للضيافة بارز يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه ثم نهض لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كانوا يغشون البيت فولجه فلما رأى هندا رجع هاربا ، وأبصره الفاكه فأقبل إليها فركلها برجله وقال :

ـــ من هذا الذى خرج من عندك ؟

ـــ ما رأيت أحدا ولا انتبهت حتى أنبهتنى .

ـــ ارجعى إلى أمك .

وارتجفت هند وهى فى مكانها فى بيت أبى سفيان من الرأس إلى القدم ، فتلك الذكرى كلما هاجت تخزها وخزا أليما . وحاولت أن تطردها عن

— ثمرة فى كمرة .

— إنى أريد أبين من هذا .

— حبة فى إحليل مهر .

— صدقت . انظر فى أمر هؤلاء النسوة .

فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول :

— انهضى .

حتى دنا من هند فإذا بها تكاد تموت رعبا ، فشرفها قد بات معلقا بكلمة تخرج من بين شفتيه فقال لها :

— انهضى غير زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية .

وتهللت أساريرها وهى فى مكانها ترنو إلى معاوية ، ورأت فى وضوح على صفحة ذهنها الفاكه وهو ينهض إليها فيأخذ بيدها وهى تنشر يدها من يده وتقول :

— إليك عنى ، فو الله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك .

كانت لحظة قاسية لكأنها دهر سرمد ، ترى ماذا كان مآلها لو أن الرجل أخطأ . وانتبهت من ذلك الكابوس الذى ران عليها على أصوات الرجال المقبلين المدبرين ، فألفت رجلا يتفرس فى وجه معاوية فصوبت إليهما بصرها وكل حواسها ، فالتقطت أذناها قول الرجل :

— إن هذا الفتى سيسود قومه .

فردت هند على الرجل فى حدة :

— ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه .

كانت أحلام هند عريضة ، وكانت ترجو لابنها ملكا كملك كسرى أو قيصر ، فراحت تبث فيه التطلع إلى السيادة وتوسع آفاق حبه

رأسها ولكنها ألحت عليها وفرضت نفسها فرضا ، وراح كلام الناس يدوى فى أذنيها دويا مفزعا يكاد يمزق أعصابها وإن مضى على ذلك ثمان سنين . وعلا صوت أبيها حتى غطى على كل صوت :

ـــ يا بنية ، إن الناس أكثروا فيك فأنبئينى بنبئك ، فإن يكن الرجل عليك صادقا دسست عليه من يقتله فتنقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن .

ـــ لا والله ما هو علىّ بصادق .

ـــ يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن .

ورأت هند نفسها فى نسوة والفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وعتبة فى جماعة من عبد مناف ، والقافلة تنطلق إلى اليمن حتى إذا شارفوا البلاد قالوا :

ـــ غدا نرد على الرجل .

ورن فى أذنيها صوت أبيها وقد نم عن الريبة :

ـــ إنى أرى ما حل بك من تنكر الحال وما ذاك إلا لمكروه عندك .

ـــ لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه، ولكنى أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون علىّ سبّة .

ـــ إنى سوف أختبره .

فصفر عتبة بن ربيعة بفرسه حتى أدلى . ثم أدخل فى إحليله حبة بر وأوكأ عليها بسير ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم ، فلما قعدوا قال له عتبة :

ـــ جئناك فى أمر وقد خبأت لك خبئا أختبرك به ، فانظر ما هو ؟

للسيطرة ، وما كانت هند بدعا بين سيدات قريش ، فأم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج العباس كانت ترقص ولدها عبد الله بن عباس قائلة :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى
إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العد وبذل الوفر
حتى يوارى فى ضريح القبر

وجاء الليل وماج الناس بعضهم فى بعض ، وجلست صاحبات الرايات الحمر لاستقبال الرجال : سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وعناق صديقة دلدل ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان ابن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية مالك بن عميلة ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومى ، وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر ، وغاص المكان بتجار الفساد وجند الشيطان والباحثات عن الذهب .

وأقبل أبو سفيان وإلى جواره صديقه العزيز أمية بن أبى الصلت الطامع فى النبوة ، يحف بهما سادات قريش ، فلما وقعت أعين الناس على سيد بنى أمية ساد المكان سكون وأرهفت الآذان ، فإذا بصوت أبى سفيان يجلجل إيذانا بالرحيل ، فكثر العناق واشتد وجيب القلوب فى الصدور وانهمرت الدموع من العيون ، وتحركت آلاف الرواحل وراح الفرسان يحرسون قافلة أبى سفيان فبدا كأن مكة كلها قد خرجت إلى الشام .

وانطلقت القافلة فى معبد الله وأبو سفيان يصدر أوامره ، وأمية بن أبى الصلت هائم فى الوجود يقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض ويجتهد فى الوصال بالذات العلية التى يطمع فى أن تبعثه هاديا ومبشرا

ونذيرا . ونزلت القافلة منزلا فلم يعتزل أمية قومه ليأنس بربه ويأخذ فى ذكره ليسعد بجلاء قلبه فتنكشف له أكثر الحقائق بكشف إلهى ، بل أخذ سفرا له يقرؤه على أصحابه فقد كان أمية يحصل العلوم من الكتب ، فصار محجوبا عن الله باعتقادات تقليدية جمدت فى نفسه ورسخت فى قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فلم يورثه الله علم ما لم يعلم .

واستأنفت القافلة رحلتها وأمية يفكر فيما قرأه فى الكتب ، فلم يتصل بالله و لم يفتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وحجبت عن قلبه أنوار العلوم و لم تتجل فيه حقيقة الحق فى كل الأمور ، فرغبته الجامحة فى النبوة ليتيه بها على الناس حالت بينه وبين أن يصفو قلبه لله وحده ، فمنعه الله من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته والتعرض لنفحاته المبذولة بحكم جوده وكرمه ، فالقلب مقبول من الله إذا سلم من غير الله ، فمن كان لله كان الله له .

واستمر أمية يقرأ الأسفار على أصحابه كلما نزلوا منزلا فى الطريق حتى نزلوا قرية من قرى النصارى ، فجاء بعض الرهبان إلى أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، ثم التفت إلى أبى سفيان وقال :

ـــ هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

لم يكن أبو سفيان مهتما بالنبوءات التى شغلت أذهان المترقبين للبعثة ، وما كان من المهتمين بالإرهاصات الدالة على قرب ظهور النبى المنتظر فقال فى عدم اكتراث :

ـــ لا إرب لى فيه . والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى

بما أكره لأجدن منه .

فذهب أمية فى مسوح الرهبان ليسأل ذلك العالم عما شغله ، وليعبد الله مع الرهبان لعل الله يستجيب لدعائه ويبعثه هاديا إلى قومه ويحقق رجاءه ، وخالفه شيخ من النصارى فدخل على أبى سفيان فقال :

ـــ ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

ـــ لست على دينه .

ـــ لئن ذهبت إليه لتسمعن عجبا !!

وصمت قليلا ثم قال لأبى سفيان :

ـــ أثقفى أنت ؟

ـــ لا ، ولكن قرشى .

ـــ فما يمنعك من الشيخ ؟! فو الله إنه ليحبكم ويوصى بكم .

وخرج النصرانى من عند أبى سفيان ، ومكث أمية عند أصدقائه النصارى حتى جاء قومه بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حزينا . ترى ماذا قال له العالم الذى تناهى إليه علم الكتاب حتى ران عليه ذلك الحزن وتلك الكآبة ؟

وانقضى الليل وما يكلم أمية أصحابه ولا يكلمونه ، ثم التفت إلى أبى سفيان وقال فى تبرم :

ـــ ألا نرحل ؟

ـــ وهل بك من رحيل ؟

ـــ نعم .

فرحلوا فساروا ليلتين وأمية صامت لا ينبس بكلمة ، وظل شارد الفكر حتى إذا ما كانت الليلة الثالثة التفت إلى أبى سفيان وقال :

ـــ ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

ـــ وهل بك من حديث ، والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك .

ـــ أما إن ذلك لشىء لست فيه ، إنما ذلك لشىء وجلت منه من منقلبى .

ـــ وهل لك من منقلب ؟

ـــ إى والله لأموتن ثم لأحيين .

فالتفت إليه أبو سفيان وقال فى سخرية :

ـــ هل أنبت قابل أمانتى ؟

فقال أمية دون أن يفطن إلى رنة الهزء البادية فى صوت أبى سفيان :

ـــ على ماذا ؟

ـــ على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

فضحك أمية ضحكة مريرة ثم قال :

ـــ بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق فى النار .

ـــ ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

ـــ لا علم لصاحبى بذلك لا فىّ ولا فى نفسه .

ومضت ليلتان والحوار دائر بين الصديقين ، أمية يعجب من أبى سفيان الذى ينكر البعث والحساب وأبو سفيان يضحك منه ، حتى قدمت القافلة غوطة دمشق فباعوا متاعهم، وأقاموا بها شهرين فارتحلوا حتى نزلوا قرية من قرى النصارى. فلما رأى الرهبان أمية بن أبى الصلت جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبين

وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فما نام ولا قام وأصبح حزينا كئيبا لا يكلم أصحابه ولا يكلمونه .

وعجب أبو سفيان فطالما خرج مع أمية ولكنه لم يجده مهموما مثل ما وجده فى هذه الرحلة ، ترى ماذا يقول له أصحابه الرهبان وفيم يتحدثون وما الذى يجعله يعود من عندهم حزينا كئيبا ؟

وقال أمية لأبى سفيان :

ـــ ألا نرحل ؟

ـــ بلى إن شئت .

فرحلوا وأمية شارد حزين يضيق صدره بما سمع من الرهبان ، فلما انقضت ليالى لم يستطع صبرا على الأفكار التى تدور فى نفسه فقال :

ـــ يا أبا سفيان هل لك فى المسير لنتقدم أصحابنا ؟

ـــ هل لك فيه ؟

ـــ نعم .

فسارا حتى برزا من أصحابهما ساعة ثم قال أمية :

ـــ هيا صخر .

ـــ ما تشاء ؟

ـــ حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

ـــ إى والله .

ـــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

وأحس أبو سفيان أن ذلك الحديث تنفيس عن الأفكار التى تدور فى رأس أمية والتى ولدتها خلوته مع أصدقائه النصارى الذين كان على دينهم ، فقال :

— إى والله .
— وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟
— نعم .
— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟
— لا والله لا أعلم .
— أمحوج هو ؟
— لا بل هو ذو مال كثير .
— وكم أتى عليه من السن ؟
— قد زاد على المائة .
فقال أمية فى أسى :
— فالشرف والسن والمال أزرين به .
فقال أبو سفيان فى عجب :
— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .
فقال أمية فى ثقة :
— هو ذاك .
وصمت قليلا ثم قال :
— هل لك فى المبيت ؟
— لى فيه .

ونزلوا منزلا وباتوا فيه ، وأبو سفيان يفكر فيما قال أمية ويحاول أن يميط اللثام عن حديث صديقه دون جدوى فما كان بقادر على أن يفهم أن الشرف والسن والمال تزرى بإنسان ، حتى إذا ما لاحت الشمس فى الأفق الشرقى ارتحلوا ، فلما كان الليل قال أمية :

ـــ يا أبا سفيان .

ـــ ما تشاء ؟

ـــ هل لك فى مثل البارحة ؟

كان أمية متلهفا على أن يخلو بصديقه يناجيه ويبثه حزنه ويفصح عن بعض ما يجول فى خاطره لعله يقضى على ذلك القلق الذى استبد به مذ سمع من الرهبان ما سمع ، فقال أبو سفيان :

ـــ هل لك فيه ؟

ـــ نعم .

فسارا على ناقتين نجيبتين حتى إذا برزا قال أمية :

ـــ هيا صخر . هيه عن عتبة بن ربيعة ؟

ـــ هيا فيه .

ـــ أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

واتسعت عينا أبى سفيان دهشة ، فما بال صديقه يكرر ما قاله من قبل ؟ إن فى رأسه أشياء لا يريد أن يفصح عنها ولا يقوى على كتمانها ، أشياء أقلقته وأطارت الطمأنينة من فؤاده ، بل لعلها حطمت أملا عظيما من آماله ، وقال فى انتباه :

ـــ إى والله إنه ليفعل .

ـــ وذو مال ؟

فقال أبو سفيان وهو يحاول أن يستشف ما وراء ذلك الحديث :

ـــ وذو مال .

ـــ أتعلم قرشيا أسود منه ؟

ـــ لا والله ما أعلم .

ـــ كم أتى له من السن ؟

وزاد عجب أبى سفيان فقد أنبأه بذلك من قبل ، ولكنه رأى من الخير أن يجاريه حتى يكشف عن خواطره فقال :

ـــ قد زاد على المائة .

ـــ فإن السن والشرف والمال أزرين به .

ـــ كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

فقال أمية فى شرود :

ـــ لا تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت .

وأطرق برهة ثم قال :

ـــ فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت : أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب . قلت : وفينا بيت تحجه العرب . قال : هو من إخوانكم من قريش .

وأحس أمية أن صوته يتهدج وأن مرارة ملأت فمه ، فصمت قليلا ثم قال :

ـــ فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه ... قلت للعالم : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بُدُو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة

كلها فيها مصائب ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

فقال أبو سفيان فى حدة :

ـــ هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسنًّا شريفا .

ـــ والذى حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول إن قول النصرانى حق ، هل لك فى المبيت ؟

ـــ نعم . لى فيه .

فباتوا ثم خرجت قافلة أبى سفيان قاصدة مكة، حتى إذا كان بينهم وبينها مرحلتان ليلتان ، أدركهم راكب من خلفهم فسألوه فإذا هو يقول :

ـــ أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها ، وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

فأقبل أمية على أبى سفيان فقال :

ـــ كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان ؟

فقال أبو سفيان وقد نظر فى شرود :

ـــ أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق .

وخرج أهل مكة لاستقبال القافلة العائدة من الشام ، وكثر العناق واشتد وجيب القلوب فى الصدور وانهمرت الدموع من العيون . والتقى أبو سفيان وأمية بن أبى الصلت بمحمد بن عبد الله ، و لم يخطر لهما على قلب أن ذلك الرجل الشاب حين دخل فى الكهولة ، الذى يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، هو النبى المنتظر .

## ٦

كان البيت غارقا في الصمت وخديجة وفاطمة وعلى لاذوا بالسكوت ، فرب البيت محمد بن عبد الله فى غرفته يناجى ربه ، وأم أيمن فى الطبقة الأولى من الدار ترعى شئونها ، وخرج زيد بن محمد إلى الحرم ، وانطلق هند بن أبى هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش إلى بعض شئونه .

وكانت خديجة فى سرور روحى فياض ، فهى ترى بعين بصيرتها أن أنوارا تفيض فى دارها كأنما تنسكب من السماء ، أنوارا تتألق فى الليل والنهار تبهر أنوار الشمس التى رأتها فى منامها تهبط من السماء لتستقر فى دارها قبل أن تتزوج أبا القاسم ، وقد صارت تشم روائح زكية يفوق أريجها كل ما فى الأرض من طيب وعطر ، إنها عبير ينعش الروح وينزل بالنفس نشوة صافية سرمدية تشرح الصدر وتملأ الجوانح بالرحمة .

وكانت تحس أن شيئاغامضا مثيرا ينفث فى روعها أنها مقبلة على أروع أيام حياتها ، وأن أنوار اليقين تشرق فى قلبها فتبدد عن سمائه كل السحب التى كانت تربطها بالدنيا حتى لتكاد أكثر الحقائق أن تنكشف لها ، وكانت تفعم بمشاعر نبيلة كلها روحانية فتطفر الدموع من مقلتها شكرا لله على أن خصها بلطفه ورحمته .

ووقعت عينا خديجة على ما فى دارها من فاخر الرياش والتحف النادرة التى استوردت من الشام ومصر والعراق وفارس فلم تحفل بالطرف الغالية والترف الذى ران على المكان ، بل زهدت فى كل متاع بعد أن تعلمت فى

مدرسة أبى القاسم أن المال يأكل نفسه وأنه لا يفرح به وأن قيمته فى قدر الحاجة إليه ، وأن الكنز الحق هو كنز صالح الأعمال ، وأن التفرح فى الله هو نبع السعادة الذى لا ينضب بل يربو ويزداد كلما نهل منه الناهلون .

كانت أموالها ممدودة ولكنها كانت زاهدة فيها ، فأبو القاسم قد غرس فيها حب الإنفاق وأن تكون كل حركاتها وسكناتها لله لا تريد بها إلا وجهه ، فقادها إلى ينبوع الفرح الصافى فصلحت نيتها فى الأخذ والترك والإنفاق ، وعرفت السعادة الحقة بالقرب من الله وتعريض قلبها لنفحات رحمته .

لقد مضت خمس عشرة سنة وهى فى كنف أبى القاسم تبدلت فيها نظرتها إلى الحياة والكون وما وراء الطبيعة ، فبعد أن كانت تتهلل بالفرح كلما عادت قوافلها بالأرباح زهدت فى هذه المادية الطاغية بعد أن ذاقت حلاوة رفرفة الروح فى الملكوت ، والفرح الفياض فى الجهاد المجنح للاتصال بذات الذوات ، والاستبشار بصفاء القلب وتزكيته وجلائه وإشراق أنوار المعرفة فيه .

كانت فى حيرة فى عباداتها قبل أن يعرف النور طريقه إلى دارها ، فقد تفتحت عيناها أول ما تفتحت على عبادة الأصنام وتقديس اللات والعزى ومناة وهبل ومئات التماثيل المكدسة فى الكعبة ومن حولها، ثم لما تزوجت من هند ابن أبى هالة بن زرارة التميمى عرفت الشىء الكثير عن عبادة تميم وكانوا يدينون بالمجوسية ويعبدون النار ، ولما كفر ابن عمها ورقة بن نوفل بدين قومه واعتنق النصرانية كانت تلقىٰ إليه سمعها وهو يحدثها عن إله بنى إسرائيل ورب المسيحيين فكانت مشتتة الفكر ليس لها قرار . حتى إذا ما جاء ابن عبد الله إليها بدد كل الشكوك وبذر فى عين ذاتها بذور الإرادة

والإخلاص ، وراح يدربها على السير فى طريق الله والتماس بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل فيه وأمن لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمال لا نقصان فيه ، فأصبحت تستشعر أن عالمها أوسع من العالم الأرضى ، وأن مملكتها أعظم من كل الممالك . وأن استدرار لطائف المعارف من خزائن الملكوت خير وأبقى من الأموال المكنوزة و زينة الحياة الدنيا .

وسمعت خديجة وهى فى مكانها صرير باب فانتبهت فقد انتهى أبو القاسم من صلاته ، وعرفت فاطمة الزهراء أن أباها الحبيب قادم فأشرق وجهها بالبشر ، ولاح على وجه على بن أبى طالب الانشراح فقد كانت أسعد الأوقات تلك الساعات التى يمضيها رب البيت مع من فى البيت يفيض عليهم من حنانه وعلمه وحكمته .

وأقبل محمد على أهل بيته وهو يبتسم ، فرأت خديجة فيه هالة من نور تزداد تألقا على مر الأيام حتى لتكاد أن تفيض على مكة وتملأ الآفاق . ورأت فيه فاطمة جوهر الحنان وينبوع الحب فهرعت إليه رقيقة كالنسيم طاهرة كالندى متفتحة كزهرة الربيع ، ففتح لها ذراعيه فارتمت فى أحضانه فرفعها بين يديه وقبلها قبلة رقيقة لكأنها ذوب نفس لطيفة لبها الرحمة والصفاء . ورأى فيه علىّ الوالد الحنون والقدوة الصالحة والأسوة الحسنة ومدينة العلم التى ينهل منها ما يشاء كيفما يشاء وأنى يشاء ، ففتح نفسه وقلبه وعقله لأنوار المعرفة والحكمة المتدفقة من بين شفتى ابن عمه الكريم .

وجلسوا ترفرف عليهم البركات وترعاهم عناية السماء ، فهم فى حركاتهم وسكناتهم يجاهدون فى الله ليهديهم الله سبله ، يعيشون مع الله آناء الليل وأطراف النهار حتى صارت قلوبهم تخفق بذكر الله ، فقد صبروا فى

الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وذكروا الله فذكرهم الله .

كانت دار خديجة فى ظاهرها إحدى دور مكة التى تحيط بالحرم ، ولكنها كانت فى حقيقتها دارا تختلف عن كل ما حولها . فدور أم القرى مشدودة إلى الأرض غارقة فى الظلمات وإن انسكبت من نوافذها أنوار النهار ، بينا كانت هى منجذبة إلى السماء تشرق فيها أنوار تبهر الوجدان وتنير الأفئدة على الدوام .

ونهض أبو القاسم ليدور على دور بنى هاشم وبنى زهرة ويزور بناته قبل أن يعتكف فى غار حراء طوال شهر رمضان يتحنث ويأنس بربه ، فهو يصل رحمه ويعرف للقرابة حقها ، وهو يحب أن يشب ابن عمه الذى يتربى فى رعايته على صلته لأرحامه . فأخذ عليا معه وانطلق إلى دار أبى طالب .

واستقبل محمد فى الدار التى تكفلت به صبيا أحسن استقبال ، وأقبل على عمه وامرأة عمه فاطمة بنت أسد وأبناء عمه عقيل وجعفر وطالب بكل عواطفه فهو بطبعه لا ينسى فضلا لذوى الفضل ، وقد وجد فى أهل ذلك البيت من العطف والرعاية ما عوضه من موت آمنة وفقد عبد المطلب .

واستأذن محمد فى الانصراف فالتمست فاطمة بنت أسد من على أن يمضى نهاره عندها مع إخوته ، فأبى الصبى أن يفترق عن ابن عمه ولو ساعات فأسعد الأوقات وأمتعها لروحه تلك الفترات التى يعيش فيها مع أبى القاسم يستأثر وحده بعذب حديثه وغزارة علمه وفيض حكمته .

وانطلقا إلى دار عمهما أبى لهب فإذا بامرأة عمهما أم جميل بنت حرب ابن أمية ترحب بهما وتبش لهما ، وإذا بأبى لهب يقبل عليهما

وقد أشرق وجهه بابتسامة صادقة ، فقد كان أبو لهب يحب محمدا حبا صادقا وكان حريصا على أن يزوج ابنيه عتبة ومعتب لرقية وأم كلثوم ابنتى ابن أخيه الأمين .

وهرعت جارية إلى حيث كانت رقية وأم كلثوم وقالت لهما : إن أباهما قد جاء لزيارتهما . فطارتا بجناح الشوق إلى حيث كان الوالد الحنون فضمهما إليه فى حب شديد ، وما لبث أن جاء عتبة ومعتب ليسلما على أبى القاسم .

ودار حديث رقيق ورفرفت السعادة على الجميع ، وكان محمد أكثرهم انشراحا واستبشارا فابنتاه العزيزتان تعيشان فى دار عمه أبى لهب عيشة راضية ، وقد زاد فى سروره أن قرأ فى عينى ابنى عمه حبهما لرقية وأم كلثوم .

وخرج أبو القاسم وعلى لزيارة زينب ، وقد ذاع فى مكة خبر حب أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى لابنة خالته زينب بنت محمد ، فأبو العاص كان كثير السفر فى تجارته ، وكان إذا هزه الشوق إلى امرأته راح ينشد الشعر شوقا إليها ، وقد ردد الرواة قوله فيها :

ذكـرت زيـنب لما ورّكت أرِ مـا
فقلت سقيا لشخص يسكـن الحرمـا
بـنت الأمين جزاهـا الله صالحة
وكل بعـل سيثنـى بالـذى علمـا

وبينا كان محمد وعلى فى طريقهما إلى دار أبى العاص إذا بفتى قصير دحداح فى السابعة عشرة من عمره قد جلس يبرى النبل ووقف عند رأسه

حمزة بن عبد المطلب ، فألقى محمد على عمه حمزة تحية طيبة ثم حدث الفتى حديثا يترقرق بالمحبة ، ولا عجب فقد كان الفتى سعد بن أبى وقاص ، وأبو وقاص هو مالك بن وهيب عم آمنة بنت وهب ، فكان محمد ينظر إلى سعد على أنه خاله ، فكل بنى زهرة أخواله .

وفى دار أبى العاص بن الربيع سعدت زينب بزيارة أبيها ، وسعد محمد بابنته وزاده غبطة أن زوج ابنته قد عرف فى مكة بالأمين كما عرف هو نفسه بذلك من قبل . وراحت هالة بنت خويلد تسأل عن أختها خديجة وعن فاطمة الزهراء وعن الأعزاء زينب ورقية وأم كلثوم ومحمد يجيب وقد انفرجت شفتاه عن الرقة ولاح فى عينيه المحمرتين صفاء النفس .

وفيما كان محمد وأبو العاص وهالة وزينب وعلى آخذين بأطراف الحديث إذ أقبل نوفل بن خويلد ليزور أخته ، وسرعان ما جاءت صفية بنت عبد المطلب ومعها ابنها الزبير بن العوام بن خويلد لرؤية هالة بنت خويلد ففاضت القلوب بالرحمة ، وأحس نوفل بعطف صفية على ابنها فتذكر يوم أن رأى صفية تضرب ولدها الزبير وهو صغير بعد أن قتل أبوه فى حرب الفجار وتغلظ عليه ، فعاتبها فى ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضينه . فمس أذنيه وهو فى مجلسه قولها له فى ذلك اليوم :

من قال إنى أبغضه فقد كـذب وإنما أضربـه لكـى يَـلب
ويهزم الجيش ويـأتى بـالسلب ولا يكـن لمالـه خبء مخب
يأكل ما فى الظل من تمر وحب

كان حبل الوداد موصولا بين محمد وقومه فهو يزور كل من كان بينه وبين بنى هاشم صلة قربى ، فإذا مرض أحد من بنى مخزوم عاده فهو يذكر أن جدته أم أبيه عبد الله منهم ، ويفتح قلبه لآل عفان وبنيه فعفان تزوج

أروى بنت عامر بن كريز ابنة عمته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب توأم أبيه ، وقد قرب عثمان بن عفان إليه لدماثة خلقه وأمانته التى اشتهر بها فضلا عن أنه ابن بنت عمته .

ولما مات عفان تزوجت أروى عقبة بن أبى معيط فولدت له الوليد وعمارة وخالدا وأم كلثوم ، فاتصلت الأسباب بينه وبين عقبة وآله . وكانت الصلات وطيدة بينه وبين بنى هلال لأن أم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج عمه العباس منهم ، وبينه وبين بنى كلدة فى الطائف فالحارث ابن كلدة طبيب العرب كان زوج خالته ، وقد مرض سعد بن أبى وقاص ذات يوم مرضا فعاده أبو القاسم فقال : ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب . فلما عاده الحارث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس ، اتخذوا له فريقة[1] بشىء من تمر عجوة وحلبة يطبخان . فتحساها فبرئ .

كان قلب محمد بن عبد الله كبيرا يسع كل من كان بينه وبينه صلة رحم مهما كانت تلك الصلة بعيدة ، وكل من أسدى إليه معروفا مهما كان ضئيلا ، فهو لا ينسى أبدا حليمة السعدية التى أرضعته، ولا ثويبة التى بشرت عمه أبا لهب بمولده، ولا مرضعات بناته ولا حواضنهن، ولا أى ممن اتصل به بسبب، وكان عطفه سابغا عليهم جميعا فلا غرو أن أحبه كل من عرفه . ولو شاء أن يعيش فى سويداء قلوب قومه ناعم البال ينعم برغد العيش لوجد فى أموال خديجة ما يغنيه أبدا وما يرفعه إلى السؤدد والجاه والسلطان ، وفى حب الناس ما يرضى نفسه . ولكنه ما خلق للحياة الناعمة فقد اصطفاه الله ليجاهد فى سبيل تبليغ رسالة ربه ، ويتحمل الألم والعذاب والاضطهاد وعداوات الذين كانت قلوبهم تخفق بحبه حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) تمر يطبخ بحلبة .

## ٧

أجدبت الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية وضج رعايا الدولتين من فداحة الضرائب ، فقد ذابت الأموال فى الحروب الناشبة بين الرومان والفرس وكان على الناس أن يغذوا خزائن الدولتين اللتين أصبحت العداوة بينهما سمة العصر وحديث الدنيا .

ووهنت إشعاعات الثقافة الرومانية والثقافة الفارسية فلم يجد العرب ما ينهلون منه إلا قشور المعرفة ، وحسبوا أن الرقىّ موائد تمد وشراب وترف ولهو وغناء وقيان ورقص وقمار ، فراح سادات العُرب وأشرافهم يحاولون أن يقلدوا ما فى البلاط الفارسى من ترف وما فى قصور القسطنطينية وحوران وبصرى من الضلال ، فسرت الجهالة فى مكة وفى كل القبائل فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، وظهر الفساد فى البر والبحر .

وبدا أن القبائل كلها تقاسى من طور المراهقة ، فلا سلطان لأحد على أحد محاولات دائبة للتحرر الاجتماعى والسياسى والدينى من قيود شريعة القبيلة ، فكانت المجتمعات العربية تكابد انهيارا معنويا قد خمدت فيه النوازع والنواهى ، فمات الإحساس بالندم لا سخط على فعل سيئ ولا شعور بعار ، بل زهو بإتيان الفواحش وإهدار الكرامة الإنسانية وسفك الدماء البريئة ، وما بقيت بعض الفضائل إلا للزهو والتفاخر .

وكانت حاسة الشرف تزمجر بين صدورهم كالوحش الضارى وإن كانت كل فعالهم لا تمت للشرف ، فقد كانوا جميعا كالذئاب العادية

والوحوش النافرة يأكل بعضهم بعضا : السلب فضيلة ، والرجال الأحرار موثوقون فى حلق الأسر ، والنساء الحرائر ينتزعن من أحضان بعولهن ليلهو بهن اللاهون ويتغنى بما وقع عليهن من اعتداء المغنون ويفخر بذلك المفتخرون ، فاغتصاب امرأة صار حديث السمار فهو يعد ضربا من ضروب البطولة والزهو .

وكان الشعراء يفخرون بسبى رجال قبائلهم لنساء أعدائهم ، فقد قال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :

وبرحرحان غداة كُبِّل معبد
نكحت نساؤكم بغير مهور

وكانوا يعيرون نساءهم بأن الرجال لهم إليهن وسيلة ، فقد قال فارس الفوارس عنترة لامرأته :

إن الرجال لهم إليك وسيلة
أن يأخذوك تكحَّلى وتخضَّبى
وأنا امرؤ إن يأخذوه عنوة
أقرن إلى شد الركاب وأجنب
ويكون مركبك القعود ورحلة
وابن النعامة عند ذلك مركبى

وكانوا يحاولون أن يفتخروا حتى بما فيه مهانة ، فقد حاول شاعر أن يزهو بأنه يجد فى أثر السبايا المردفات على حقائب الإبل ليستنقذهن بالعشى ، فقال :

وأوثق عند المردفات عشية
لحاقا إذا ما جرى السيف مانع

فقيل له :

ـــ ويحك ! وأى فخر أن تلحق النساء بالعشى وقد نكحن وامتهن؟

فلا غرابة أن أصر أفلاطون على استبعاد الشعراء من جمهوريته .

وكان الرواة يجدون لذة فى سرد نوادر ما كان بين السبايا من نساء الأشراف وبين من سلبوهن ، وكانت قصة هند زوجة الحارث بن عمرو الكندى أكثر القصص ترديدا فى المجالس والنوادى ، ففى كل سامر كان راوية يقول :

ـــ سبى ابن هبولة الغسانى امرأة الحارث بن عمرو الكندى ، فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة وقد كان نال منها ، فقال لها : هـل كان أصابك ؟ قالت : نعم ، والله فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحفزهما حتى قطعها . وقال فى ذلك :

كل أنثـــى وإن بـــدا لك منها
آيـــة الـــود حبها خيتعـــور[1]
إن مـــن غـــره الـــنساء بـــود
بعـــد هنـــد لجاهـــل مغـــرور

وكانوا ينعمون بحرية شخصية ولا يعرفون الحرية الاجتماعية ، تغلب عليهم الفطرة والطبع . وما كان منهم من يفكر كيف برز هذا العالم الذى يعيش فيه إلى الوجود ، وما الخير وما الشر ، وما العدالة وما الظلم ، وما جزاء العدالة وما الذى يردع الناس عن المعاصى ، وما الجمال وما الحب ، وما الغنى وما الفقر ، وما الحكمة وما الشجاعة ، وما العفاف وهل من مصلحة المجتمع أن ينظم

---

(١) الخيتعور : سيئة الخلق وكل ما لا يدوم على حاله .

الجنس ، وما حقوق النساء على الرجال ، بل قبلوا حياتهم وسلموا بها سواء أكانوا أحرارا أم عبيدا ، أغنياء أم فقراء ، وإن لم يستمرئوها .

وقد ألغوا الرئاسة العامة وعدوها لغوا ، وكل ما أخذته مكة من نظم الحكم فى الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم أن جعلت لها مجلسا للشورى أشبه بالسيناتو مجلس الشيوخ الرومانى عرف بشيوخ دار الندوة، ولم يدخل تلك الدار إلا من بلغت سنه أربعين عاما. واستثنى من هذا الشرط بعض النوابغ من قريش كحكيم بن حزام وعمرو بن هشام (أبى جهل)، ومن عجب أن محمد بن عبد الله لم يكن من المرشحين ذات يوم ليكون من حكماء دار الندوة فقد حببت إليه العزلة لينأى الله به عن شرور مجتمعه، وليسير حرا طليقا من معتقدات قومه فى طريق رسالته.

ووزع شرف الرئاسة على بيوتات قريش ، فكانت الرفادة والسقاية فى قريش وكان صاحبها العباس بن عبد المطلب ، وكانت راية قريش « العقاب » فى بيت من بيوت شرفهم العشرة فإذا وقعت حرب أخرجوها ، فإن اتفقوا على أحد منهم أعطوه الراية ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ، وكانت هذه الوظيفة من خصائص بنى أمية وكان صاحبها أبو سفيان بن حرب .

ولم تقف آمال أبى سفيان عند شرف حمل راية قريش عند الحروب بل كانت أطماعه تمتد إلى أن يصبح سيد مكة غير منازع ، بل حاكما على كل العرب كحليفه كسرى إن واتته الظروف ، فهو يرى بعينه الفاحصة أن مجد بنى هاشم فى أفول بعد أن وهن عظم أبى طالب واشتعل رأسه شيبا ، وثقل لسان الزبير بن عبد المطلب الذى كانت كل قبائل العرب ترتجف فرقا من هجوه .

وكانت السدانة والحجابة وظيفة دينية وعلى من يتولاها أن يقوم بخدمة

بيت الله وحفظ مفتاحه ، وكانت فى بنى عبد الدار وكان صاحبها عثمان بن طلحة ، فكان عليه وعلى عشيرته تدبير كل الشئون الاجتماعية داخل الحرم ، وكان عليهم أن يشرفوا على دار الندوة فهى فى الحرم فى دائرة اختصاصهم .

وكانت المشورة أشبه برئاسة المجلس وكانت فى بنى أسد رهط خديجة بنت خويلد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة بن الأسود . وما كان رؤساء قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فإن أعجبهم وافقهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعوانا

وكان أبو بكر صاحب الأشناق وهى الديات والمغارم ، وكان القرشيون يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أو دية ، وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بنى تيم ، فكان أبو بكر إذا نهض مع أحد ليجمع له صدقة الناس أعانوا من نهض معه وإن نهض غيره خذلوه ، فقد اشتهر أبو بكر بالصدق ومتانة الخلق .

وأما القبة فهى أشبه بوزارة الحرب وما كانوا يعمدون إليها إلا وقت الحرب ، فكانوا يضربون قبة يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بنى مخزوم رهط خالد بن الوليد ، وكان خالد صاحبها وصاحب الأعنة وهى رئاسة الفرسان .

وكانت السفارة فى بنى عدى وهى أن يمشى السفير للصلح بين حيين شبت بينهما نيران الحرب وتعاظم أوارها ، أو إذا نافر قريش حى للمفاخرة ، وكان صاحبها عمر بن الخطاب الذى استطاع أن يشق طريقه وأن يفرض نفسه على مجتمعه وهو لا يزال فى شرخ الشباب وربيع عمره .

وكانت الأيسار فى بنى جمح وهى الأزلام والقداح يضربون بها إذا

أرادوا أمرا ، وكانوا يؤمنون إيمانا صادقا بأن ما يخرج من الأزلام أو القداح إن هو إلا رغبة الإله ومشيئته ، فإذا جاء على غير هواهم قدموا القرابين للإله واستمروا فى ضرب القداح حتى يرضى ، وكانت آية رضاه أن يخرج القدح موافقا لهواهم ! وكان صفوان بن أمية صاحب الأيسار .

وكانت الأموال المحجرة وهى التى سموها لآلهتهم فى بنى سهم وهى أشبه بالأوقاف الخيرية ، وكان صاحب تولى النظر فى هذه الأموال الحارث ابن قيس .

كان هذا هو حال مكة ؛ قسم المجد فى بيوت شرفهم العشرة ، قد آوى كل من أبناء هذه البيوتات إلى ركن شديد من رهطه . فما كانت هناك شريعة مكتوبة ولا سلطة تأخذ الحق من القوى للضعيف وما كانت العدالة تطبق على الجميع ، إذا سرق من لا حول له ولا قوة قطعوه وإذا سرق شريف تركوه ، وما كان للضعفاء من ملجأ إلا أن يرتموا فى أحضان بيت من بيوت القوة يلتمسون منه الحماية خشية أن يتخطفهم الناس ويهضموا حقوقهم ، وكان على من يقبل إجارتهم أن يعلن على الملأ أنهم فى جواره وحمايته .

وكانت دار الندوة هى مركز السلطة فى مكة ولكنها عجزت عن إبداع التنظيمات التى تستهدف مصلحة المكيين جميعا سادة وعبيدا . وكان هم رجالها الأوحد ألا يقوى بيت على حساب بيت من بيوت الشرف حتى لا يستأثر بالقوة وحده ويستبد بالسلطان ، وكانت بيوت الشرف جميعا راضية ما دامت أموال التجارة تتدفق إلى مكة ، وجمور الشام ترد فى ركاب القوافل ، والحسان من مصر والشام والقسطنطينية والحيرة وفارس مردفات على حقائب الإبل ، وعرق البغايا يدر على السادة المترفين الذهب

والفضة ونقود كسرى وقيصر .

كان الفساد قد ران على مكة بعد قرون طويلة من الغضب والدماء وقسوة القلب وتمزيق أواصر الأخوة الإنسانية ، فبدا أن ذلك المجتمع ينحدر إلى الفناء لا أمل فى انتفاضة تقيله من سقطته ، ولا إرهاصا بعودة الربيع إليه بعد أن أطبق عليه خريف عمره ووهن عظمه ، وقد رفع خنجر الضلالة ليطعن به قلبه .

وكان الناس يتدفقون من الدور ومن الدروب إلى دار أبى سفيان لا يفكرون إلا فى الأرباح التى تعود عليهم من بضاعتهم التى سيشتركون بها فى رحلة الشتاء ، فقد كانت قريش تتأهب للخروج إلى اليمن ، وكان أبو سفيان زعيم القافلة يأخذ ما عند الناس من سلع وأموال لقاء عمولة يتقاضاها مقابل ما يؤدى لهم من خدمات .

وكان الناس يمرون بدار خديجة ويعجبون ، ففى مثل هذه الأيام كان ميسرة يفتح أبواب مخازن خديجة يستقبل ما يأتى به المكيون من تجارة بينا يكتب الكتاب صكوكا بما تسلموا ، ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح وابتسامته الآسرة تشرق فى وجهه ، والإبل تتقاطر من كل صوب وحدب إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ، فما بال السكون يخيم على المكان ؟ وما الذى زهد أهل البيت فى البيع والتجارة بعد أن كانت قوافل الطاهرة تعدل قوافل مكة كلها ؟!

حسب أناس أن خديجة بعد أن تزوجت ابن عبد الله وأنجبت منه ركنت هى وزوجها إلى الدعة وآثرا السلامة فماتت فيهما روح المغامرة ، وأنهما اكتفيا بما هما فيه من نعيم . وقال أناس إن الشيخوخة قد دبت فى ميسرة وإن خديجة لم تجد من تأتمنه على أموالها بعده ، وإنها وإن كانت تزوجت أمين

قريش فهى لم تعد تطيق فراقه بعد أن صار النور الذى ترى به وعقل العقل وروح الروح . ولم يكن يدرى بحقيقة ما يدور فى ذلك البيت المبارك إلا نفر قليل ممن يعيشون فيه ، ومن صحابة أبى القاسم ومن صفوة أقرباء الطاهرة الذين كانت تفضى إليهم بما ترى من أمور زوجها وما تسمع من روائع حكمته .

غرس محمد فى قلب خديجة أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر فى الأموال والأولاد ، وأن كل ما لله فليس من الدنيا ، وراح يرفعها من عالمها الأرضى إلى ملكوت السماء ، ويصفى فؤادها ويجلوه ليسعد بإشراق أنوار المعرفة فيه ، ويتذوق لذات روحية تفوق اللذات المادية التى يجلبها اللهو والتجارة ، فإذا بالحقيقة تتلألأ فى عين ذاتها ، وإذا بتجارتها وأموالها تهون فى سبيل نفحة من نفحات ربها أو جذبة من جذباته تفيض عليها سعادة لا تذوب ولا تنقشع ، بل تستقر حلوة سائغة فى أغوار نفسها وفى صميم وجدانها .

وباتت خديجة تنتظر حادثا جليلا بشرت به الأنبياء وفاضت به الكتب السماوية وتنبأ به الرهبان والأحبار والكهان ، فكانت ترقب فى لهفة إشراق أنوار اليقين من دارها وتعد نفسها ويهيئها ربها لتكون حاضنة دعوته وناصرة رسوله وأول المؤمنين به المؤازرين له بأموالها وروحها بل وبفلذات أكبادها .

إنها أصبحت متفرحة فى الله تحب الله لذاته وتحب زوجها لأنه قادها إلى طريق الله وفجر فى قلبها كنوزا من اللذات الروحية ما كان لها بها من علم . لذة المعرفة ولذة الإنفاق لوجه الله وبذل كل بذل فى سبيل سعادة البشرية والتماس الكمال إرضاء لكمال الكمال .

كان البيت الذى يبدو للناظرين هادئا ساكنا يسعد برغد العيش وينعم بكنوز الأموال ، ينبض بالجهاد فى سبيل التحليق إلى ما وراء الكون وما فوق المادة لينهل من خزائن الملكوت بركات ورحمة ، ويتعرض لنفحات ربه فيرفرف فى عوالم الفرح الفياض والسعادة الحقة .

وفتحت دار خديجة وخرج منها رب البيت محمد بن عبد الله ، فانطلق يحمل تجارته إلى أبى سفيان سيد بنى أمية الخارج فى تجارة قريش إلى الشام لعل الله يجعل فيها خيرا ، فأبو القاسم كانت له تجارته الخاصة ، فكان يرسل بضاعته إلى الأسواق ليعيش من حر ماله ويسد حاجاته — وما أقلها — مما يكسب ، على الرغم من أموال خديجة الطائلة .

## ٨

كان الظلام يلف الطائف وقد لاذ بنو ثقيف بدورهم ، وكان أمية بن أبى الصلت يقلب صفحات التوراة والإنجيل فى فتور بعد أن خمدت نار حماسته لما قال له علماء النصارى إن النبى المنتظر من قريش ، وأنه يبعث فى الأربعين .

إنه منذ ذلك اليوم وهو كئيب حزين ، فيا طالما جلس إلى نساء ثقيف وقال لهن سيرسل الله رسولا وهو يحس فى أعماقه أنه ذلك الموعود والمنتظر ، وقد بات لا يدرى ماذا يقول لهن لو تحققت نبوءة علماء النصارى الذين انقطعوا للعبادة فى صوامعهم وبيعهم وجاء نبى الأميين من قريش !

وراحت نار الغيرة والحسد تأكل صدره ويستشعر لسعها أليما فى فؤاده ، فهو لا يجد فى قريش كلها من يصلح فى زعمه للرسالة إلا عتبة بن ربيعة ، ولكن نبوءة علماء النصارى تؤكد أن ذلك النبى فقير وعتبة غنى . وأنه فى الأربعين وقد زاد عتبة على المائة . واشتد ضيقه لما راح يقارن بين علمه وصفاته وبين علم كل من أشرفوا على الأربعين من القرشيين وأهليتهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من أوتى الحكمة أو من يتمتع منهم بمثل ما يتصف به من مكارم الأخلاق وحسن الخلق .

كان حليف بنى أمية وكان رفيق أبى سفيان فى كل رحلاته ، وكان يعرف عن أبى سفيان بخله وعهره . ولو لم يكن أبو سفيان قد جاوز

الأربعين لما خطر له على قلب ، فهو على الرغم من غناه ماجن لا يتجنب المحارم والمظالم ، وقد عجم أعواد كل رجال بنى أمية السائرين إلى الكهولة فلم يجد فيهم محوجا كريم الطرفين متوسطا فى العشيرة يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

وفكر فى بنى هاشم فراح يزن شبابهم الداخلين فى الكهولة بموازينه ، فوجد أن غنى العباس قد أزرى به وأن الدنيا قد شغلته عن الدين فراح يقرض الناس بالربا ويأكل أموال الناس بالباطل ، وإن كان له شرف سقاية حجيج بيت الله . ولم يقف طويلا عند حمزة بن عبد المطلب فهو فارس وهو كريم وهو شريف وسط فى عشيرته ، وهو يتجنب المظالم ولكنه لا يتجنب المحارم ، فهو يكثر من الشراب ويقبل على اللهو إذا ما لعبت الخمر برأسه .

وطاف بذهنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعر بنى هاشم وصديق ابن عمه محمد بن عبد الله الذى لا يفارقه ، فرن فى ضميره بعض هجوه لأعداء قومه ، ولم يجد فى شعره ما يدل على اهتمامه بأمر السماء فأشاح بتفكيره عنه . وراح يستأنف الفحص عن رجالات بنى هاشم حتى إذا ما بلغ أبا القاسم أمعن الفكر طويلا . فهو طاهر القلب نقى الضمير يتحنث طوال شهر رمضان فى غار حراء ، وقد اشتهر بين قومه بالأمين ، وهو يتجنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ، وهو كريم الطرفين وسط فى العشيرة ، وهو فقير ويقف على أعتاب الأربعين ، واشتدت ضربات قلب أمية وانبهرت أنفاسه ولكنه راح يحاول أن يعيد الطمأنينة إلى فؤاده ، فجعل يؤكد لنفسه أن محمدا لا يدرى ما الكتب السماوية وما الإيمان ، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وما كان الله فى وهمه يبعث من

كان مثل ابن عبد الله لتبليغ رسالته !

وفكر فى سادات بنى مخزوم فلم يجد فيهم رجلا يصلح للرسالة غير الوليد بن المغيرة ، إلا أن الوليد كان كعتبة بن ربيعة قد أزرى به المال والسن ، فأموال الوليد ممدودة حتى إنه يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش سنة ، فهو عدل قريش كلها وقد فات الأربعين بسنين .

وراح يعجم أعواد بنى تيم فلم يجد فيهم من هو خير من أبى بكر ، فهو دمث الأخلاق طيب القلب متواضع لين الجانب ، يُكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، يصون عرضه ويحفظ مروءته ، وإنه ليذكر له أن رجلا دعاه أن يستصحبه لحاجة يعينه عليها فرآه يمر فى طريق غير التى يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! قال الرجل : إن فيها أناسا نستحى منهم أن نمر عليهم . قال : تدعون إلى طريق نستحى منها ؟ ما أنا بالذى أصاحبك .

إن أبا بكر رجل سمح ودود يألف الناس ويألفه الناس ، وهو يمتلئ بنشوة الإعجاب برجال الإصلاح ، ولكنه ليس من أصحاب الرسالات وإن كان مؤمنا بالغيب يجيد تأويل الأحلام ، فلا بد له من قدوة حسنة يعجب بها ويتعصب لها ويضع نفسه وماله فى سبيل تأييدها ونصرتها .

واستمر أمية بن أبى الصلت يقيس مواهبه وصفاته بمواهب رجالات بيوت شرف قريش العشرة التى تؤهلهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من يصلح لمنافسته على شرف الرسالة . فكان يضيق بنبوءة علماء النصارى التى أكدت له أن النبى المرتقب من قريش ، رجل شاب حين دخل فى الكهولة بُدُو أمره ، يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنوده من الملائكة !

وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب يقرأ ما وصل إلى يديه من علم أطباء فارس والروم ، وكان ابنه النضر بن الحارث يروى على مسامع والده قشور العلوم التى حصّلها من الفرس وبعض أجزاء الحكمة التى امتصها من الكتب ، وقد انتفخت أوداجه غرورا فقد وقر فى ضميره أنه حكيم العرب وعالمها وأنه من الظلم له أن يقارن بحكام القبائل الذين تجرى على ألسنتهم أحيانا بعض الحكم والخطرات الفلسفية .

وكان عروة بن مسعود سيد بنى ثقيف فى داره ومن حوله أشراف الناس يتحاورون ويتجادلون ، ويلقى الرواة ما حفظوا من الأشعار التى أنشدت فى الأسواق ، والنوادر التى كانت تسلية السمار ، والأخبار التى التقطوها فى أثناء رحلاتهم إلى جند يسابور أو الحيرة أو بصرى أو غزة أو منف أو يكسوم أو صنعاء. وبينا كانت الطائف تحيا حياتها الليلية المألوفة، إذا بأصوات فزع وهلع جعلت الناس يهرعون إلى خارج الدور ليروا ماذا جرى .

وتعلقت العيون بالسماء فإذا برهبة تنزل بالصدور ، وإذا بخفقات القلوب تشتد وقد زاغت الأبصار ، فالشهب تساقط من السماء . وبقى الناس فى ذهول لحظات ، ثم راحت صيحات الهلع تزلزل الطائف فقد أشرف العالم على الفناء .

وماج الناس بعضهم فى بعض ، وراح السادة يعتقون رقيقهم وسيبوا أنعامهم وانطلقوا إلى الفضاء لا يلوون على شىء يحسون أن سيتخطفهم الموت ، قد ذهل الأب عن بنيه ، والزوج عن زوجه ، والأم عن وليدها .

واستمرت النجوم تهوى لكأنما كان من فى السماء يرجم أهل الأرض ، فبلغت القلوب الحناجر وكاد الرعب أن يقضى على النفوس قبل أن تنشق الأرض

وتندك الجبال على الرءوس ، وظل الناس يجرون هنا وهناك ولكن أين المفر ؟!

وفزعت ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان رجلا منهم وكان أدهى العرب وكان يخبرهم بالحوادث وكان ضريرا ، فقالوا له :

ـــ يا عمرو ، ألم تر ما حدث فى السماء من الرمى بهذه النجوم ؟

فقال فى قلق :

ـــ بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هى التى يرمى بها فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق .

ورأى أهل مكة الرجم بالشهب والنجوم تهوى من عليائها فانخلعت القلوب وران الفزع الأكبر على الوجوه وارتجفت الأوصال وزلزلت الأرض تحت الأقدام ، والناس ينتظرون الهول والدمار ويترقبون أن تخر عليهم السماء وتنهار عليهم الجبال . وباتوا فى رعب من أن تأخذهم الرجفة فيصبحوا فى دارهم جاثمين ، أو تخسف بهم الأرض فيكونوا من الهالكين ، ففزعوا إلى الحرم يطوفون به ويقدمون القرابين ويتمسحون بالأصنام ويبتهلون إلى ربهم والدموع تبلل اللحى والخدود ، ويسألونه فى صدق أن يرفع عنهم مقته وغضبه .

وحاول الكهان أن يكشفوا عن سر السماء فباءوا بالإخفاق ، فجزع الناس وقالوا فى يأس مرير :

ـــ هلك من فى السماء .

فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل

يوم بقرة ، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة ، حتى أسرعوا فى إتلاف أموالهم واستبد بهم الخوف والقلق فركبوا إلى غبد ياليل الثقفى ، فقالوا :

ـــ إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم .

فقال لهم :

ـــ انظروا البروج الاثنى عشر ، فإن انقض منها شيء فهى ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم .

وقالت ثقيف لقريش :

ـــ أيها الناس أمسكوا على أموالكم فإنه لم يمت من فى السماء ، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر ؟

ورأى الناس فى يثرب النجوم يرمى بها فقالوا :

ـــ ولد مولود .. مات ملك .. مات مولود .

وكان عمرو بن عنبسة السلمى يدخل تيماء وكان قد رغب عن آلهة قومه ، فلما حط الرحال لقى رجلا من أهل الكتاب فقال له :

ـــ إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله . فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فيعين ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرحل فيتركه ويأخذ غيره ، وإذا نزل منزلا سواه ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك ، فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا .

فقال الرجل وهو يتفرس فى وجه عمرو بن عنبسة :

ـــ يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين .

فانطلق عمرو إلى مكة وسأل :

ـــ هل حدث حدث ؟

فقيل له :

ـــ لا .

فلم يعد له هم إلا مكة يأتى فيسأل :

ـــ هل حدث حدث ؟

وراح الكهان يعوذون برجال من الجن ليسترقوا السمع فى مقاعد لهم ويلقوا ما يسمعون إليهم ، فإذا بمن يحاول أن يستمع يجد له شهابا لا يخطئه ، فقد منعت الشياطين من خبر السماء تطهيرا للأرض من الكهانة وتمهيدا لنزول الوحى الكريم بالنور الذى سيشرق باليقين فى قلوب البشر .

وصاح صائح من الكهان :

ـــ قد منع السمع عتاة الجان .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السَّماءَ فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[1] .

---

(١) سورة الجن الآيات ٦ ـــ ١٠ .

## ٩

كانت نار العداوة متأججة بين الأوس والخزرج ما إن يطفئها عاقل من عقلائهم حتى يشعلها سفيه من سفائهم ، فيمشى الرجال إلى الرجال وتتقارع السيوف فتسيل الدماء وتزهق الأرواح وتتغلغل العداوات فى سويداء القلوب .

وكانت المعارك الحربية تهدأ بين الحين والحين ، ولكن معارك الشعراء من الجانبين ما كان ليعتريها الفتور ، فشعراء الأوس وعلى رأسهم قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت كانوا يفتخرون بقومهم ويذكرون مثالب أعدائهم ، وكان شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبى رواحة يمتدحون رهطهم ويهجون كل من انتسب إلى الأوس بسبب .

وأصبحت العداوة بين قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت علامة من علامات الحياة فى يثرب ، فقيس بن الخطيم يشبب بعمرة زوج حسان ، وحسان يشبب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم ، والرواة من الجانبين يمشون بذلك التشبيب بين القبائل ليكون مادة للسمر فى منتدياتهم .

وصار حديث الحرائر مضغة فى الأفواه ، فقيل إن خولة أخت حسان أنشدت متعشقة عمارة بن الوليد المخزومى :

يا خليلى نابنى سهدى ... لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما ... أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تلحونى على رجل ... آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته ... ليس بالزميلة النكد

مـــن بـــى آل المغيرة لا خامـل نـكس ولا جحـد
نظـرت يومـا فـلا نظـرت بعـده عينـى على أحـد

وكان حسان يهجو قيسا ويهجو الأوس هجاء مرا ، وكانت القبائل تخشى لسانه الذى قال فيه : والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه . وقد وضعه على قيس والأوس فنالهم منه شر عظيم ، فالشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل .

وشجر قتال بين الأوس والخزرج فوضعوا أبناءهم ونساءهم فى الحصون ، واشتدت الخصومة بين الحيين حتى إن الرجل لم يعد يأمن أن يخرج من حصنه إلى عمل يقضيه خوفا من القتل ، وجلس حسان فى حصنه وقد أسدل ناصيته بين عينيه وأطلق لخياله العنان ، فتذكر تلك الأيام التى ذهب فيها إلى الحيرة وعاش فى قصر الخورنق يلقى قصائد المديح بين يدى النعمان بن المنذر . فما لبث أن أحس حسرة على زوال ملك المناذرة ، بعد أن قتل كسرى النعمان وولى فارسيا على إمارة اللخميين .

وفى مثل لمح البصر انتقل خياله إلى بلاط الغساسنة فانفرجت أساريره ، فجبلة بن الأيهم صديقه . فما من مرة ذهب فيها إلى قصره إلا وخلع عليه ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيره من جلسائه .

ورن فى ضميره أصوات الغناء التى سمعها فى مجلس جبلة ، ورأى بعين خياله ما فى ذلك المجلس من جلال وعظمة وبهاء . عشر قيان . خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وجبلة جلس للشراب وفرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ،

يمتاز هو وأصحابه بها .

واقتتلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع[١] ، وبقى حسان فى حصنه لا ينطلق مع الرجال للقتال فقد قطع أكحله[٢] فلم يكن يضرب بيده ، وراح يقول فى حسرة وألم :

أضر بجسمى مر الدهور
وخان قراع يدى الأكحل
وقد كنت أشهد وقع الحروب
ويحمر فى كفى المنصل

وما كان حسان جبانا ، فلو عرف عنه الجبن لعيره به غريمه قيس بن الخطيم الذى يتصيد سقطاته ومثالبه .

ومشت الأوس لإقرار الصلح بين الحيين العربيين خشية أن يقوى اليهود ويعود نفوذهم فى يثرب ويشتد سلطانهم ، فأبت بنو النجار من الخزرج وحالوا بين الفريقين وبين السلام حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض وإن بقوا على عداوتهم وتشاحنهم .

ووضعت السيوف فى قربها ، وعادت السهام إلى جعبها . ولكن ألسنة الشعراء استمرت فى الانطلاق ، قال حسان معددا أمجاد الخزرج :

ويثرب تعلم أنا بها إذا التبس الحق ميزانها
ويثرب تعلم أنا بها . إذا قحط القطر ندمانها
ويثرب تعلم أنا بها إذا خافت الأوس جيرانها

---

(١) اسم مكان .

(٢) الأكحل : عرق فى اليد .

ويثرب تعلـــم أن النبيـــــ ـت عنـد الهزاهـز[1] ذلانها
نـبت بالنبـيت وأشياعهـــا من ان أوعدت قط أرطـانها
فكيـــف إذا نـــازلتها بها ليـوث غريـف[2] وشبـلانها
متـى ترنـا الأوس فى بيضنـا نهز القنـــــا تخبُ نيرانها
وتعـط المقـاد على رغمهـــا وينـزل مـن الهام عصيـانها
ويثرب تعلـــم أن النبيـــــ ـت لـيست بشيء وأعـوانها
فـلا تفخـرن والتمس ملجـأ فقـد عـاد لـلأوس أديـانها
ونحن إذا حـــاربت عامـــر أمـــام الكتيبـــة أعيـــانها

ولا يسكت بالطبع قيس بن الخطيم بل يقول فيما يقول :

نحن الفـوارس يـوم الربيـــ ـع قد علموا كيف فـرسانها
جنبنـا الحراب وراء الصريـــ ـخ حتى تـقصف مـرانها[3]
فلما استقل كليث الغريـف زان الكتيبـــة أعـــوانها
تراهن يخلجن خلـج الـدلاء تختلـج النـزع أشطـانها
ويثرب تعلـــم أن النبـــيت رأس بـــيثرب ميـــزانها
حسان الوجوه حداد السيـو ف يبتـــدر المجد شبـــانها
وبـالشوط مـن يثرب أعبـد ستهلك فى الخمـــــر أثمانها
يهون على الأوس أثمانهم إذا راح يخطـــــر نشوانها

وما كان السلام يدوم طويلا بين القبيلتين فالاستفزازات مستمرة ، وتقاليد الجاهلية مسيطرة على العقول ، والعداوة تطل بخطمها تهتبل أية

---

(١) الشدائد .
(٢) الغريف : الأكمة وكل شجر ملتف .
(٣) المران : الرماح .

سانحة لتثير القتال . وقد حدث أن نزل بحاطب بن قيس الأوسى رجل من ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل إلى سوق بنى قينقاع فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج فقال لرجل يهودى :

ـــ لك ردائى إن كسعت هذا الذبيانى .

ففعل اليهودى فنادى الذبيانى :

ـــ يا لحاطب ! كسع ضيفك وفضح !

فجاء حاطب فقتل اليهودى ، فقتل الخزرجى رجلا من الأوس لا ذنب له بذلك اليهودى ، وثارت الحرب بين الحيين ، وكان على الخزرج عمرو ابن النعمان البياضى وعلى الأوس خضير بن سماك الأشهلى .

وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر ، فقدما يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن يتحملا الديات ، فأبوا وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

كانت يثرب تموج بالغداوات وتنبض بالخطايا . ففيها أشهر سقيفة لصاحبات الرايات الحمر من البغايا ، فكان شباب القبائل يقصدون إليها ، وكانت منزلا للفسقة من سادات الأسرات وأوشابها ، فكانت الخمور تجرى فيها جريان الأنهار ، وكان اليهود تجار النشوة واللذة يجمعون الأموال من الربا ويقترفون كل منكر لسلب العرب وكنز الذهب والفضة ، فقد وقر فى ضميرهم أن ليس عليهم فى الأميين سبيل ما دام دم غير اليهود وشرفه وماله حلالا لهم .

وكان اليهود يعملون على توسيع رقعة الخلاف بين الأوس والخزرج لتشغل كل قبيلة بثاراتها ، وعلى الرغم من انشغال الحيين بعداوتهما عنهم فلم يكن اليهود جميعا بل كانت قلوبهم شتى بأسهم بينهم شديد . وكان

يقع أحيانا بين العرب واليهود شيء من النفور فإذا ما قاتلوا الكفار قالوا : نسألك بالنبى الذى وعدتنا أنْ ترسله ، وبالكتاب الذى تنزله إلا ما نصرتنا ، فكانوا ينصرون ، وإذا ما بطش العرب بهم قالوا لهم :

ـــ إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وذات يوم بينا كان أناس من اليثربيين العرب جالسين وبينهم سلمة بن سلامة ، إذ بيهودى من بنى عبدالأشهل يقف على رأسهم ويذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له :

ـــ ويحك ، أوَ ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟

ـــ نعمَ والذى يحلف به . وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا .

ـــ ويحك وما آية ذلك ؟

ـــ نبى يبعث من نحو هذه البلاد .

وأشار بيده إلى مكة واليمن ، وقالوا :

ـــ ومن يراه ؟

فنظر إلى سلمة بن سلامة وهو أحدثهم سنا وقال :

ـــ إن يستنقذ ( يستكمل ) هذا الغلام عمره يدركه .

وساد الصمت وإن كان يدوى فى ضمير الوجود صوت اليهودى الذى وقف على جبل من أربعين سنة يصيح :

ـــ طلع الليلة نجم أحمد .

وإن كانت الشهب يرمى بها لتطهير السماء لنزول الوحى على خاتم الرسل ، ليشرق النور على العالمين .

## ١٠

كان بنو جمح مجتمعين فى ناديهم حول الكعبة ، وكان فيهم أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح وصفوان بن أمية صاحب الأيسار ، فما كان أحد يضرب القداح والأزلام عند هبل قبل أن يلتمس الإذن منه . وكان بلال بن رباح واقفا يصغى إلى أحاديث القوم ، وسرعان ما مشى إليه واستشعر رغبة فى أن ينطلق إلى أبى بكر بن أبى قحافة يسعد بالأنس به وإرواء النفس من نبعه الصافى .

كان بلال مولى لبعض بنى جمح مولدا من مولديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وقد شب فيهم أمينا ذا خلق قويم فكانوا يخرجونه فى تجارتهم فكان يعود بالأرباح الوفيرة ، وزادت الثقة فيه على مر الأيام فكان لبنى جمح كما كان ميسرة لخديجة أمين القافلة وصاحب الأمر فيها .

وفى رحلات الشتاء والصيف عرف بلال أبا بكر فعرف فيه التواضع ولين الجانب والنجدة والكرم والسخاء ، يغار على مروءته ويتجنب ما يريب ، فلم يشرب الخمر حتى لا يخدش وقاره ، وما كان يكذب وما أخلف وعدا قط فتفتحت نفس بلال له . فكانت أسعد ساعات حياته تلك التى يقضيها فى صحبته يلقى إليه سمعه لتستمتع روحه بحكمته وعذب حديثه .

كان بنو جمح يرفلون فى العز . فكانت دار أمية بن خلف تزدان بالتحف المجلوبة من فارس وبلاد الشام ومصر ، وكانت دار صفوان بن

أمية تموج بفتيات من كل الأجناس ، وكانت الدفوف تضرب والراقصات يرقصن للرجال والشراب يراق فى البطون لجلب النشوة ، والرواة يروون أباطيل الشعراء ، والظرفاء يلقون النوادر المكشوفة دون حياء ، وأذرع السادة تلتف حول خصور الغوانى ، والضحكات الماجنة الآثمة تعلو على أصوات القيان المغنيات ، فقد أطلق للجنس عنانه وتفجرت فى النفوس شهوات وقتية حكم عليها أن تموت عند قمة نشوتها .

وكان بلال يعاين كل ما يجرى فى دور بنى جمح من فساد بله فى كل دور شرفاء قريش ، ولكنه لم يكن يستنكر شيئا فقد شب وترعرع فى قوم يفخرون بإنفاق الأموال فى شرب الخمور وفى لعب الميسر وفى حض فتياتهم على البغاء ، وينتزعون النساء من أحضان الأزواج ويغتصبون البنات من الآباء والأمهات ، وتتغزل حرائرهم فى الرجال ويمتنى الرواة بذلك الغزل فى القبائل ، وكان الرجال يبعثون بنسائهم عن طيب خاطر إلى أشرافهم وإلى أقوياء الأبدان والأذهان يستبضعن منهن وينجبن ذرية من النابهين الأقوياء .

وما كان للمرأة وزن فالأزواج يخلعون النساء فى يسر كما يخلعون النعال ، وما من امرأة فى قبائل العرب إلا وقد طافت على أزواج كثيرين فما كانت أكثر من متاع .

وكانت المتع المادية طابع بيوت الشرف فى مكة ، وما كانت العبادات إلا نوعا من تقديس تقاليد الآباء ، وما كانت تمارس إلا طمعا فى نعيم الدنيا ودفعا لأذى الآلهة الذى يصيب الناس فى الأرض ، فما كان للدين مكان فى أعماق النفوس وسويداء القلوب إن هو إلا عصبية من عصبيات الجاهلية .

وكان بلال يخرج مع الخارجين إلى الحرم يطوف بالبيت العتيق ويقدم القرابين للأرباب ويدين بالولاء للات والعزى وإن كان يحترم الآلهة الأخرى ، مثله فى ذلك مثل قريش الذين ولد فيهم . وكان يعيش فى دنيا الشر وإن كانت فى أعماقه كنوز مطمورة زاخرة بالخير لم تجد من يكشف عنها الغطاء ، وكانت تلك الكنوز تسفر عن معدنها كلما ألقى سمعه إلى بعض من ارتفعوا بإنسانيتهم عن مادية العصر وفجوره .

وكان يجد راحة نفسية كلما جلس إلى أبى بكر وكان معجبا بوقاره واعتداله وسماحة خلقه وكرمه ، فلو أن أبا بكر لم يبلغ بعد الثامنة والثلاثين من عمره إلا أنه كان أكثر وقارا من شيوخ قريش وساداتها ، وكانت أمتع لحظات حياته تلك التى يذهب فيها لزيارة أبى بكر ويجد عنده صديقه محمد ابن عبد الله ويصغى إلى سحر حديثه ، فقد كان يحس نشوة عارمة تملأ جوانحه وكأنما يرتفع إلى السماء .

وملأت صورة محمد أقطار رأسه واستولت على لبه ، إنه متواصل الأحزان دائم الفكرة ليس له راحة ، طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعم وإن دنت لا يذم منها شيئا ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يكن لغضبه شىء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .

إنه خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ولا يطوى عن أحد من الناس بشر ، قد وسع الناس بسطة وخلقة ، وهو أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه، لا يؤيس راجيه ومن سأله حاجة لم يرده

إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير .

واستمر بلال يفكر فى ابن عبد الله ، إنه يحس كلما أعاره سمعه أنه يصغى إلى ترانيم آتية من وراء عالم شفاف رقيق طاهر ليس من هذه الدنيا التى تموج بالغلظة والقسوة و الشرور . وأن أحاديثه صادقة نابضة بالإيمان تنفذ إلى القلب وتملؤه بالنور . وأن كل فعاله تؤكد أنه إنما خلق للناس لا لنفسه ، فهو يعين الملهوف ، ويبذل كل ما يصل إليه للفقراء والمساكين وابن السبيل ويتحمل المتاعب فى سبيل راحة الآخرين وأنه مشرق على الدوام لكأنه منارة فى بحر لجى جثم عليه ظلام ثقيل . فقد تمثل فيه الكمال الإنسانى .

واستولى على بلال شعور غامض بالإعجاب بأبى القاسم ، إعجابا ليس له حدود . وإن عجز عن أن يفسر ذلك الشعور فمن أين له أن يفطن إلى أن ذلك الإنسان الكامل قد خلق ليكون بداية خير زمن فى تاريخ البشرية جمعاء !

وضاق بلال بأحاديث سادات بنى جمح وبأشعار الشعراء الماجنين فانسل من نادى القوم وغادر الكعبة وانطلق إلى أبى بكر ، وهو يمنى النفس بلقاء أبى القاسم ليغسل أدران الروح ويصفى القلب من شواغل الدنيا ويهيم معه فى ملكوت كريم ينبض بمشاعر تسمو بإنسانية الإنسان .

* * *

وكان سعد بن أبى وقاص فى ذلك الوقت يلقى تحية طيبة على أمه التى يحبها بكل جارحة من جوارحه قبل أن يغادر الدار ، وسرعان ما خرج من دور بنى زهرة وانطلق فى الطريق الذى كانت حوانيت العطارين على جانبيه، وكانت دكان أبى طالب تكاد تكون خالية من الطيب والمسك والعنبر

بينا كانت دكان أسماء بنت مخربة أم بنى المغيرة وجدة أبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) غاصة بأفخر أنواع العود والمندل والأطياب المجلوبة من اليمن وأرض البخور .

وأمام دار خديجة التقى بعمار بن ياسر فوقف الشاب يحادث عمارا الذى كان رفيق محمد بن عبد الله فى رحلاته ، وقد قال عمار إنه ذاهب لزيارة أبى القاسم قبل أن يهل هلال رمضان ويصعد محمد إلى غار حراء ليتحنث كما اعتاد أن يفعل فى كل عام . واعتذر سعد بأن محمدا قد زاره بالأمس وأنه منطلق إلى دار أبى بكر ليسأله عن تأويل رؤيا رآها ، ولم يعجب عمار لذلك فقد عرف عن أبى بكر براعته فى تفسير الأحلام .

وجلجلت ضحكات من دار أبى سفيان المقابلة لدار خديجة فالتفت سعد وعمار وفى أعينهما دهش ، فأبو سفيان قد خرج على رأس قافلة قريش إلى اليمن ، فإذا بحنظلة بن أبى سفيان ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان ومعاوية بن أبى سفيان مقبلين ومن حولهم رجال من بنى أمية وقد أخذوا طريقهم إلى المسجد الحرام .

وعرج عمار إلى دار خديجة ، وانساب سعد إلى الكعبة فطاف بها ثم خرج من باب بنى مخزوم ومر بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ثم سار غربا إلى المسفلة حيث دار أبى بكر ، فألفى عبد الرحمن بن أبى بكر خارجا للقنص وقد ركب فرسه وتنكب قوسه ، ودار حديث رقيق بين بارى النبل القصير الدحداح وبين ابن أبى بكر الذى يشب فارسا شاعرا ككل أبناء بيوتات قريش ، ثم دلف سعد إلى الدار .

كان أبو بكر جالسا وعنده حكيم بن حزام بن خويلد — وقد صارت دار الندوة إليه بعد أن كانت لبنى عبد الدار ، اشتراها لتكون مكرمة له

ولأبنائه من بعده — وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وبعض شباب قريش . وكانوا جميعا من الشباب القرشى — باستثناء حكيم — المتطلعين إلى حياة جديدة غير حياة مكة الغارقة فى الأساطير والخرافات والأوهام ، وقد وجدوا فى أبى بكر أسوة حسنة فكانوا يهرعون إليه ليقتبسوا منه الطهارة والصدق ومكارم الأخلاق ، فقد كانت ضمائرهم نقية لم تتغلغل فيها بعد وثنية الآباء ولا التعصب الأعمى لأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئا .

ودخل سعد على القوم وألقى عليهم التحية ، ثم سار وجلس إلى جوار عبد الرحمن بن عوف فهو مثله من بنى زهرة أخوال محمد بن عبد الله ، ودار الحديث حول التجارة والرحلات فراح عبد الرحمن بن عوف يقص بعض قصصه فى الأسواق ، فقد ذاع صيت أمانته فى القبائل فكانت التجارة ترسل إليه من كل حدب وصوب إلى مكان الصفق ، فما كان يبدأ فى الصفق معلنا بدء البيع حتى يخف الناس إليه ولا ينفضون من حوله حتى يأتى على ما معه من تجارة ، فيأخذ نصيبه بلا زيادة ولا نقصان ويعيد إلى أصحاب التجارة حقوقهم .

وقص عثمان قصة خروجه مع عمرو بن العاص إلى الحبشة ، وراح يصف ركوب البحر وأسواق الحبشة وبلاط النجاشى وعادات الناس وما عادت القافلة به من أرباح مادية وصلات طيبة ، فقد توطدت صداقة بين عمرو والنجاشى واستطاع عمرو بدهائه أن يستولى على إعجاب عاهل البلاد .

وتحدث حكيم بن حزام عن أسواق الشام واليمن والحيرة وبصرى ،

وأسهب فى الحديث عن قصر هرقل إمبراطور الروم الذى يمضى أغلب أوقاته فى بصرى ، وكثيرا ما يبعث إلى أشراف الأقوام الذين يؤمون أسواقها ليفدوا عليه فيكرمهم ويسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم ، ويحاول أن يستشف من أحاديثهم حقيقة ميولهم ، وأن يعرف عواطفهم معه أو مع الفرس أعدائه وأعداء بلاده ؟

وتحدث الزبير بن العوام عن الفروسية والفرسان وابن عمه حكيم بن حزام يرمقه فى إعجاب ، واشترك فى الحديث أبو عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص ، وكان انفعال الشباب يترقرق فى الوجوه ويجرى على الألسنة ، وكان الحديث يدور حول بعض مناوشات دارت بين بعض الفرسان أو بعض الأحياء ، ولم يخطر على قلب أحد من الحاضرين أن هؤلاء الشبان المغمورين سيرفعهم دين قويم إلى مصاف أشهر قواد الأرض ، وأنهم سيقوضون بسيوف الله المسلولة جيوش أعظم إمبراطوريتين : إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان .

وتحدث طلحة بن عبيد الله عن قوافل بنى تيم فهو من رهط أبى بكر ، وذكر الرهبان النازلين فى صوامعهم على طريق القوافل فهيج بحديثه ذكريات أبى بكر . فرأى نفسه وهو طفل صغير يخرج مع أبيه فى قافلة قريش التى كان سيدها أبو طالب فى ذلك اليوم الذى تشبث فيه محمد بن عبد الله بعمه وخرج معه إلى الشام .

واحتلت رأس الصديق أحداث ذلك اليوم الذى نزلت فيه قافلة قريش إلى جوار صومعة بحيرا الراهب ، ورن فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بين بحيرا وأبى طالب ، وانثالت على فكره صورة بحيرا وهو يكشف عن ظهر محمد ويقبل الخاتم الذى بين كتفيه ، وسرعان ما رأى محمدا يخرج فى تجارة

خديجة وهو إلى جواره يصغى إلى عذب حديثه ويسعد برفقته ، حتى إذا ما نزلت القافلة بالقرب من صومعة الراهب نسطورا ورأى الراهب الشاب القرشى الوسيم انطلق إليه كالمسحور وراح يحادثه فى اهتمام ويسأله عن بعض شأنه فى يقظته ومنامه ، ثم يطلب منه أن يكشف عن ظهره ليرى الخاتم الذى بين كتفيه فلما وقعت عليه عيناه مال وقبله فى تقديس واحترام .

قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنه بشر . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . وقال نسطورا أن سيكون لمحمد شأن ، وكان أبو بكر فى عين ذاته يؤمن بصديقه أعمق الإيمان ، ويرى أن ليس للعرب من معلم ولا هاد غير أبى القاسم فهو صاحب نفسية عظيمة وإرادة قوية ، اتصل بالطبيعة وبما وراء الطبيعة وكاد أن يميط اللثام عن سر الوجود ، إنه إنسان عظيم وإنه لشرف لأعظم الرجال أن يكونوا مريدين لصاحب هذه العظمة الخارقة .

وأدار أبو بكر عينيه فى وجوه سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وأبى عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله وعثمان ابن عفان ، وإذا بهامس يهمس فى جوفه يقول : « يا لحسن طالع هذا الجيل ، لو أن هؤلاء الأشبال تعلموا الحكمة من محمد بن عبد الله ! » .

## ١١

بين مكة ويثرب تقع قرية ودان ، وهى على بعد ثمانية أميال من الأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب ، وهى لقبائل ضَمرة وغفار وكنانة ، وكان رجال غفار يعيشون على مهاجمة القوافل وسلبها ، وكانوا غلاظ الأكباد ترتجف منهم قلوب الذين يمرون بالقرب من ديارهم ويوسعون الخطو وهم يترقبون خشية أن ينقض عليهم فرسان الليل فيسلبوهم أرواحهم أو أموالهم أو حرياتهم .

وكان جندب بن جنادة ( أبو ذر ) يقطع الطرق ويشن الغارة على القوافل وحده ، وكان يعود إلى القبيلة بما سلب فيمد الشباب أعينهم إلى ما معه وقد لاح فيها الحسد ، دون أن يجرؤ أحد على أن يسأله القسمة أو المشاركة فقد كان قويا ذا سلطان بطشه شديد .

واشتهرت غفار فى القبائل بالسطو وقطع الطرق فوقر فى العقول أن غفارا لا يأتى منها شيء طيب ، فإذا ما نزل رجل من غفار على قوم من الأقوام نظروا إليه فى ريبة وعاملوه فى حذر وراقبوه حتى يرحل عنهم .

وعلى الرغم من أن غفارا كانت تعيش على السلب والنهب وزهق الأرواح البريئة فما كانت بقادرة على أن تعيش بلا إله ، فكانت تتعبد للات والعزى ونهم وآلهة العرب الأخرى . إلا أن مناة كانت إلهتهم المفضلة يحجون إليها قبل أن ينطلقوا إلى الحرم ، ويحلقون رءوسهم عندها إذا ما انقلبوا إلى أهليهم بعد تأدية مناسك الحج فى مكة . وكان أبو ذر يقدم إليها

نصيبا من غنائمه ويسوق إليها النحائر ويتقرب إليها بالقرابين .

كان أبو ذر شجاعا ورث عن مجتمعه عاداته فما كان يرى فى السطو عيبا ، إلا أن الله أعطاه بصيرة نافذة فكان كلما سرى فى الليل ورأى النجوم والكواكب والقمر ، فكر فى آيات السماء وفى الأصنام التى يقدسها فيتدسس الشك فى آلهته إلى وجدانه ، وتهمس هواتف الإيمان فى ضميره مؤكدة أنها أهون من أن ترفع سماوات وأن تزينها بمصابيح ترشد السارين بالليل ، حتى وإن كانوا قطاع طرق مثله !

واستمر أبو ذر يفكر فى ملكوت السماء والأرض فإذا به يستشعر بإشراق النور فى قلبه ، وتنكشف الحجب عن عين ذاته ، وتتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور الإلهية فيهتدى إلى أن لهذا الكون رباً غير اللات والعزى ومناة وكل آلهة العرب ، إلها عظيما قادرا لا مطمع فى أن يرقى إليه العقل أو يتناوله بالدرس والبحث . فأحب أبو ذر ربه وراح يجاهد نفسه ليرضى إلهه ويصلى له ويتوجه حيث يوجهه الله .

وذاق أبو ذر لذة الأنس بالله ، وهبت عليه نسائم الألطاف فلمعت فى قلبه من وراء ستر الغيب أشياء من غرائب العلم كالبرق الخاطف راحت تمحو من نفسه كل صفاته المذمومة وتقطع كل العلائق التى كانت بينه وبين السطو والسلب وسفك دماء الأبرياء .

وعرف أبو ذر جوهر الحقيقة ووضع قدميه على الصراط المستقيم ، ولكنه وهو صاحب السطوة والنفوذ فى قبيلته لم يفكر فى أن يسفه أحلام قومه أو يسب آلهتهم ، فإنه لشىء رهيب تقشعر منه الجلود أن يقف إنسان وحده فى وجه الناس يعيب دينهم ويأمرهم أن يعبدوا إلها غير آلهة آبائهم الأولين .

( دعوة إبراهيم )

وقعدت همة أبى ذر عن أن يدعو إلى الحقيقة التى رآها بعين بصيرته ، ورضى بأن اهتدى وحده ، وفرح بأنه يتوجه فى دعائه وصلاته إلى الله ، حتى أمه وأخوه أنيس وعشيرته الأقربين لم يفكر فى أن يدعوهم إلى الحسنى ، فقد كان على ثقة من أنه أعجز من أن يقدر على أن يقنع أحدا بتبديل عقيدته ، وإن كانت تلك العقيدة واهيه ينفر منها كل ذى عقل سليم .

آثر أبو ذر السلامة واكتفى بوصول الحقيقة إلى قلبه وهو المغامر الشجاع الذى لا يرهب الرجال ، ولكن حرب العقائد تحتاج إلى شجاعة تفوق شجاعة الفرسان ومقارعة الخطوب ، والدعوة إلى دين تحتاج إلى تأييد من الله ونصر من عنده وإلقاء أنوار اليقين فى القلوب .

وانحبس الغيث عن غفار وأجدبت الأرض وحاق بالناس الضيق ، وبينا كان أبو ذر وأخوه أنيس جالسين يتلويان من الجوع إذ دخلت عليهما أمهما وفى وجهها رهق قد انتقع لونها وغارت عيناها وعلاها ذبول ، وقالت :

ـــ أرى أن ننزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال .

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما فرحب الرجل بهم وأكرم وفادتهم ، فلما رأى الناس عطف الخال عليهم تحرك الحسد فى نفوسهم ووسوس لهم الشيطان أن يكيدوا للوافدين عليهم ، فذهب رجل منهم وقال للخال :

ـــ إذا ما خرجت جلس أنيس إلى نسائك .

وطوى الرجل نفسه عن ابنى أخته ، وأحس أبو ذر بإعراض خاله عنهم فقال له :

ـــ ما خطبك ؟ إنى أنكرك منذ أيام . أراك معرضا عنا قليل الحديث طويل التفكير .

فقال الخال والغضب يملأ جوانحه :

ـــ قال لى قومى : إذا خرجت عن أهلى خلفنى إليهم أنيس .

فقال له أبو ذر فى أسى :

ـــ أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لنا فيما بعد .

وعاد أبو ذر وأنيس وأمهما إلى غفار ، ليصلى أبو ذر لله ويتوجه حيث وجهه الله ، ينتظر ما يأتى به الغد لا يدرى ما يخبئه له القدر .

## ١٢

راحت خديجة تعد زاد أبى القاسم وكان من كعك وزيت . وكانت تستشعر نشوة واستبشارا فقد عرفت لذة الخلوة بالله والأنس به والفرح الفياض الذى يغمر الفؤاد كلما أشرق فيه نور اليقين . فمحمد الحبيب كان يأخذها معه فى السنوات الأخيرة لتتعبد طوال شهر رمضان فى حراء مع الحنفاء من قريش ، فكانت تسعد بصفاء القلب وتتهلل بالبشر لنسائم الرحمة التى تهب عليها من خزائن الملكوت ؛ ولكن ذلك الجنين الذى تحرك فى أحشائها قد حبسها هذا العام عن أن ترقى لتعتكف مع المعتكفين ، وتهيم بروحها رفرافة فى عالم النشوة والنور تنهل من ينابيع الكمال والسعادة السرمدية التى لا تعرف الذبول ولا الفتور .

وكانت خديجة ترجو أن يكون ذلك الذى فى بطنها عوضا لها ولزوجها الكريم عن القاسم الذى مات فى عمر الورود ، فالأمين قد حزن عليه حزنا كشف عن تعلق قلبه الكبير بابنه العزيز ، فلعل ذلك الآتى بعد حين يكون قرة عينه وغصنا رطيبا من شجرته الزكية المباركة .

وجاء أبو القاسم يتألق وجهه بالنور تعلوه هالة من المهابة فأحست خديجة إجلالا كأنها كانت بين يدى مَلَك كريم ، وزاد فى روعة مشاعرها ذلك الإشراق الذى غمر الدار وذلك الأريج الطيب الذى أفعم به المكان وانتشت به الأرواح كأنه انتشر من عالم مسحور .

ومال محمد إلى على بن أبى طالب وقبله ، ثم حمل فاطمة الزهراء بين يديه وضمها إلى صدره الحنون وراح يلثمها فى حب عميق ، وودع خديجة وزيد بن محمد وأم أيمن وكل من فى الدار ، ثم حمل زاده وخرج قاصدا وجه الله معتزما أن يمضى شهرا فى صحبة مولاه ورعايته راجيا أن يتعرض لنفحاته ورحمته ، فسعادته الحقة فى أن تشف روحه وتسمو فوق سموها لتنعم بغاية غاياته : بالوصال بروح الوجود .

وانطلق يتكفأ فى مشيته فى الطريق الموصل إلى الصفا حيث دور بنى مخزوم ، ومر على حوانيت العطارين فكان يلقى على الناس أطيب تحية فيحيونه بأحسن منها ويستقبلونه باشين متطلقى الوجوه ، فهو حبيب إلى كل النفوس لما عرف عنه من جميل الشمائل والخلق العظيم .

ودخل المسجد من باب إبراهيم فإذا الحرم يموج بالبشر ، أناس ينحرون الذبائح بين إساف ونائلة ويطوفون بما يذبحون ، وأناس يتزاحمون عند زمزم ، وأناس يتمسحون بالأصنام ويبتهلون إليها ، وكان تمثال مريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل آلهة القبائل التى كانت على هيئة رجل أو امرأة أو فرس أو أسد أو نسر ، قد جلب ذلك التمثال من بلاد الشام أو الروم العرب المتنصرين ، فالكعبة بيت العرب جميعا وثنيين ومجوس وصابئين ويهود ونصارى وحنفاء موحدين .

وكان أشراف القوم فى دار الندوة يحكمون بين الناس ويشرفون على ختان الصبيان وضرب الحجاب على البنات اللاتى بلغن الحلم وتحرير وثائق الزواج أو تزجية الوقت بالإصغاء إلى رواة السوء .

وانتشرت نوادى القوم حول أول بيت وضع للناس : فكان بنو هاشم

مجتمعين فى ظل الكعبة حيث كان يمد فراش عبد المطلب ، وكان بنو أمية وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو جمح وبنو أسد وبنو سهم وبنو عدى وبنو عبد شمس ملتفين فى حلقات حول سيدهم ، لا هم لهم إلا حديث الدنيا وجمع المال وملء البطون وإشباع الشهوات والاستجابة للنزوات والفخر بكل ما يحط من شأن الإنسان .

وتقدم محمد إلى الكعبة وكان أمامه مقام إبراهيم وقد التصق بالبيت وبئر أبيه إسماعيل صادق الوعد الأمين والناس يموج بعضهم فى بعض ، ولكنه شغل عن الغادين والرائحين والطائفين والجالسين بالمشاعر النبيلة التى ملأت جوانحه بعد أن قطع كل علائقه بالدنيا وتوجه بكل كيانه ووجدانه إلى الله رب العالمين .

وراح يطوف بالبيت سبعا وهو مستغرق فى ابتهالاته إلى ربه لا يسمع الأصوات الهادرة من حوله ولا صوت أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت ويدعوان فى حرارة : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ولا الأهازيج التى كانت فى السماء ولا تسبيحات الملائكة التى كانت مفعمة بالحرارة تأهبا لليلة مباركة تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر .

وراح محمد يغادر الكعبة وقد أشرق قلبه بنور ربه ووحى الله إلى موسى الكليم يرن فى ضمير الوجود : « وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه فيقول لهم كل شىء آمره به . وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه » .

وسار محمد إلى الغار وقد وسع من خطوه يحس تعطشا تاما إلى الأنس بربه ، ومزامير داود فى سريرة الكون تنشد : « .. فاضت الرحمة على شفتيك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد ، فتقلد السيف فإن بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك والأمم يخرون تحتك » ونبوءة إشعيا تتألق بالأنوار فى التوراة : عبدى الذى سرت به نفسى ، أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف وما أعطيه لا أعطى أحدا . مُشقع[1] يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض ، تفرح البرية وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكرزونه على كل رابية . ولا يضعف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى ، ولا يُذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة بل يقوى الصديقين . وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه » .

واستمر محمد فى سيره وقد انكشف الحقائق كلها فى قلبه بإلهام من ربه . وغمرته سعادة لما فتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وزادت غبطته لما أحس أنه على نور من ربه .

وظل يمشى على الأرض هونا مخلفا دور مكة وراءه ، وخطاب إشعيا لمكة العاقر التى لم يبعث الله بها نبيا بعد يرن فى جوف الزمن : « أيتها العاقر ! افرحى واهتزى وانطلقى بالتسبيح فإن أهلك يكونون أكثر من

---

(١) زاهى وفى خير البشر لابن ظفر « محمد » .

أهلى » .

وراح محمد يشتد فى جبال فاران « مكة » وقد هجر الناس والدنيا فى حب الله ، وخرج عن نفسه إلى الله وصبر مع الله ابتغاء بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمال لا نقصان فيه ، وعالم أوسع من عالم الأرض .

ورجع صوت شمعون نبى بنى إسرائيل يدوى فى أغوار أورشليم : جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

وطفق صدى صوت زرادشت يتجاوب فى وديان فارس وسهولها وجبالها « استمسكوا بما جئتكم به حتى يجىء صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب .. إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل من بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين ، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات».

واستمر محمد يعرج فى الجبل والأنوار التى تشرق فى قلبه تبهر كل الأنوار ، والفرح الفياض الذى يستشعر به فى عين ذاته لقربه من الله قربا حقيقيا يفوق كل أفراح الدنيا ، بعد أن صار جمال المدركات بالبصائر أكمل عنده من جمال المبصرات ، ولذة النظر إلى الله أمتع من كل اللذات الحية التى ما إن تفور حتى تغور . وكان غائبا عن كل ما حوله إلا عن ربه ، بينا كان ملايين المتعبدين فى الهند يقرءون فى الساماقيدا : « تلقى

أحمد الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » .

كان وهو يشتد فى الجبال هائما فى محبة الله يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، تأججت فى وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، فراح يغذ السير فى حماس لينفرد بربه ويخلو بحبيبه ، ويستغرق فى عذوبة الذكر ويستمتع بحلاوة الأنس ويستحوذ على مفاتيح السعادة التى تنزل الرحمة على قلبه ، وبشارات الأنبياء تخفق بذكره فى الكتب المقدسة ، فحَيقوق يقول : إذا جاءت الأمة الآخرة يسبح بهم صاحب الجمل تسبيحا جديدا فى الكنائس الجديدة ، فافرحوا وسيروا إلى صهيون بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أمة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، فينتقمون من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار .

ويوحنا الإنجيلى يقول فى رؤياه : ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا صادقا وبالعدل يحكم . ويوحنا اللاهوتى يقول : ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الأمم ... وهو يدوس معصرة خمر .

واستمر فى صعوده وقد تواضع لله وهو ينعم بجيشان العواطف النبيلة فى وجدانه ، تلك العواطف التى تتجه إلى الله وتستمد حيويتها منه وتتألق وتشرق بنوره ، يحس فى صميم ذاته لا بجوارحه أنه يسير معه ، وأن قلبه يخفق بذكره ، وأن روحه ترفرف بحمده ، وأن أنفاسه تسبح له ، وأن السموات والجبال والوديان تترنم بمجده .

ورن صوت يحيى بن زكريا فى قافلة البشرية مبشرا بقرب ملكوت الله قائلا : توبوا فقد اقترب الملكوت ، وصوت المسيح تتجاوب به الجبال والوديان والسهول والبرية : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم ، إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره .

إن أحببتمونى فاحفظوا وصيتى وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله ... إن هذا الكلام الذى سمعتموه ليس هو لى ، بل للآب الذى أرسلنى ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذى يُرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم جميع ما أقول لكم .

إن انطلاق خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة . ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب .

وسرى فى الوجود ابتهالات المسيح فى صلواته : « فليأت ملكوتك » . وحواره لحوارييه لما ضرب لهم مثل الزرع والزارع ولما سألوه ماذا أراد بهذا المثل وقوله لهم : لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، الزرع هو كلام الله .

وبلغ محمد مدخل الغار فالتفت خلفه يلقى نظرة على الكون ، فإذا بنور يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وإذا بالنسيم يهب رخاء له تسبيحات تشرح الصدر ، وإذا بعطايا نورانية توهب له من جود الله وكرمه فترفعه إلى ذروة انتصاره الروحى . وتقدم ليدخل الغار على بركة الله وكانت

بشارة السيد المسيح تقرع الآذان الغافلة : ﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾(١) .

ودخل غار حراء ليرابط مع الله ويتدبر ويتفكر ويسعد غاية السعادة بلذة المناجاة ويفتح نفسه لتلقى كنوز السماء .. فصفا قلبه من شواغل الدنيا . وزكاه بالنظر إلى ملاحظة جمال الله وجلاله وجلاه بالترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليه من الرحمة ، وأقبل على ربه بإرادة صادقة فبذر الله فى أغواره الاخلاص وهو سر من أسراره يستودعه قلب من أحب من عباده . ليظهر به ينابيع الحكمة من القلب على اللسان .

وأقبل بكنه الهمة على الله فأرشد إلى الطريق ، وقويت بصيرته على مشاهدة ما وراء حواسه الخمس وأشرق سراج عقله فإذا بعلم من عند الله ينقش فى بياض لوح قلبه . وإذا بالصور الباطنية التى لا تدرك بالأبصار بل بالبصائر حقيقة ساطعة ناصعة أمام عين ضميره ، فغمره استبشار وفرح فياض لذلك اليقين الذى استولى على فؤاده .

وأحس أنه دنا فتدلى من المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت الواحد القهار ، وأنه يقرع أبواب السماء وأن الأبواب جميعا فتحت له ، وأن كل الحجب ارتفعت عن سر الغيب ، فشعر بخصب وجوده وامتلائه بالحكمة ، وبأن كلاما كريما نزه عن معانى الحروف والأصوات ينفث فى روعه ، فألقى سمعه وهو شهيد وقد تهلل بالفرح لما يرحى إليه .

وأضاء زيته الذى فى مشكاة قلبه وازداد اشتعالا فأصبح نورا على نور ،

---

(١) سورة الصف آية ٦ .

والتفت فى الغار فإذا بنور باهر قد تألق بالمكان ، نور يبهر نور الشمس ، فامتلأ دهشة وقبل أن يفيق من دهشته سمع صوتا ينادى :

ـــ يا محمد ! يا محمد !

فانخلع قلبه وخرج من الغار مرعوبا ، وانطلق إلى دار خديجة لا يلوى على شيء وهو يضطرب من الخوف على الرغم من الرؤيا الصادقة التى كان يراها تأنيسا له ولكى يهدأ فؤاده .

ولما رأته خديجة والفزع فى وجهه هرعت إليه تسأله ما به ، فقال لها :

ـــ أرى نورا وأسمع صوتا وأخشى أن يكون بى جنون .

فضمته إليها فى حب شديد وقالت فى إيمان :

ـــ كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث .

وسمع أبو بكر أن صديقه أبا القاسم قد عاد خائفا من حراء فانطلق إلى دار خديجة ليرى ما الخبر ، وبلغ الدار ودخل على خديجة وليس عندها أبو القاسم فسألها عن الخبر فقصت عليه حديث زوجها ثم قالت له :

ـــ يا عتيق اذهب بمحمد إلى ورقة .

ودخل أبو القاسم فأخذ أبو بكر بيده فقال :

ـــ انطلق بنا إلى ورقة .

وذهب به إلى ورقة فقال محمد :

ـــ إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ! يا محمد ! فأنطلق هاربا إلى الأرض .

فقال ورقة له :

ـــ لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى .

وعاد محمد إل غار حراء ولا يزال أثر الخوف فى قلبه ، وسرعان ما ردت نفسه إلى طبعها لما عاود النظر إلى الله وحرك النظر القلب إلى ذكر الله فاطمأن فؤاده وانشرح صدره بالأنس بالله ومشاهدته ومراقبته ومناجاته .

وجاءت ليلة القدر أعظم ليلة فى تاريخ الوجود ، وحانت اللحظة التى بشر بها كل الأنبياء ، وأتى ملكوت الله الشريعة البيضاء كلام الله على الأرض ، فإذا الملائكة تنزل والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، وإذا بأنوار تشرق فى الغار ومحمد قائم يدعو ربه ، جاءه الملك فقال :

ـــ اقرأ .

فقال محمد فى خوف :

ـــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ـــ اقرأ .

ـــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ـــ اقرأ .

ـــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ـــ اقرأ .

ـــ ما أقرأ .

ـــ ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علَق * اقرأ وربك

الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1] .

فقرأها محمد فانصرف عنه فخرج محمد مرعوبا من الغار ، حتى إذا ما كان فى وسط من الجبل سمع صوتا من السماء يقول :

ـــ يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفع رأسه إلى السماء ينظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول :

ـــ يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقف ينظر إليه فما يتقدم وما يتأخر ، وجعل يصرف وجهه عنه فى آفاق السماء فلا ينظر فى ناحية منها إلا رآه كذلك ، فما يزال واقفا ما يتقدم أمامه وما يرجع وراءه .

وصنعت خديجة طعاما ثم أرسلته لأبى القاسم فجاء رسلها إلى الغار فلم يجدوا محمدا به ، فعادوا إليها وقالوا فى خوف :

ـــ لم نجده بحراء .

وخفق قلب خديجة رهبة وذهبت نفسها شعاعا خشية أن يكون قد حاق بالحبيب مكروه ، ولم تستطع صبرا فأرسلت فى طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده ، فشق ذلك عليها حتى أتاها ترتجف بوادره فجلس إلى فخذها ملتصقا بها ، فقالت فى وجد :

ـــ يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى .

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ـــ ٥ .

فقال لها :

ـــ لقد أشفقت على نفسى .

وراح يخبرها الخبر وخديجة تصغى إليه فى اهتمام وقد تذكرت تلك الليلة التى رأت فيها الشمس تهبط إلى سماء دارها لتشرق بنورها على المشارق والمغارب . وتذكرت قول اليهود يوم اجتمعت نساء قريش فى الحرم : قد أظل زمان نبى فمن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل . وطفا على سطح ذهنها كل النبوءات التى كانت تشير إلى أن محمد بن عبد الله هو المنتظر والمرتقب ، فما كاد ينتهى من حديثه حتى قالت فى حماس :

ـــ أبشر يا بن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فو الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق !

وملأ حديث خديجة قلب زوجها ثقة . و لم تطق الصبر على الانفعالات التى راحت تمور بين جنبيها فقامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، فأخبرته بما أخبرها به أبو القاسم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة :

ـــ قدوس قدوس[1] ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

---

(١) قدوس قدوس أى طاهر طاهر وأصله من التقديس وهو التطهير .

وخرج أبو القاسم وراح يطوف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل فقال :

ـــ يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره فقال له ورقة :

ـــ والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذَّبنَّه[1] ولتؤذينه ولتُخْرجنَّه ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه .

ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه .

---

(١) الهاء فى هذه الأفعال للسكت .

## ١٣

تهللت خديجة بالفرح حتى إنها راحت تناجى الله والدموع تملأ عينيها والانفعال الشديد يستحوذ عليها ، كانت تشكره بلسانها وبكل جوارحها على أن اصطفى محمد بن عبد الله لرسالته ، وزاد فى غبطتها صدق ما نفث فى روعها وما رأت فى أحلامها بعد أن عاد ميسرة من الشام يقص عليها أنباء الأمين وما كان بينه وبين الرهبان والتجار والسادة والعبيد . فقد ألقى فى عين ذاتها منذ تلك الأيام أن ابن عبد الله هو النبى المرتقب ، وقد دفعها إيمانها بما وقر فى ضميرها أن تعرض نفسها على محمد بعد أن دست عليه من يزين له زواجها ، وهى الطاهرة سيدة نساء قريش من تقدم إليها أعظم سادات قومها يطلبون يدها فرفضتهم جميعا لأنهم دون آمالها وأحلامها .

كانت آمالها العريضة المجنحة تزين لها أن تكون فراشا للنبى العربى الذى بشر به الأنبياء ومن أكدت النبوءات جميعا أن قد أظل زمانه ، فكانت تقيس كل من يتقدم إليها بصفات الأنبياء فما وجدت فى كل من تقدموا لخطبتها الصفات التى تؤهلهم للرسالة . ولكنها ما إن رأت محمدا واستأجرته لتجارتها وسمعت ما يقول الناس عنه حتى لمست فيه الورع والتقوى والأمانة والعفة والخلق الكريم ، فألهمت أنه نبى هذه الأمة وآمنت به وتزوجته . ولم يتزعزع ذلك الإيمان لحظة واحدة بل كان يزداد على مر الأيام قوة وتألقا .

كانت تتعجل الزمن وتتلهف على مبعث زوجها فكانت تذهب إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة بن نوفل تقص عليه أحوال محمد وما يرى فى نومه ويقظته وأنسه بربه ورفع أستار الغيب عن جوهر الحقيقة ، فكان ورقة يصغى إلى حديثها فى اهتمام ولا يزيد على أن يقول فى انفعال : متى يا خديجة متى ؟!

وها هى ذى النبوة قد صارت حقيقة واقعة بعد أن أوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وقد وقفت خديجة إلى جوار زوجها تسكن روعه وتشد أزره وتؤكد له فى ثقة أن الله لا يخزيه أبدا لأنه على خلق عظيم . إنها قد استبشرت بفيض كرم الله على زوجها وعليها ولكن ذلك الفرح بتحقيق أمانيها لم يذهلها عن طبيعتها . إنها تريد أن تكون أمينة مع نفسها ، أمينة مع ربها ، أمينة مع الرسالة المباركة التى وضعت على أكتاف زوجها ، فلم تقبل الأمر فى يسر دون تفكر أو تدبر بل أرادت أن تستوثق وأن يطمئن قلبها إلى أن ذلك الذى يأتى زوجها ملك من عند الله وليس بشيطان من الجن ممن يعوذ بهم الكهان قبل أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقالت لأبى القاسم وهى تحاوره :

ـــ أى ابن عم . أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال :

ـــ نعم .

ـــ فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاء جبريل فقال محمد ﷺ لخديجة :

ـــ يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

ـــ قم يا بن عم فاجلس على فخذى اليسرى .

فقام محمد ﷺ فجلس عليها فقالت :

ـــ هل تراه ؟

ـــ نعم .

ـــ فتحول فاجلس على فخذى اليمنى .

فتحول فجلس على فخذها اليمنى فقالت :

ـــ هل تراه ؟

ـــ نعم .

ـــ فتحول فاجلس فى حجرى .

فتحول فجلس فى حجرها قالت :

ـــ هل تراه ؟

ـــ نعم .

فتحسَّرت وألقت خمارها وأدخلت زوجها بينها وبين درعها ثم قالت له :

ـــ هل تراه ؟

ـــ لا .

فقالت فى فرح :

ـــ يا بن عم اثبت وأبشر ، فو الله إنه لملك وما هذا بشيطان .

وأثلج صدر خديجة وتهللت أساريرها وغمرها إيمان عجيب ، وإذا بشفتيها تتحركان بأول شهادة تحركت بها شفتا مسلم على وجه الأرض فقالت فى صدق :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فإذا بنور يملأ أرجاء الدار وكأنه انبعث من مشكاة قلب خديجة ، وإذا بالدموع تترقرق فى عينى أبى القاسم فيخر ساجدا لله .

وخرج محمد ﷺ إلى أعالى مكة فإذا بجبريل يأتيه فيراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال . وراح يعلمه الوضوء فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين ، ففعل محمد عليه السلام مثله ، وركع جبريل ركعتين مواجهة للبيت الحرام ، ففعل محمد كما يرى جبريل يفعل ، وكان ذلك قبل غروب الشمس . ثم انصرف جبريل فجاء محمد عليه السلام خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها أبو القاسم ، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

وكانت أول صلاة أقيمت فى الدين الجديد . ونام الزوجان متفرحين بالله وقلباهما قد شغلا بالله ، فالعين تنام والقلب يقظان . وقبل طلوع الشمس قام محمد عليه الصلاة والسلام وخديجة التى تم لها الاستبصار وعلمت علم اليقين أنها على الطريق فتوضآ وصليا ركعتين ، فقد كانت الصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها . « وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار » .

وبينا كان محمد عليه السلام آخذا بأطراف الحديث مع خديجة إذا بالرعدة تستقبله وتريد وجهه وغمض عينيه ، ولم تستطع خديجة أن ترفع وجهها إليه وإن كانت تسمع عند وجهه كدوى النحل ، وظن محمد أن نفسه تقبض منه وإن كان يسمع صوتا له صلصلة كصلصلة الجرس يخالط

قلبه ، وزال عنه ما كان يكابده وقد وعى كل ما سمع ، فنظر إلى خديجة وهو متطلق الوجه وقال :

ـــ يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .

فخفق قلبها بالرضا وقالت فى انفعال شديد :

ـــ الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

## ١٤

بلغ زينب ورقية وأم كلثوم أن أباهن الحبيب عاد من غار حراء مرعوبا يرتجف من الخوف فهرعن إليه خافقات القلوب يخشين أن يكون قد أصابه مكروه ، فإذا كل من فى الدار مشفق على الرجل الكريم . ولولا قوة ثبات جنان خديجة ، وإيمانها العميق بزوجها وبأن الله لا يخزيه أبدا ، لذهبت نفوس بنات محمد شعاعا ، ولمزق الحزن قلب زيد بن محمد ، ولأصاب على بن أبى طالب البوار ، ولانفطر كبد أم أيمن . فقول محمد الذى كان الروح التى تخفق فى جنباتهم لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد وأرى نورا وأخشى أن يكون بى جنون ، كاد يذهب عقولهم ، فإنه لشىء يفوق الاحتمال مجرد التفكير فى أن الرجل الذى عرف برجاحة العقل والحكمة قد طاش لبه .

كان كل من فى الدار خائفين على رب البيت يرتجفون فرقا مما سمعوا ، ولكن خديجة كانت ثابتة ثبات الطود لم يتزعزع إيمانها برجلها قيد أنملة ، فهى منذ عرضت نفسها عليه ترجو أن يكون نبى هذه الأمة ، وقد عاشت معه خمس عشرة سنة لا ترى منه إلا كل خلق عظيم . وها هى ذى اللحظة الحاسمة التى كانت تترقبها فى لهفة قد أقبلت ، لحظة أن يبعث الله زوجها إلى الناس وأن يكرمه بالنبوة . فقالت له لتسكن روعه ولتنفى عنه مظنة الجنون : كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك . فو الله إنك لتؤدى

الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . إن خلقك لكريم .

كانت مؤمنة بكل كلمة نطق بها لسانها ، وقد خفف قولها من لوعة الأسى التى نزلت بأفئدة أهل البيت وأضاءت نور الأمل فى نفوسهم التى كانت مظلمة حزينة حتى الموت . ولما جاء أبو بكر الصديق الوفى لأبى القاسم وأخذ بيده إلى ورقة بن نوفل ثم عاد به يقص على الجميع ما كان من قول ورقة لمحمد : إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول . استبشرت خديجة وراحت زينب تعبث فى القلادة التى أهدتها لها أمها يوم زواجها وهى تحاول أن تزن بعقلها كل ما سمعت وكل ما قيل وكل ما عرفت عن أبيها من مكارم الأخلاق ، فتسللت الطمأنينة إلى قلبها وإن كانت مشفقة على أبيها مما هو فيه . وراحت رقية تنقل بصرها بين أبيها وأمها فتستشعر رغبة فى أن تجهش بالبكاء ولكنها كانت تغالب عواطفها حتى لا تزيد الجو المكفهر الذى ران على الدار تجهما وقلقا وحيرة . وكانت أم كلثوم تتأرجح بين الأمل الذى أشرق من فم الطاهرة سيدة نساء قريش وبين الاضطراب الذى كانت تغذيه مخاوفها .

و لم تجد فاطمة الزهراء من تلوذ به من إحساساتها المتباينة غير صدر أبيها فارتمت بين أحضانه وتشبثت به فانقشع عنها كل خوف . بينا راح على بن أبى طالب الفتى الذى لم يبلغ بعد العاشرة يغدو ويروح فى الدار يفكر فى مصدر الصوت الذى نادى ابن عمه الحبيب ومنبع النور الذى أشرق فى الغار فى سواد الليل البهيم .

وكانت أم أيمن لا تدرى ماذا تفعل وما تقول ، كانت تسمع مخاوف سيدها فتنهمر منها الدموع وكانت تصغى إلى أحاديث سيدتها التى تنبض

بتفاؤل صادق فيشرق فى فؤادها النور .

وجاء هند بن أبى زرارة يسعى إلى الدار يسأل أمه عن حال أبى القاسم الرجل الذى شب فى كنفه فلم يجد منه إلا كل خير وحب ، فلم يسمع منها كلمة واحدة تنم عن الخوف بل كانت فى نبراتها رنة فرح كأنها قد جاءها زوجها بالبشرى و لم يأت خائفا يترقب .

وراح أبو القاسم يتأهب للعودة إلى الغار ليقطع كل علائقه بالدنيا ويداوم على ذكر الله ليصفو قلبه وتشرق عليه أنوار المعرفة وقد شدت زوجه العظيمة أزره بوقوفها إلى جواره وإيمانها العميق به ، فراح يغادر الدار بخطى ثابتة وقد تعلقت به العيون المشفقة والقلوب المحبة .

وعادت زينب إلى دار زوجها العاص بن الربيع وجعلت تفص على ابن الخالة بعض ما دار من حديث فى بيت أبيها حول ذلك النور الذى رآه أبو القاسم والصوت الذى سمعه وهو يتعبد فى الغار . وبلغ هالة بنت خويلد حديث ما جرى فى حراء فأشفقت على أختها وأقبلت على زينب تستوضحها الأمر فتزداد حيرة على حيرة ، فما رأت تعليلا لذلك النور الذى أضاء الغار فى الظلام ، ولا لذلك الصوت الذى ينادى محمدا من المجهول ، وقد كانت تعرف خلق أبى القاسم جيدا فهو يمقت الكهانة والكهان ، ولولا ذلك لأقنعت نفسها بأن تلك البشائر إن هى إلا إرهاصات بكهانته .

وحدثت رقية زوجها عتبة بن أبى لهب بما ألم بأبيها ، وأظهرت إعجابها بأمها ورباطة جأشها وإيمانها الذى لم يتزعزع بأن الله يريد لأبى القاسم أمرا وأن سيكون له شأن عظيم ، وراحت تقص عليه كيف أتى عتيق إلى الدار وأخذ بيد أبيها إلى ورقة بن نوفل ، وكيف طلب ورقة من أبيها أن يثبت ولا

يفزع حتى يكشف سر النور والصوت الآتى من وراء الحجب .

وجلست أم كلثوم أمام زوجها معتب بن أبى لهب شاردة اللب قد ظهر فى وجهها خوف وقلق ، وراحت تسأل زوجها من أين جاءت لخديجة كل هذه الطمأنينة التى بدت فى حركاتها وسكناتها ، وتؤكد له أنه لولا تفاؤل أمها واستبشارها لانهارت ونزل بقلبها حزن ثقيل . وأظهرت إعجابها بسيدة نساء قريش التى أضفت على البيت السكينة والهدوء بل جعلت الأمل يتدسس فى أفئدة أهله .

وكانت خديجة تغدو وتروح فى الدار فى قلق فقد كانت تترقب أمرا جليلا أمرا داعبها سنين طويلة ، فلما دنت من تحقيق أحلامها انتابها خوف شديد من المجهول ، ولكنها راحت تقاوم ذلك الخوف وتحاول أن ترد نفسها إلى طبعها الهادئ لتستطيع أن تقف إلى جوار أبى القاسم ، فهو فى حاجة إلى مزيد من عطفها وتأييدها .

وبعثت خديجة رسلها إلى حراء ليحملوا له زاده وليطمئن قلبها الواجف عليه ، فلما عادوا إليها يقولون : لم نجد أبا القاسم فى الغار . انتتد وجيب قلبها واستبد بها خوفها فلم تستطع صبرا ، فبعثت رسلها إلى دار أبى طالب ودار العباس ودار حمزة ودار أبى لهب ودور أعمامه كلهم ودور أخواله من بنى زهرة ليبحثوا عنه ، فلما عادوا إليها وقالوا لها لم نجده أحست أنها تريد أن تنهار وأن الفزع قد زلزل كيانها .

وجاءت زينب ورقية وأم كلثوم يسعين إلى دار الطاهرة والخوف يلفهن والقلق يمور فى صدورهن والحيرة تطل من العيون . فلما رأين أمهن هرعن إليها يلتمسن عندها السكينة ولكن خديجة صاحبة القلب المؤمن

الكبير كانت ترتجف من الرأس إلى القدم خشية على الرجل الحبيب الذى عاشت معه أسعد أيام حياتها .

وجاء أبو القاسم وفى عينيه فزع ترتجف بوادره مما فعل به الملك وما قال له ، وهو الذى كان يعد لهذه اللحظة الرهيبة منذ استقبلته على يديها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف لما وضعته آمنة فى دار عبد الله ، وراح يقص على خديجة كيف ضمه الملك وكيف أرسله وهو يقول له : اقرأ . حتى إذا ما انتهى أبو القاسم من حديثه وقالت له زوجه : أبشر يا بن عم فإنى أرجو أن تكون نبى هذه الأمة . لم تحتمل التريث بل أسرعت بارتداء ثيابها وخرجت إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة وقصت عليه كل ما سمعت من أبى القاسم ، فلما قال لها ورقة : إنه الناموس الذى جاء موسى انجفلت إلى دارها تكاد يغشى عليها من الفرح ، فقد تحققت كل أمانيها وأحلامها وأصبح محمد نبى هذه الأمة .

وشهدت خديجة وبناتها أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد انعكس الإيمان العميق على الوجوه المستبشرة . وقالت بنات محمد فى فرح وهن ينصرفن إلى دورهن إنهن سيتحدثن إلى أزواجهن بالنبأ العظيم ، ولكن محمدا ﷺ طلب منهن أن يكتمن هذا الأمر حتى يأمره الله بإعلانه .

وعند الغروب وقف محمد عليه السلام يصلى وخلفه خديجة ، وبينا هما مستغرقان فى صلاتهما دخل على بن أبى طالب وظل يرقبهما فى عجب ، حتى إذا ما أتما صلاتهما تقدم على من ابن عمه وقال :

ـــ ما هذا ؟

فأقبل محمد ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ على الصبى الذى تربى فى

كنفه والذى طالما حدثه حديث الروح وقال :

ـــ دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى .

فراح على يرمق ابن عمه فى دهش ثم قال :

ـــ هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب .

وكره أبو القاسم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له :

ـــ يا على إذا لم تسلم فاكتم هذا .

وانصرف على ومحمد ﷺ مطمئن إلى أن الفتى لن يفشى سره فهو ربيبه تلقى عنه مكارم الأخلاق ، وما كان لمن شب فى حجر النبى أن يخونه أو يفشى سرا طلب منه أن يخفيه .

ودخل على لينام وهو يفكر فيما رأى وفيما سمع من الرجل الذى أحبه بكل جارحة من جوارحه والذى اتخذه أسوة حسنة ، إنه يدعوه إلى دين اصطفاه الله لنفسه وبعث به أنبياءه فهو يدعوه إلى الخير ، وإن كان قد دعاه إلى الكفر باللات والعزى فقد سبق أن غرس ابن عمه الحبيب فى نفسه كراهية الأصنام جميعا فلم يسجد للات والعزى ولا لصنم من الأصنام التى تكدست فى الكعبة ووضعت من حولها . وراح يزن كل كلمة من الكلمات التى قالها لابن عمه لما عرض عليه الإسلام ، إنه قال له إنه لن يقضى أمرا حتى يحدث أبا طالب ، وإذا بأفكار أكبر من سنه تغمر رأسه فقد أراد الله له الرشد فأنار بصيرته وجعله يسأل نفسه : آلله استشار أبا طالب لما أراد أن يخلقه ؟! فما دام الله لم يحدث أباه يوم أن أرادت مشيئته

أن يهبه الحياة فلماذا يؤجل هو اعتناقه عقيدة خيرة تدعو إلى إله واحد لا شريك له إلى أن يحدث أباه ؟

وأحس الفتى الصغير نسائم حرية صادقة تهب على وجدانه ، وراح يتذكر كل ما رآه من الأمين من صدق ومروءة ونخوة وإغاثة للملهوف وصلة الرحم وخلق كريم فإذا بهامس يهمس فى أغواره : إن لم يكن أبو القاسم نبى هذه الأمة فمن يكون ؟

وإذا برحمة من الله تطوف به فبات يتحرق شوقا على طلوع النهار ليعلن إسلامه .

وأشرقت شمس يوم الثلاثاء اليوم التالى لنزول الوحى على محمد ﷺ فى حراء ، وتأهب محمد وخديجة للصلاة وإذا بباب يفتح ويخرج منه على ويندفع إلى أبى القاسم وهو يقول فى انفعال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وضم محمد ﷺ عليا إلى صدره فى حب عميق ، وراحت خديجة ترنو إليهما وقد ترقرقت فى عينيها الدموع .

وتوضأ على ووقف خلف رسول الله ، ووقفت خديجة خلف على وراحوا يصلون ركعتين لله سرا . وقد أحست خديجة أن الدار تفيض بالأنوار وأنه عما قريب ستغمر رسالة السماء المشارق والمغارب ، وسيتحقق حلمها الذى رأته منذ أكثر من خمسة عشر عاما .

وجاء زيد بن حارثة فاستقبله أبو القاسم باشّا ثم راح يعرض عليه الإسلام ، فأطرق زيد برهة وإذا بكل حياته مع الرجل الرحيم الذى تبناه تمر فى مخيلته كلمح البصر ، ورن فى ضميره صوت محمد ﷺ فى ذلك

اليوم الذى جاء فيه أبوه وعمه لفدائه : أنا من قد علمت وقد رأيت صَحبتى لك فاخترنى أو اخترهما ، وإذا به يقول : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا . أنت منى مكان الأب والعم .

اختاره على أبيه وأمه وأهله ، فضله على أسرته وقبيلته ووطنه ، وهو يعرض عليه الآن أن يكفر بالأصنام وأن يقر بألوهية الله وحده لا شريك له ، وإنها لدعوة تطمئن إليها الفطرة ، وإنه لعلى خلق عظيم ، وهو أهل لأن يكون لله رسولا . وأحس زيد إشراقا فى ضميره وانشراحا فى صدره فأعلن عن رضى واغتباط إسلامه .

وجلست أم أيمن إلى محمد وخديجة تصغى إليهما وهما يحدثانها حديث الدعوة الجديدة التى تنفى الألوهية عن كل الآلهة ثم تثبتها فى قوة لله وحده لا شريك له ، ورأت أم أيمن أنها دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ، دعوة يقبلها العقل وتبتهج بها الروح وتشرق لها النفس ويطمئن الفؤاد ، فدخلت فى الدين الجديد وهى مستبشرة بما أتاها .

وعند الغروب قام محمد ومن خلفه على وزيد ومن خلفهم خديجة وأم أيمن يصلون لله ، وباتت دار خديجة هذه الليلة وهى أول بيت من المسلمين .

## ١٥

كانت خديجة قد قطعت كل العلائق بالتجارة وزينة الحياة الدنيا بعد أن رفع محمد ﷺ الحجاب عن قلبها وطهر كل السبل لوصول الحقيقة إلى فؤادها وجعلها تتذوق لذة الإنفاق حبا فى رضوان الله ، وكانت تعيش على أمل أن تتحقق أحلامها وبشارات الكهان والأحبار والرهبان ويصبح أبو القاسم النبى المنتظر . فلما نزل الوحى على زوجها الحبيب فى غار حراء وتأكدت من صدق نبوءته وأن ما جاءه هو الناموس الأكبر الذى جاء الأنبياء من قبله وأنه قد علمه الوضوء والصلاة لرب العالمين ، كاد يغشى عليها من الفرح ولكنها أحست بفطرتها السليمة أن نزول الوحى هى بداية الجهاد والشدة ، وأكد صدق إحساساتها قول ورقة للنبى ﷺ : ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه .

إنها دعوة وإن أبا القاسم خير من ينهض بها ، وإنها جهاد وإنه لخير المجاهدين ، وإنها لشدة وهو خير الصابرين على الشدائد ، وإنها لقتال فى سبيل الله وهو فارسها ، فهو يجيد ركوب الخيل والضرب بالسيف وتسديد الرماية وإنه يدرب ابن عمه الفتى على بن أبى طالب ليشب فارس قريش وخير صناديدها .

كان إيمانها به وبقدرته ليس له حدود ، وكانت تراه كفئا للرسالة وأعبائها وإلا لما اصطفاه ربه لرسالته ، وكانت ترى نفسها المتفرحة فى الله

المتفتحة لعطايا الله الهائمة فى ملكوت الله المتأهبة لتحمل كل الشدائد فى سبيل الله حسنة من حسناته ، فهى أول مريدة فى مدرسة النور ومكارم الأخلاق .

وأسلمت وجهها لله وعرفت لذة مناجاته وطول النظر إليه ، ولكنها كانت متلهفة على أن يستعلن أمر الأمين ليغمر النور أفئدة قومها وليهديهم ربهم الصراط المستقيم ، فقلبها الكبير كان عامرا بحبهم بل بحب البشر أجمعين .

وأطلقت لخيالها العنان وراحت تفكر فى بيوت شرف قريش العشرة ، وكان بنو أسد رهطها أول من فكرت فيهم ، فورقة بن نوفل قس قريش وأكثرهم علما بالأديان قال لأبى القاسم : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة . وهى تحسب أن مثل هذا القول من شيخ بنى أسد سيجعل الأسديين يهرعون إلى الدخول فى دين الله أفواجا ، وطاف بذهنها ابن أخيها حكيم بن حزام ، إنه سيد من سادات دار الندوة وله مكانة مرموقة بين أشراف قريش ، فلو اعتنق حكيم بن حزام الدين الجديد لشجع ذلك كثيرا من قومه على الدخول فى الإسلام . ولكن هل يفعل حكيم ؟

وفكرت فى الزبير بن العوام ، إنه فتى جلد فى الثانية والعشرين من عمره مات أبوه العوام بن خويلد من عشرين سنة فى حرب الفجار ، وقد حزنت عليه حزنا شديدا وغمرت ابنه بحنانها فكان يأتى لزيارتها ويجلس إلى زوجها طويلا يلقى إليه سمعه وهو مبهور بحديثه الشجى الذى لا يرتفع إليه أحاديث حكماء العرب ، وهو وإن كان ابن أخيها فهو فى ذات الوقت ابن عمته صفية ، وهو راجح العقل حر التفكير ، وهى على ثقة من أنه

سيرحب بالدين الجديد بل سيكون من خيرة جنوده ، فهو لا يزال فى مقتبل العمر لم تفسده المطامع الدنيوية و لم تجمد نفسه على التعصب الأعمى للآلهة .

وفكرت فى أختها هالة وفى ابن أختها العاص بن الربيع زوج العزيزة زينب ، فخفق قلبها حبا وعطفا وخوفا ، فهى ترجو صادقة أن يشرح الله قلبيهما للإيمان بالدعوة الجديدة لأنها تحب لهما الخير والسعادة والهداية ، بيد أنها تخشى أن تأخذهما العزة بالإثم فتصبح حياة ابنتها المؤمنة التى شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أليمة لقلبها الغض الذى تفتح لحياة مشرقة جديدة على قومها .

واشتد وجيب قلبها واستولى عليها خوف شديد لما احتلت العزيزتان رقية وأم كلثوم صفحة رأسها ، إنها تهللت بالفرح لما شهدت العزيزتان بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، ولكنها لما فكرت فى مآلها فى دار أبى لهب بعد أن كفرتا بآلهة قريش استشعرت كأن يدا قوية تعتصر قلبها عصرا ، فعتبة ومعتب ألعوبتان فى يد أمهما أم جميل ، وهى قاسية القلب عنيفة فى عداوتها قُد فؤادها من صخر ، وأبو لهب رجل أطلق لشهواته العنان يمضى وقته فى الشراب والمقامرة والتنابذ بالألقاب . فهو يمجد الآباء والأجداد ولا يطيق من تسول له نفسه أن يمس معتقداتهم بسوء ، فلطالما سخر من الذين يفكرون فى نبذ آلهة آبائهم ليعتنقوا اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو غيرها من الأديان .

ولف خديجة وجوم فمستقبل بناتها قد بات يتأرجح ، فإن استعلن أمر محمد ﷺ و لم يدخل أزواجهن فى الدين الجديد فستغلق فى وجوههن

أبواب الأزواج وسيعدن إليها كسيرات الفؤاد . ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وماذا يستطيع أبو القاسم أن يفعل غير أن يستمر فيما يأمره الله به بعد أن اصطفاه ، إنها الرسالة وإن أعباءها ثقيلة لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرجال .

وهمست خديجة فى إيمان : « فلتأت مشيئة الله بما يشاء » . وراحت تعجم أعواد بنى هاشم فأبو طالب يحب محمدا حبه لولده أو أشد ، وهو سيد بنى هاشم وزعيمهم وإن كان يقاسى قلة فى المال ، وهو راجح العقل وقد اعتاد أن تكون كلمته هى العليا . أفيرضى بعد أن ذهبت السنون وبلغ من العمر عتيا أن يكون تابعا لابن أخيه وإن كان رسول رب العالمين ؟ وأبت عقلية خديجة التى تمرست فى التجارة وفى الحساب وسبر أغوار الرجال أن تخدع نفسها وتصدق أن أبا طالب سيفرح بالدين الجديد وسيدخل فيه راضى النفس . وأحست كدرا فهى تقدر أبا طالب وترى أن وقوفه إلى جوار الأمين كسب للدعوة الجديدة ما بعده كسب ، وتمنت صادقة لو أن الأيام تكذب حدسها ويحتضن شيخ الهاشميين رسالة السماء ، حتى يشرق النور على العالمين .

وورد على ذهنها عمه العباس بن عبد المطلب ، إنه مشغول عن الآلهة بتجارته وبأمواله الممدودة التى يقرضها بالربا ، وهو سعيد بأن صارت إليه السقاية والرفادة ، وهو يسقى الحجيج ويطعم فقراءهم ليقال إنه جواد ولشرف الدنيا وللأحاديث والذكر ، وهو طيب القلب معدنه نفيس ، فلو أنه طرح كبرياءه للبى داعى ابن أخيه . أما زوجه أم الفضل فهى الطيبة والطهارة والخلق الكريم ، وقد دارت بينهما أحاديث عن

الأمين فكانت أم الفضل تشرق بالفرح كلما قالت لها : إنها لترجو أن يكون أبو القاسم نبى هذه الأمة . وها هو ذا أبو القاسم قد صار نبيا فلو أنها بعثت إليها بأن أحلامها قد صدقت وأن الله قد أرسل محمدا عليه السلام رسولا لآمنت به وصدقته ولهرعت إليه والدموع تترقرق فى مقلتيها .

واحتل ذهنها حمزة بن عبد المطلب وقد تنكب قوسه وركب فرسه ، إنه أخوه فى الرضاعة رفيق طفولته وشريكه فى حزنه على عبد المطلب وصديق الشباب وإن اتخذ كل منهما سبيلا ، فقد آثر محمد العزلة وانغمس حمزة فى مجتمع قومه ومع ذلك كان الود بينهما متصلا ، وكان الفارس معجبا بابن أخيه الأمين الذى اشتهر بخصاله الحميدة ، وإن خديجة لتطمع فى أن تقوده فروسيته إلى الطريق القويم . إلى الإيمان بوحدانية الله ورسالة ابن أخيه .

وخطر على فكرها أبو سفيان بن الحارث ابن عم الأمين الذى يشبهه والذى كان يلازمه على الدوام ، وذكَّرها الحارث بشباب الهاشميين طالب وعقيل وجعفر فألفت نفسها تتهلل بالأمل ، فقد رأت فيهم شباب الدعوة الذين سيتحمسون للدين الجديد ، وامتدت أحلامها إلى عمته عاتكة التى ربطت الأسباب بين بنى هاشم وبنى مخزوم بزواجها بأبى أمية بن المغيرة . إنها تحب ابن أخيها حبا جما وهى التى جاءت إليها أيام كانت تستأجر الرجال للخروج فى تجارتها وعرضت عليها أن تستأجرابن أخيها محمد بن عبد الله ، فلو أنها آمنت برسالة محمد لتبعها ولداها عبد الله وزهير ومن يدرى فقد يتفشى الإسلام فى بنى مخزوم بفضلها .

وطاف بها خاطر : لو أن الوليد بن المغيرة اعتنق الدين الجديد لتبع بنو

مخزوم سيدهم ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا . أوَ يعقل أن يتنازل الوليد عن مكانته وأن يطعن كبرياءه بيده ويسلس قياده ليتيم قريش !

وأبو سفيان بن حرب ما يكون موقفه من الدعوة ؟ إنه سيضع أصابعه فى أذنيه ولن يستجيب لداعى السماء ما دام ابن عبد الله سينتزع الزعامة من الأمويين للهاشميين . إنه لا يستطيع أن يرى إلا أنها منافسة بين الهاشميين والأمويين ولن يقر أبو سفيان لأحد غيره فى قريش كلها بالسيادة .

وعتبة بن ربيعة سيد عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام ( أبو جهل ) ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، والأرقم بن أبى الأرقم . والمطعم بن عدى ، وعقبة بن أبى معيط ، والحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب زوج خالته ، وابنه النضر ، ماذا يكون موقفهم منه ؟! وأحست خديجة قشعريرة تدب فيها من الرأس إلى القدم إشفاقا على زوجها ، فالطريق محفوف بالصعاب والأهوال . وقبل أن تستسلم لمخاوفها لاحت لعين ذاتها الحقيقة ناصعة ، إنه ليس وحده ، إنه مع الله ، ومن كان مع الله كان الله معه .

وجاءت جارية حكيم بن حزام لزيارتها فأقبلت عليها متفتحة النفس وراحت تقص عليها بعض ما كان فى غار حراء وتخبرها أن الله قد اصطفى محمدا ﷺ لرسالته ، وما كادت خديجة تتم حديثها حتى أسرعت الجارية إلى مولاها ، ودخلت على حكيم وعنده أبو بكر فقالت له :

ـــ إن عمتك خديجة تزعم فى هذا اليوم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى .

وخفق قلب أبى بكر ، إنه كان يكثر غشيانه فى منزله وكان يحاوره

فكان يعجب بأصالة أفكاره ويرى أنها فيض من الله ، وقد سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه فكان يترقب فى لهفة أن يسمع من محمد ما يكون بعد أن آب إلى حراء عقب أن طلب منه ورقة أن يثبت إذا ما سمع الصوت الذى يناديه ورأى النور الذى يغشى الغار ، ولكنه لم يعلم أن صديقه قد قفل عائدا من تحنثه يحمل رسالة السماء .

و لم يستطع أبو بكر صبرا فاستأذن فى الانصراف وانطلق إلى دار خديجة وقد تذكر رؤياه التى رآها ، فإنه رأى القمر ينزل إلى مكة فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه فى حجره ، وإنه ليحس الساعة أن رؤياه صادقة وأنه فى طريقه لتحقيقها .

لم تكن بأبى بكر غطرسة وما كانت له زعامة مهددة بالزوال وما كان من المؤمنين بالأصنام ، بل إنه كرهها منذ أن قال لإلهه إنى جائع فأطعمنى وظل إلهه غارقا فى بلهه وسكونه ، وما كان ذهنه مغلقا وما كان صاحب هوى ولا حليف الشهوات ، فهو يريد جوهر الحقيقة ، وإنه ليرى فى صديقه الأمل الذى يخفق فى قلوب طلاب الإصلاح ، فما إن سمع مولاة حكيم تقول إن خديجة تزعم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى حتى صدق أن محمدا رسول الله حتى قبل أن يلقاه .

ووقف أبو بكر على باب خديجة يطرقه فى انفعال ، ومرت لحظات ثم انفرج الباب عن جارية قادته إلى حيث ينتظر ، ثم ذهبت إلى حيث كان أبو القاسم وأهل بيته وأنبأته بقدوم عتيق بن أبى قحافة .

وذهب محمد — عليه السلام — للقاء صديقه ، وقامت خديجة وقد تحركت عواطفها لتسمع ما يكون بين الصديقين وكانت على ثقة من أن

ابن أبى قحافة سيستجيب لدعوة الحبيب ، ودخل أبو القاسم على صديقه مشرق الوجه فقام إليه أبو بكر وقال فى انفعال :

ـــ يا أبا القاسم ! ما الذى بلغنى عنك ؟

فقال النبى ﷺ فى هدوء :

ـــ وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟

ـــ بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله .

ـــ نعم يا أبا بكر . إن ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلنى إلى الناس جميعا .

ودق قلب خديجة فى صدرها وأرهفت سمعها ، و لم يطل انتظارها فقد سمعت أبا بكر يقول فى صوت ينم عن الصدق والإيمان بما يقول :

ـــ والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مَد يدك فإنى مبايعك .

وغمر خديجة فرح فياض ، فما تردد أبو بكر ولا أبى عليه ولا أرجعه فى الكلام ، بل قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فاندفعت خديجة إليه مستبشرة وعليها خمار أحمر ، فقالت :

ـــ الحمد لله الذى هداك يا بن أبى قحافة .

وانصرف أبو بكر وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله ﷺ بإسلامه .

## ١٦

جاء الليل فعاد سعد بن أبى وقاص إلى الدار ، فكان أول ما فعله أن ذهب إلى أمه يغمرها بحنانه . ومد الطعام فجلس إلى جوارها يطعمها أطيبه ، ينافسه أخوه عامر فى البر بها والعطف عليها . كانت أسرة هانئة سعيدة ترفرف عليها السكينة وتطوف بها آمال متواضعة ، فما كانت أمانى الأم لتمتد إلى أكثر من أن يوفق سعد فى صناعة برى النبل وأن ينجح عامر فى تجارته .

وحان وقت النوم فنهضت الأم إلى الصنم الموجود فى البيت لتؤدى له صلاتها وهى توصى ولديها بالصلاة للآلهة شكرا اتقاء لشرهم فى الدنيا وجلبا للرزق وإطالة العمر على الأرض ، وكانت أمهما مؤمنة بآلهتها متعصبة غاية التعصب لتقاليد قومها يضيق صدرها بأية بادرة تسىء إلى دينها أو تخدش قدسيته ولو من بعيد .

ونهض سعد وهم بأن يتمسح بالصنم ولكنه وجد تثاقلا فى نفسه ، إنه سمع من أبى القاسم كلاما بذر الشك فى عين ذاته فى قدرة آلهته على القدرة ، إنها أحجار صماء نحتها الناس ثم عبدوا ما ينحتون غرورا . وقد سمع من أبى بكر وهو من الحنفاء الذين أنكروا دين قريش وعبدوا الله وحده تسفيها لمعتقدات قومه استراح له عقله ، فقد كان فى التاسعة عشرة من عمره يتلفت باحثا عن الحقيقة ، ولم تكن نفسه قد تحجر فيها ما لقن من

عقائد وما اكتسب منها من طول انغماسه فى مجتمعه .

كان يستشعر كلما جلس إلى أبى القاسم أنه بين يدى رجل فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى قلبه فجرت الحكمة على لسانه . وكان يتمنى فى أغواره لو أنه يستطيع أن يقبس من نوره قبسا ينير بالحكمة وجدانه ، فقد كان يطمع فى أن تتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور .

إنه يحس إحساسا صادقا بعظمة الأمين ، فما من مجلس كان فيه أبو القاسم إلا وقد تضاءل الرجال إلى جواره ، فشخصيته آسرة إن صمت ، وإن تكلم استولى بفصاحته على القلوب وجذب إليه النفوس لتسعد بالهيام فى دنياه الصافية الرقراقة الخفاقة بالحقيقة واليقين .

وألقى سعد نظرة ازدراء على الصنم ثم أولاه ظهره وسار إلى فراشه يحس راحة فى ضميره وطمأنينة فى فؤاده ، واندس فيه وأسلم جنبه للرقاد وسرعان ما خطفه النوم فراح فى سبات عميق .

ورأى نفسه فى ظلام دامس وهو يحاول الخروج منه كلما خرج من ظلام دخل فى ظلام ، فانبهرت أنفاسه وهو يضرب فى الظلمات ، واستولى عليه فزع وهلع واضطراب ، وبينا هو فى ضيقه وتبرمه إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجير الظلام ، فتفرس فى القمر فى استبشار فرأى أبا بكر وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة يطلون من القمر ويشيرون إليه أن يلحق بهم ، فقال لهم :

ـــ متى انتهيتم إلى ها هنا ؟

فقالوا له :

ـــ الساعة .

وهب من نومه يحس كأنما حلمه قد حفر فى قلبه ، وتولته دهشة لاجتماع أبى بكر وعلى وزيد فى مكان واحد وأين ؟ فى القمر ، إنها رفعة .. إنها إشراق لطيف .. إنها دعوة لأن يرتفع مثلهم .. لو دعاه أحدهم إلى خير ليتبعنه .

وفر الليل هاربا أمام النهار فغادر سعد فراشه وذهب إلى حيث كانت أمه ليلقى عليها تحية الصباح فإذا بأخيه عامر قد سبقه إليها وراح يسبغ عليها عطفه ، فأقبل عليهما مشرق الوجه يبذل لأمه كل نفسه لعلها ترضى .

وخرج سعد إلى عمله وجلس يبرى النبل لفرسان قريش الخارجين للقنص ، فأقبل نوفل بن العدوية أسد قريش ، وخالد بن الوليد فارس بنى مخزوم ، وحمزة بن عبد المطلب وشباب مكة المولع بالصيد ليبروا سهامهم ، ودار بينهم حديث شائق حول صيد الغزلان وصيد الحسان وسعد غائب عنهم بالتفكير فى الرؤيا التى رآها .

وخرج أبو بكر من داره وقد عزم على أن يدعو إلى الدين الذى اعتنقه من يثق فيهم من شباب قريش وكان على ثقة فى أنهم سيستجيبون لدعوته ، فهو معظم فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من أعف الناس محبب فى قومه حسن المجالسة من أعلم الناس بتعبير الرؤيا وأعلم الناس بأنساب العرب وما فيها من خير وشر ، ولكنه ما كان يعد مساويهم ومن ثم كان محببا فيهم . بخلاف عقيل بن أبى طالب فإنه كان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساويهم .

كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم يستعينون به فيما يأتيهم ، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد ، ولعله كنى بأبى بكر لابتكاره

الخصال الحميدة ، فكان المتطلعون إلى مستقبل أفضل لمدينتهم المقدسة يهرعون إليه بعد أبى القاسم ليجدوا عنده النور الذى ينير لهم السبيل .

وجاء أبو بكر إلى سعد فألفاه فردا بعد أن انصرف فرسان قريش للهو ، فقال له :

ـــ جئتك يا سعد فى أمر ذى بال . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ومقدار صدقه وأمانته ، فأنت خاله وهو منكم .

فقال سعد فى حماس :

ـــ إن محمدا غير متهم . فهو يؤدى الأمانة ويصل الرحم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الدهر .

ـــ قد نزل على محمد وحى من السماء أخبره أنه نبى هذه الأمة ، وأمره أن يدعو إلى عبادة الله وحده .

ـــ أيكفر باللات والعزى ؟

ـــ نعم ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك لنفسها شيئا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

ـــ ومن تبعه على دينه هذا ؟

ـــ أنا وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

وتذكر سعد رؤياه فقال فى انفعال :

ـــ وأين رسول الله الآن ؟

ـــ فى شعب أجياد يعبد الله مستخفيا .

كان النبى ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على مستخفيا من قومه فيصليان فيها ، فبينا هما فى صلاتهما إذ عثر عليهما

أبو طالب فوقف ينظر فى دهش ، حتى إذا ما أتما صلاتهما قال لابنه :

ـــ ما هذا الذى أنت عليه ؟

فقال على :

ـــ يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه .

فالتفت أبو طالب إلى أبى القاسم وقال :

ـــ يا بن أخى ما هذا الذى أراك تدين به ؟

فقال محمد ﷺ وهو يطمع فى إسلام عمه الذى يحبه من كل قلبه .

ـــ هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعاننى عليه .

كان أبو طالب يرى أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا فقال :

ـــ إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه .

ثم التفت إلى ابنه على و لم ينهره بل قال :

ـــ أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

وانصرف أبو طالب وجاء أبو بكر والفتى الدحداح سعد بن أبى وقاص وكان فى التاسعة عشرة من عمره سليم القلب خالص النية ، وما إن وقعت عيناه على محمد ﷺ حتى استشعر رهبة وإجلالا ، وراح النبى ﷺ يعرض عليه الإسلام ثم قرأ : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . فأخذ سعد بعذوبة القرآن وفتن برقته وانتشى بحلاوته وكان لجرسه وقع عظيم فى نفسه ، فقال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا ، وما مالت الشمس للغروب حتى وقف يصلى لله فدخلت عليه أمه فألفته قد خر ساجدا ، فرمقته فى عجب فإذا به يصلى صلاة لم تألفها فقالت :

ـــ سعد ! سعد ! ماذا تفعل ؟ ولمن تسجد ؟

وأتم صلاته فقال لها :

ـــ أسجد لله رب العالمين . إنى أدعوك يا أماه إلى الله وحده لا شريك له وإلى الكفر باللات والعزى وشهادة أن محمدا عبده ورسوله .

فقالت أمه فى فزع :

ـــ سعد .

ـــ إنه دين حسن يدعو إلى التراحم والتواد والتقوى وصلة الرحم وبر الوالدين .

ـــ إنى لا أفارق دين آبائى أبدا . ثب إلى رشدك يا سعد .

ـــ استمعى إلى يا أماه عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

ـــ ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟

ـــ نعم .

ـــ والله لا أكلت طعاما ولا شربت شرابا حتى تكفر بما جاء به محمد وتمس إسافا ونائلة .

ـــ لا . لا تفعلى يا أمت .

ـــ لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى .

ـــ إنى لا أدع دينى .

وجاء أوان تناول الطعام فدعا سعد وعامر أمهما إلى العشاء فأبت ، فتركها سعد وظل عامر يحاول أن يثنيها عن عزمها دون جدوى ، وانقضى يوم وأم سعد على عهدها لا تأكل ولا تشرب . ثم مر اليوم الثانى وهى لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد خمدت ، فجاء إليها سعد وقال :

ـــ تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ما تركت دين هذا النبى ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى .

وراح أهل الدار يفتحون فاها ثم يلقون فيه الطعام والشراب ، فلما فتحت عينيها التفتت إلى عامر وقالت لسعد تعيره :

ـــ هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

وخرج سعد إلى شعب أجياد يصلى مع النبى وعلى وأبى بكر وزيد مستخفين ، فلما صلى الركعتين اللتين يصلونهما بالعشى عاد إلى الدار فوجد أمه على الباب تصيح :

ـــ ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟

فقال لها سعد وهو حزين :

ـــ لا أعود إليك ولا أقرب منزلك .

فرجع من حيث جاء وأمه تتميز غيظا فقد أحست الهزيمة ، وما كان يدور بخلدها أن يعصى سعد لها أمرا أو يخيب رجاء وهو البار بها المتفانى فى رضاها . ترى ما كنه هذا الدين الذى استولى على لبه ؟ سحره محمد ورب الكعبة .

وراحت ترقب عودته نادما مستغفرا ولكن الأيام تمر وسعد لا يئوب

إليها فتشعر أنها تكاد تختنق اختناقا ، وتأبى كرامتها أن ترضخ لذلك العقوق فتصطبر على مضض ثم ترسل إليه :

ـــ عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار .

فرجع إلى منزله فمرة تلقاء بالبشر ومرة تلقاه بالشر وتعيره بأخيه عامر وتقول :

ـــ هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

و لم يخطر لأمه حمدونة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس على قلب أن سيأتى يوم قريب يشرق فيه نور الإسلام فى فؤاد ابنها عامر ، وأنه سيلقى منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى ، وأنها ستعطى آلهتها عهدا ألا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته .

## ١٧

كانت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى لتختفى خلف جبال مكة ، وكان الناس فى الحرم يطوفون بالبيت أو يجلسون فى المسجد وقد انتشرت بطون قريش فى نواديهم ، ودخل سادات القوم دار الندوة تلك الدار التى أصبحت لحكيم بن حزام . وكانت غاية آمال شباب قريش أن يكون لهم فى ذات يوم رأى فى تلك الدار التى تبسط سلطانها على أهل الحرم .

وكانت السادة والعبيد من كل دين ومن كل مذهب يمارسون شعائرهم فى حرية فى جنبات أول بيت وضع للناس ، فقد كان حرما آمنا تجبى إليه طيبات كل شيء ، وكان أهله متسامحين مع كل الملل والنحل ما دام أصحاب المذاهب لا يتعرضون لآلهتهم بسوء ، ولا يهاجمون دينهم ، ولا ينتقدون سوء توزيع الأموال بينهم ، ولا يحاولون أن يحدوا من حرياتهم الجنسية أو يكبحوا جماح شهواتهم الضارية .

وكان فى الطائفين بالبيت والجالسين حوله من أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة ، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنها شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا .

وكان منهم حنفاء يعتقدون بوحدانية الله ويحاولون أن يهتدوا إلى ملة أبيهم إبراهيم ، وما كانوا على هدى واحد بل كان كل منهم يعبد الله على قدر جهده واجتهاده وقد ضربوا جميعا فى البلاد بحثا عن دين إبراهيم ، فمنهم من تنصر أو تهود ومنهم من بقى على دينه ينتظر مبعث النور .

ووضع نصارى العرب تمثالا لمريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل اللات والعزى ومناة وهبل وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أصنام قبائل العرب ، فما وجد العرب فى ذلك غرابة فما يضيرهم أن يضاف تمثال إلى الثلاثمائة وثلاثين تمثالا التى كانت فى جوف الكعبة ومن حولها .

ومنهم من كان على دين المجوس ، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنوار اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل منهم من كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله .

كانت الحرية الدينية مكفولة للجميع لا عن سماحة خلق بل لأن أهل مكة كانوا يعيشون على الاتجار بالدين . وماذا يهمهم من تعبد المتعبدين ما دامت حريتهم الجنسية مكفولة ، وما دامت أموالهم تربو مع الأيام ، وما دامت الخمور تجلب من الشام . وما دام الناس يمتدحون الأيسار الذين يمضون سواد الليل فى الميسر والتنابذ بالألقاب ، وما دام الأشراف والسادة يجمعون الذهب والفضة من فتياتهم اللاتى يجلسن للبغاء .

* * *

ومن خباء قريب من حيث جلس العباس بن عبد المطلب خرج محمد ﷺ فنظر إلى الشمس . فلما رآها مالت ذهب إلى بئر زمزم فتوضأ فأسبغ

الوضوء ثم خرج غلام مراهق فتوضأ ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فتوضأت . ثم قام محمد ﷺ يصلى وقام الغلام إلى جنبه وقامت المرأة خلفهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ، ثم خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة .

وكان عند العباس عفيف الكندى وكان امرأ تاجرا قدم للحج وأتى العباس ليبتاع منه بعض التجارة وكان العباس له صديقا ، فراح يرمق المصلين فى دهش ثم التفت إلى العباس وقال :

ـــ ويحك يا عباس ، وما هذا الدين ؟

فقال العباس فى بساطة :

ـــ هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخى يزعم أن الله بعثه رسولا ، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب وهذه امرأته خديجة .

ترى أكان العباس يعلم أن زوجه أم الفضل قد أعلنت إسلامها فى ذلك اليوم وأنها شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ؟ وأن أسماء بنت أبى بكر قد دخلت معها فى دين الله ؟

وكان عثمان بن عفان فى طريقه إلى داره ، وما إن دخل حتى ألفى خالته سعدى بنت كريز عند أمه أروى فراحت تحدثه عن محمد ﷺ وعن الوحى الذى نزل عليه من السماء وعن صفات الأمين ، وتؤكد له أنه نبى هذه الأمة الذى بشرت به الأنبياء ، وجعلت تحثه على اتباعه وهى تزين له الإسلام .

كانت أم أروى وسعدى بنتى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وكانت وعبد الله توأمين . فكان محمد ﷺ ابن خالهما وكانتا تعرفان عنه أنه أجود

الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا . وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، قد قطع كل علائقه بالدنيا ليتصل بربه ويشرق نور المعارف فى صدره . وقد توجت عزلته وتعبده لله وحده بأن اصطفاه ربه وبعثه رسولا للعالمين .

وكان لعثمان مجلس من أبى بكر وكانا كلما تحاورا تحدثا عن الدين . ويا طالما أسهب أبو بكر فى حديثه عن محمد وتحنثه ومحبته للعزلة وزهده فى الدنيا وهو القادر على أن يكون من أعظم تجار مكة ومن أثريائها ومن أشرف رجالها ، فكان يهتدى إلى أن أبا القاسم ما هجر اللذات وفرض على نفسه حياته الخشنة التى يحياها إلا لشىء أسمى من اللهو والتجارة .

وكان عثمان يتهلل بالفرح الروحى الفياض كلما جلس إلى أبى القاسم وأعاره سمعه ، فقد كان يحس كأنما حديث ابن خال أمه يرفعه من الأرض إلى السماوات ويجعله يحلق فى ملكوت صيغ من مكارم الأخلاق .

ونهض عثمان وانطلق قاصدا أبا بكر والأفكار تتزاحم فى رأسه . إنه تمنى ذات يوم أن يتزوج رقية بنت محمد وكانت من أجمل خلق الله . وما كانت رغبته فيها لذلك الجمال فحسب بل ليربط الأسباب بينه وبين ذلك الرجل الكريم الذى تتسلل محبته إلى قلوب الناس ، وليتيسر له أن ينهل من ينبوع الحكمة الذى تفجر فى قلب محمد من طول سهره مع الله . ولكن بينما كان فى فناء الكعبة قيل : أنكح محمد عتبة بن أبى لهب بنته رقية . فدخلته حسرة ألا يكون سبق إليها ، فإن كان زواج رقية من عتبة قد أبعده عن الرجل الذى تعلق به فؤاده فهذه الدعوة الفاضلة التى يدعو إليها ستجعله يدنو منه دنوا يشرح صدره ، وييسر له قبس النور من نبع النور .

وجاء أبا بكر فأصابه وحده ، وأطرق متفكرا فسأله أبو بكر عن تفكره فقال :

ـــ انصرفت إلى منزلى فوجدت خالتى سعدى بنت كريز فأخبرتنى أن الله أرسل محمدا .

فراح أبو بكر يرغبه فى الإسلام ويحثه أن يكون من أوائل الملبين لداعى الله وعثمان يصغى فى اهتمام ويستشعر كأن نورا يضىء فى جوانحه وبردا ينزل على قلبه وسلاما يسربل روحه ، وبينا النور ينداح فى ظلام نفسه مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبا ، فقام أبو بكر وهمس فى أذن صاحبه ، فقعد ﷺ ثم أقبل على عثمان فقال :

ـــ أجب الله تعالى إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى جميع خلقه .

فما تمالك عثمان حين سمعه أن قال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وذاع فى بنى أمية أن عثمان قد دخل فى الدين الجديد . وما إن صك ذلك النبأ أذنى عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية والد مروان بن الحكم حتى ثار ، وأغضبه أن يتنكر ابن أخيه لآلهة آبائه فذهب إليه يحاول أن يثنيه عن ذلك الدين ، ولكن عثمان وقف فى وجه عمه كالطود الأشم ، فلما فل سلاح الإقناع بالحسنى أخذه عمه فأوثقه كتافا وقال :

ـــ ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أصلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه .

فقال عثمان فى صلابة :

ـــ والله لا أدعه ولا أفارقه .

واستمر الحكم فى تعذيب عثمان وعثمان لا يهن ولا يضعف ولا يتزعزع إيمانه بل يظل صلبا فى الحق ، فخشى عمه أن يفتن الضعفاء به فأطلقه وهو كاره حائر لا يدرى أأحسن ساعة أن أوثقه أم أحسن ساعة أن أطلقه أم أساء فى الحالتين !

وكانت الأفكار التى تدور حول محمد قد ملأت رأس الزبير بن العوام ، إنه ألقى سمعه إلى عمته خديجة فحدثته عن أبى القاسم أحاديث عجيبة استولت على لبه وأسرت فؤاده ، وأعار أمه صفية أذنيه فإذا بها تروى عن ابن أخيها روايات تتسرب إلى عين ذاته وترفع الحجب عن وجه الحقيقة فيستشعر كأن شيئا غامضا مثيرا يجذبه إلى صاحب الشخصية الفذة الآسرة الحبيبة .

إن على بن أبى طالب قد أسلم وهو الفتى الذى لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره أعلن إيمانه بالدين الجديد بعد أن استبان لعين بصيرته جمال الدعوة ، وهو قد بلغ الثانية والعشرين فما الذى يقعده عن الإقرار بوحدانية الله ورسالة الرجل الذى اصطفاه ربه لهداية البشر ؟!

وانبعثت من أغواره هتافات تهيب به أن آمن بالله ورسوله ما دام نور اليقين قد أنار قلبك ، فلم يجد ملاذا له إلا أن يأتى أبا بكر الرجل الذى يفزع إليه فى كل ما يشغله ، فانطلق إليه يستشيره وإن وضحت لعينيه معالم الطريق .

ودخل على أبى بكر وكان يألفه وراح يحدثه بما يساوره من أفكار ، فإذا بالرجل الحكيم يرغبه فى الإسلام ثم يقوده إلى حيث كان محمد ﷺ لينطق بالشهادتين اللتين اطمأن بهما قلبه .

وسمع عمه ، الذى ثار على صفية يوم أن رآها تضرب ابن أخيه وهو صغير واتهمها بأنها لا تحبه،أن ابن العوام كفر بآلهة قومه واتبع من جعل الآلهة إلها واحدا ، فانقشع من قلبه كل عطف على الفتى اليتيم وذهب إليه والغضب يطل من عينيه وأمره فى حدة أن يقلع عن تلك الصبوة التى عبثت بعقله لكأنما الإيمان يفر مرعوبا أمام سورة الغضب . وزاد فى حنقه أن الزبير لم يرتعد فرقا من خشيته بل قال فى جنان ثابت :

ـــ لن أفارق دينى .

وشد عمه وثاقه وجاء بدخان يعذبه به فملأ عينيه وأسال منهما الدموع وراح يخز مقلتيه وخزا ما أقساه ، وتسرب إلى رئتيه فراح يسعل وقد ضاق نفسه حتى خيل إليه أنه الموت وأن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، ولكن حلاوة الإيمان كانت تطغى على كل الآلام فكان يثبت على دينه فى إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد .

إنه عانى شدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالجبال لا تزعزعها عواصف عذاب قد يؤلم الجسد ولكن يعجز عن أن يصل إلى الروح ، وهى شدة هيأت أحسن الفرص لنفوذ سر الله إليه فقد طهرت ضميره من الأدران كما تطهر النار المعادن من الخبث .

لم تكن معتقدات قومه كافية لإشباع طموحه بعد أن اعتاد أن يجلس إلى ابن خاله الأمين ويسمع حديثه عن ملكوت السماء ، فلطالما ذهب لزيارة عمته خديجة وما أكثر ما شارك على بن أبى طالب وزيد بن محمد متعة الإصغاء إلى الرجل الذى تخرج الحكمة من بين شفتيه ، فلما بلغه أن الله بعث أبا القاسم رسولا وألقى سمعه إلى الدين الجديد وجد فى دعوةابن خاله

روحا جديدا يؤذن بتجديد شباب البشرية وإعادة الكرامة إلى الإنسانية ، فوطد النفس على أن يكون له ظهيرا يؤيده وينصره ويقف معه فى وجه كل طغيان حتى يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

* * *

والتقى أبو بكر ببلال مولى بنى جمح فقال له :

ـــ ظهر نبى هذه الأمة .

فقال بلال فى اهتمام :

ـــ من ؟

ـــ محمد بن عبد الله .

فأحس بلال طمأنينة تنزل بقلبه وراحة تنساب إلى ضميره وتستقر فى وجدانه ، فهو يعرف لمحمد ﷺ صدقه فلم يجرب عليه كذبا قط . وعرف له أمانته التى ذاعت فى الآفاق وحسن خلقه وطهارة قلبه الكبير الذى يتسع لكل الناس ، فهو ليس فظا غليظ القلب كسيده أمية بن خلف ، ولا يتصف بالصلف والغرور الذى يملأ جوانح أبى الحكم بن هشام ، وهو كريم جواد لم يعرف عنه البخل الذى كان صفة لأبى سفيان ، ليس بصخاب فى الأسواق ، لا فرق عنده بين سيد وعبد ولا أبيض ولا أسود ، فهو خليق بالرسالة وهو كفء لحمل الأمانة .

وشرد بلال يفكر فى خصال أبى القاسم وهو مبهور بشخصيته الفذة التى ليس لها مثال فى الناس ، ولا غرو فهو ربيب السماء صنعه الله على عينه واصطفاه وجعل فيه نورا يجذب إليه البصائر قبل الأبصار ، وراح أبو بكر يبسط لبلال دعوة محمد ـــ ﷺ ـــ فيقول :

— إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار إلى عبادة خالق السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، إن دعوته لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل . وتخلى الطريق بين العبد وربه يدخل إليه بغير واسطة ويتقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى التراحم والتوادد والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والقطيعة . إن دعوته لهناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وانطلق أبو بكر وبلال إلى دار خديجة ودخلا على محمد ﷺ ، فإذا ببلال يرى بعين ضميره كأنما الكون كله يفيض بأنوار سماوية . وراح أبو القاسم يعرض على بلال الإسلام فإذا بخشوع ينزل بفؤاده ، وإذا بلسانه يتحرك بوحى من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان : شهادة بنفى الربوبية عن الآلهة جميعا وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبد الله ورسوله .

وتلألأ فى نفس بلال الإحساس بالخير الأسمى ، وشاع فيها الرضا بعد أن محق الشرك من فؤاده وأنصف ذاته ، بل البشر جميعا ، لأن الشرك ظلم عظيم . وغادر بلال دار النبوة وهو مرفوع الرأس يستشعر الراحة والرضا ، وكأنه قد خلق خلقا جديدا . فقد دخل على محمد — ﷺ — وهو عبد لبنى جمح وخرج من عنده وهو عبد لله وحده ليس عليه سلطان إلا ربه ، وهام فى الوجود مستبشرا عظيما فى نفسه قد هان فى عينيه كل سلطان أرضى بعد أن ربط الأسباب بينه وبين السماء .

وأصبح بلال سابق الحبشة إلى الإسلام من أتباع محمد — ﷺ —

يختلف إليه حينما تغفل أعين الناس ، فى قائلة النهار حينا وتحت ستار الظلام أحيانا ، يرشف الحكمة من نبع الحكمة ويتأدب من مؤدب البشرية وينهل الشجاعة من معين الشجاعة ويتزود بالتقوى خير الزاد ، ويتعلم أن الناس سواسية ، وأن لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بصالح الأعمال .

وسرى الهمس فى مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبى يدعو سرا إلى توحيد إله واحد . وبلغ الهمس دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فإذا بسعيد يتذكر وصية أبيه الذى هجر دين آبائه وآمن بالله وحده ووقف على باب الكعبة يعلن على الملأ أن ليس فى القوم من هو على دين إبراهيم غيره . إنه كان ينتظر ظهور النبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء ليصدقه ويؤمن به ، فلما وافته منيته أوصى ابنه سعيدا أن يسارع بتصديقه إذا ما ظهر ، وها هو ذا النبى الذى كان أبوه يرقب مبعثه قد بعث ، فذهب سعيد إلى زوجه فاطمة بنت الخطاب وقال لها فى فرح :

ـــ ظهر نبى هذه الأمة ، إنه محمد بن عبد الله وإنه لخليق بالرسالة .

ودار حوار بين الزوجين اللذين كانا ينتظران ذلك النبى الذى أوصاهما باتباعه زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يذهب للقاء ربه ، وانتهى الحوار بأن ارتدت فاطمة ثياب الخروج وانطلقت مع زوجها إلى دار الطاهرة وسيدة نساء قريش .

وجلس سعيد وفاطمة إلى رسول الله ﷺ وقد أعاره السمع ، فكان حديثه الشجى ينفذ إلى القلب ويشرح الصدر ويجعل نور الإيمان يشرق فى الأفئدة ويرقق النفوس ويرفعها من العالم المادى المحدود إلى عالم الروح .

الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وشهد سعيد شهادة الحق وهو مستبشر بأنه قد صار على نور من ربه وقد اَحتلت صورة أبيه زيد بن عمرو بن نفيل رأسه وهو على راحلته يقول: اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكن لا أعلم. إلهى إله إبراهيم ودينى دين إبراهيم ، ثم يسجد على ظهر راحلته .

وكان سعيد متفرحا بالهدى الذى أنزل السكينة على قلبه بعد أن عرف أحب الوجوه إلى الله يعبده به ، وكانت فاطمة تستشعر نشوة روحية فياضة وهى تنطق بالشهادتين ، وودت لو أن آل الخطاب جميعا كانوا معها ليحظوا بسعادة الدنيا وهناءة الأبد .

وعاد من اليمن عبد عمرو بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة وكان ينزل على عسكلان بن عواكن الحميرى كلما سافر إليها ، ولما كانت اليهودية والنصرانية منتشرتين فى اليمن فقد كان السمر يدور حول الدين والأنبياء وحول البشارات التى يفيض بها الكتاب المقدس عن ظهور نبى من الأمم . وكان ابن عوف يسمع من الأحبار والرهبان أنه سيبعث من البيت الحرام نبى مثل موسى ، فلما دخل على أبى بكر وسمع منه أن الله قد أوحى إلى عبده محمد بن عبد الله ﷺ ما أوحى وأنه قد بعثه رسولا إلى الناس كافة ، تذكر عمرو بن عوف كل ما سمعه عن النبى المنتظر وملأه إحساس عميق برسالة محمد كأنما قد أوحى إليه الإيمان به ووجده أهلا للرسالة ، فهو ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقام مع أبى بكر وانطلقا إلى دار خديجة .

كان محمد ـــ ﷺ ـــ جالسا وإلى جواره على بن أبى طالب ، فلما دخل عليه أبو بكر وعبد عمرو بن عوف الزهرى رحب بهما ثم راح يعرض على عبد عمرو الإسلام . حتى إذا ما شرح الله قلبه للإيمان وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، قال له النبى عليه السلام :

ـــ أنت عبد الرحمن .

ولاح البشر فى وجه ابن عوف . إنه دخل دار خديجة وهو عبد عمرو ، فإذا بالرسول يسميه عبد الرحمن ، وابتسم أبو بكر راضيا فهو أول من سماه رسول الله ـــ ﷺ ـــ من المسلمين . سماه عبد الله بعد أن كان اسمه عبد الكعبة .

كان عبد الرحمن تاجرا من أنجح تجار قريش طارت شهرته فى الأفق لعفته وصدقه وأمانته ، وكان راضيا بما نال من ثقة من وثقوا به وكلفوه بالاتجار فى تجارتهم ، فلما سمع رسول الله ﷺ يقول له :

ـــ أنت أمين فى أهل الأرض أمين فى أهل السماء .. أنت صادق صالح بار .

أحس كأنما قد ذهب عنه كل حزن ونزلت على قلبه سكينة وتهلل بفرح فياض ونشوة روحية تفوق لذات الأرض جميعا .

* * *

وعاد طلحة بن عبيد الله من سوق بصرى ، فلما دخل مكة قال :

ـــ هل من حدث ؟

ـــ نعم ، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله وقد تبعه ابن أبى قحافة .

كان طلحة من بنى تيم وكان أبو بكر سيد بنى تيم ولما يبلغ بعد الأربعين

وإن كان أبو قحافة لا يزال يمشى فى الأرض ، فأبو بكر رجل يألفه الناس محبب سهل أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وهو تاجر ذو خلق ومعروف . وكان طلحة يألفه لعلمه وحسن مجالسته وكان حديثه عن صديقه محمد بن عبد الله ينبض بالحماسة والإيمان ، فما إن سمع طلحة أن أبا القاسم يدعو إلى الله وأن أبا بكر قد تبعه حتى هرع إلى أبى بكر وألقى إليه سمعه فإذا بنور اليقين قد أشرق فى فؤاده ، فخرج أبو بكر وطلحة بن عبيد الله حتى دخلا على رسول الله ــ ﷺ ــ فابتسم لهما فتألقت أسنانه المفلجة البيضاء ، فاستشعر طلحة كأن الكون كله يبتسم ، وجلسا إليه وراح أبو بكر يتحدث فإذا برسول الله يصغى ملتفتا إليه بكل جسمه ، إنهما ما جاءا إلا ليعرض رسول الله ــ عليه السلام ــ على طلحة الإسلام ، فراح محمد صلوات الله عليه ــ يتحدث بلسان فصيح عن الدين الجديد تشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وينفذ حديثه الأخاذ إلى قلب طلحة لكأنما كان كلامه يكتب على لوح فؤاده بأحرف من نور ، وإذا بأنوار تشرق وتضىء ظلمات نفسه وإذا بلسانه يتحرك فى انفعال المأخوذ بالشخصية العظيمة التى بهرته بحكمتها :

ــ مد يدك أبايعك .

وشهد طلحة بن عبيد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وشهد بدين الإنسانية فى أمة العصبية ، وآمن بفجر تاريخ البشرية الجديد ، ووطن النفس على أن يكون ظهيرا للدعوة التى ستعيد للبشرية كرامتها وتخرجها من الظلمات إلى النور .

## ١٨

خرج محمد — ﷺ — إلى جبال مكة وهو حزين فقد انحبس عنه الوحى بعد أن نزل عليه : اقرأ باسم ربك ، وكان ذلك إيذانا بنزول ما يقرأه على الناس وتأكيدا بأن الوحى الذى يأتيه إنما هو وحى ربه . لقد ارتجفت بوادره من الخوف لما غطه جبريل يوم أن جاءه فى غار حراء ففر هاربا فى الأرض ، بيد أنه الآن فى شوق عظيم إلى الروح الأمين ليسمع منه ما يسكن ذلك القلق الذى استولى عليه .

وراح يغدو إلى جبل ثبير وهو يسأل نفسه : أكان ما رآه فى غار حراء حقيقة واقعة أم وهما من الأوهام ؟! أبعثه الله رسولا إلى الناس كافة أم هو يخدع نفسه ؟! إنه يريدها حقيقة ناصعة ترضيه ، فهو صادق مع نفسه قبل أن يكون صادقا مع الآخرين .

شق عليه أن فتر الوحى عنه وخشى أن يكون به جنون أو يكون كاهنا ، وفيما هو فى حزنه تبدى له جبريل على هيئة رجل قد ملأ الفضاء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن جأشه وقرت نفسه وعاد إلى دار خديجة يتعبد فى الغرفة التى أعدت لمناجاة ربه . ومرت أيام أخرى وهو يقابل الذين هداهم الله للإسلام و لم ينزل عليه الوحى بقرآن يقرأه على الناس فعاد إليه قلقه وشق

ذلك عليه فغدا إلى حراء وراح يفكر فى انحباس الوحى عنه . وعادت إليه فكرة أن يكون ما يدور بخلده وهما من الأوهام أو مسا من الجنون فلفه حزن ثقيل ، إنه يريد جوهر الحقيقة . يريدها ناصعة لا شية فيها . وفيما هو فى قلقه وأساه تبدى له جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء فقال :

ـــ يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن روعه واطمأن قلبه وعاد إلى مناجاة ربه وطول السهر معه يسأله أن يكشف له عن حقيقة أمره . واجتهد فى عبادته وفى سهره حتى أصابته وعكة فترك قيام الليل ليلتين . وعجبت جارة من جيرانه لذلك الانقطاع فجاءته فقالت :

ـــ يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين .

ولفه حزن ثقيل ، وزاد فى أساه وشق عليه أن أهل مكة قالوا : ودعه ربه وقلاه . وخشى أن يكون ذلك هو الحقيقة الموجعة لنفسه ، فغدا إلى جبال مكة وتمنى لو يرى جبريل على الهيئة التى خلقه الله عليها لا على هيئة رجل فى أفق السماء ، وفيما هو فى تفكره تبدى له جبريل على هيئة رجل يسبح فى الفضاء . فقال له محمد ـــ ﷺ :

ـــ وددت أنى رأيتك فى صورتك .

فرآه فى الأفق الأعلى من الأرض قد طلع من المشرق فسد الأفق إلى المغرب ، فخر النبى ـــ ﷺ ـــ مغشيا عليه ، فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه .

وأفاق من غشيته فانطلق إلى خديجة وقد أخذته رجفة ، وما إن وقعت عيناه على الطاهرة حتى قال :

ـــ دثرونى .. دثرونى .

فراحت خديجة تدثره حتى إذا ما سكن روعه صبت عليه الماء ، فجاءه الوحى :

﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾(١) .

وطابت نفس محمد ـــ عليه السلام ـــ فربه يأمره بإنذار قومه ، وحمى الوحى وتتابع ، فنزل عليه :

﴿ يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا * إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا * إن لك فى النهار سبحا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾(٢) .

ثم أوحى إليه :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٣) .

ثم أوحى إليه :

---

(١) المدثر ١ ـــ ٧ .
(٢) المزمل ١ ـــ ١٠ .
(٣) الضحى : الضحى ١ ـــ ٥ .

﴿ ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(١) .

وعرف محمد — عليه السلام — أن الله أوحى إليه قرآنه ليقرأه على الناس ، ونفى عنه فكرة الجنون التى طافت به ، ومدحه ربه بأنه على خلق عظيم فلم يعد فى شك من أمره ، ولكنه أشفق على نفسه من تكاليف الرسالة ، إنه سيقف فى وجه قومه يدعوهم إلى الله والله معه وإنها لدعوة ستغضب الناس الذين ألفوا حياتهم ووقر فى ضمائرهم عبادة ما كان آباؤهم يعبدون ولكن ماذا يهمه من أمر الناس ما دام ربه قد أمره بإنذارهم وهو وكيله وهو ناصره ؟ فوطن النفس على أن يدعو إلى رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو وأن يصبر على ما يقولون حتى تشرق أفئدتهم بالنور .

وراح يملى ما أنزل عليه على كتاب وحيه ، أبى بكر وعلى والزبير بن العوام وعثمان بن عفان . وراح المسلمون الأوائل يقرءون القرآن سرا على من يثقون فيهم من أصحابهم آملين فى أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فكان المكيون يسمعون آيات الله ويعجبون ببلاغتها ، فكانت صدور تنشرح للإيمان وكانت قلوب تقفل نوافذها فى وجه النور دون أن تثور ، وكان رجال يغضبون لجعل الآلهة إلها واحدا فيقومون بتعذيب من آمنوا منهم ليردوهم عن الحق المبين .

وبينا كان رسول الله — ﷺ — يقوم الليل ويرتل القرآن ترتيلا كان خالد ابن سعيد بن العاص فى سبات عميق ، فرأى فى نومه نارا متأججة يشيب من هولها الوليد ، ورأى نفسه على شفيرها وأن أباه يريد أن يلقيه فيها وأن محمد بن

---

(١) القلم ١ — ٤ .

عبد الله ـــ عليه السلام ـــ أخذ بحجزته يمنعه من الوقوع فيها ، فقام من نومه فزعا ترتعد فرائصه يحس كأن روحه تكاد أن تفلت من بين جنبيه ؛ وظل مرعوبا حتى إذا ما سكن روعه وانزاح الرعب عن عقله قال فى نفسه :

ـــ أحلف بالله أن هذه رؤيا حق .

وما أشرقت الشمس حتى انطلق إلى أبى بكر ليقص عليه ما رأى ويسمع منه تأويل رؤياه .

فلما جلس إليه وقص عليه حلمه الذى أفزعه قال له أبو بكر :

ـــ أريد بك خيرا . هذا رسول الله ـــ عليه السلام ـــ فاتبعه .

وذهبا إلى حيث كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال خالد :

ـــ يا محمد ما تدعو إليه ؟

ـــ أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .

فشرد خالد قليلا كأنما يتذكر شيئا ثم قال :

ـــ كنت ذات ليلة نائما فرأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر امرؤ كفه ، فبينا أنا كذلك إذ خرج نور من زمزم ثم علا فى السماء فأضاء فى البيت ثم أصاب مكة كلها ، ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى إنى لأنظر إلى البسر فى النخل ، فاستيقظت فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد فقال : يا أخى إن هذا الأمر يكون فى بنى عبد المطلب . ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم .

فقال رسول الله ﷺ :

— يا خالد أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله .

وأسلم خالد . وقرئ القرآن همسا فى نوادى بيوت أشراف مكة العشرة ، وعرف أقوام أن محمدا — ﷺ — قد عاب آلهتهم وسفه أحلام آبائهم فغضبوا وكان منهم سعيد بن العاص ، فلما بلغه أن ابنه قد صبأ عن دين آبائه واتبع الدين الجديد امتلأ غضبا ، وضايقه وهو السيد المطاع فى قريش أن يتبع ابنه محمدا الذى خالف قومه وجاءهم بما لا علم لهم به ، فأرسل فى طلبه فنهره وضربه بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه ثم قال :

— اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم ؟

فلم يأبه سعيد لغضب أبيه وهانت آلام جسده بعد أن عرف لذة الوصال برب المشرق والمغرب فقال :

— والله اتبعته على ما جاء به .

فغضب أبوه وقال :

— اذهب يا لكع حيث شئت . والله لأمنعنك القوت ..

— إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به .

— اخرج .. اخرج .

ثم التفت إلى بنيه وقال :

— لا يكلمه أحد منكم .

فانصرف خالد إلى رسول الله — ﷺ — يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه فى نواحى مكة وهو سعيد بالنور الذى يملأ جوانحه وبصحبة

رسول الله التى وجد فيها نعمة من الله لا تقرن بها نعمة أخرى ، فهو ينهل من نبع الحكمة ويقبس من مصدر النور .

وجلس كتاب الوحى يكتبون ما نزل على رسول الله ومحمد يتلو فى صوت يخشع له الكون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[1] .

وإذا بكل من فى الدار من أوائل المسلمين يقولون : آمين . وهم يستشعرون كأنما آيات الله قد رفعتهم إلى الملكوت .

ومر صهيب على دار رسول الله — ﷺ — وفى رأسه أفكار وفى صدره رغبة جامحة . إنه سمع قرآن محمد وقد سمع من قبل فى دار عبد الله بن جدعان شعر فحول الشعراء ، فرأى بذوقه المرهف أن قرآن محمد من نبع سماوى غير ذلك النبع الذى نهل منه الشعراء ، وما يدعو إليه يقبله العقل ويستريح إليه الفؤاد . إنه استفتى قلبه فزين له الإيمان برسالة الأمين . فجاء ليدخل على رسول الله . وفيما هو يتقدم ليدخل رأى عمار بن ياسر يحوم حول الدار ، إن عمارا خرج مع محمد من قبل فى تجارة خديجة وكان معه يوم أن بعثت خديجة إليه من يزين له التقدم لخطبتها وقد عرف عن كثب أمانته ومكارم أخلاقه ، فلما سمع بعض آى القرآن وبلغه أن محمدا يقول إنه رسول الله وجده أنه أهل للرسالة ، فجاء ليشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

---

(١) الفاتحة ١ — ٧ .

محمدا عبده ورسوله .

ودنا عمار من صهيب وقال :

ـــ أين تريد يا صهيب ؟

فقال صهيب فى ثبات :

ـــ أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه .

فقال عمار فى انشراح :

ـــ وأنا أريد ذلك .

فدخلا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما أنزل من القرآن فتشهدا ، واستأنسا بحديثه فظلا يسعدان بعلمه الفياض الذى أشرق فى قلبه من رحمة ربه حتى إذا أمسيا خرجا مستخفيين ، فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه :

ـــ أين كنت ؟

فقال فى ثقة وياسر وسمية ينظران إليه فى دهش وكأنه قد عاد إليهما رجلا آخر :

ـــ كنت عند محمد ـــ ﷺ ـــ ، وقد عرض على الإسلام فأسلمت .

ودار حوار طويل بين عمار وأبويه ياسر وسمية ، عمار يتلو آيات من القرآن فينشرح صدر سمية ويستشعر ياسر كأن نورا ينسكب فى وجدانه ويشرق فى فؤاده ، فيجادل ابنه فى ضعف ثم ينتهى الحوار الذى دار فى سكون الليل بين ابن بار مؤمن وأبوين يريدان وجه الحقيقة لا يخشيان زوال سلطان ولا ضياع أموال إذا أسلما . فتهلل وجه عمار الطيب المطيب بفرح واستبشار ورأى بعين بصيرته الأنوار تغمر الدار .

## ١٩

وقف عمرو بن عنبسة السلمى يعترض الركبان الخارجين من مكة بعد أن رغب عن آلهة قومه ورأى أنها آلهة باطلة . حجارة لا تضر ولا تنفع ، وبعد أن لقى رجلا من أهل الكتاب فسأله عن أفضل الدين فقال : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها وهو يأتى بأفضل الدين . فإذا سمعت به فاتبعه . فلم يكن له هم إلا مكة يسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقولون : لا ، فينصرف إلى أهله . وأهله من الطريق غير بعيد .

ولمح قافلة قادمة من مكة فاعترضها فسأل من فيها :

ـــ هل حدث فى مكة حدث ؟

فنظروا إليه فى دهش وقالوا :

ـــ لا .

فانقلب راجعا إلى أهله . ثم خرج إلى الطريق ذات يوم وقعد ينتظر الركبان الخارجين من مكة وإذا به يرى راكبا مقبلا فقام إليه فقال له :

ـــ من أين أنت ؟.

ـــ من مكة .

ـــ هل فيها من خبر ؟

ـــ نعم . رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها .

فقال عمرو فى فرح :

ـــ صاحبى الذى أريد .

فشد راحلته وجاء مكة ونزل منزله الذى كان ينزل فيه . فسأل عنه فوجده مستخفيا فانتظر فى الحرم . وما لبث أن جاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليطوف بالحرم وسادت قريش فى مجالسهم لا ينكرون مما يقول شيئا . فما عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وما ذكر بعد هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فكانوا يشيرون إليه ويقول فى سخرية :

ـــ إن غُلام بنى عبد المطلب ليكلّم من السماء .

وعرفه عمرو بن عنبسة فذهب إليه فقال :

ـــ من أنت ؟

ـــ أنا نبى الله .

ـــ وما نبى الله ؟

ـــ رسول الله .

ـــ وبم أرسلك ؟

ـــ بأن يُعبد الله وحده ولا يُشرك به شيء ، وتكسر الأوثان وتحقن الدماء وتوصل الأرحام .

وكان محمد ـــ عليه السلام ـــ وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح إيمانه ، وراح يقنع الرجل بالموعظة الحسنة لم يشهر فى وجهه سيفا ولم يرغمه على الكفر بدين آبائه . فلما اقتنع الرجل بمنطقه قال :

ـــ نعم ما أرسلت به . أشهد أنى آمنت بك وصدقتك . ابسط يدك أبايعك .

فبايعه على الإسلام ثم قال له :

ـــ أقيم معك يا رسول الله ؟

ـــ لا . ولكن الحق بقومك فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى .

وانطلق عمرو بن عنبسة السلمى إلى قومه وقد استراحت نفسه إلى الدين الذى كان ينتظر بزوغ نجمه مذ لقى ذلك الرجل من أهل الكتاب الذى قال له : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، وهو يأتى بأفضل الدين .

* * *

وكان أبو ذر الغفارى وأخوه أنيس جالسين أمام الدار فجاء رجل من مكة ونزل بهما وراح يقص أخبار أهل الحرم . وقال فيما قال إن رجلا خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فشغل أبو ذر بذلك النبأ حتى إنه لم يعد يلتفت إلى ما يقول المكى ، فلما انصرف التفت أبو ذر إلى أنيس وقال :

ـــ انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتنى بخبره .

وذهب أنيس وبقى أبو ذر يرقب عودة أخيه فى لهفة ، حتى إذا جاء هرع إليه وقال له :

ـــ ما عندك ؟

ـــ والله رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر يزعم أن الله أرسله ، ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق .

ـــ فما يقول الناس فيه ؟

ـــ يقولون : شاعر . كاهن . ساحر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

ـــ اكفنى حتى أذهب وأنظر .

ـــ نعم . وكن على حذر من أهل مكة .

فحمل أبو ذر جرابا وعصا ثم أقبل حتى أتى مكة فجعل لا يعرفه ويكره

أن يسأل عنه ، فمكث فى المسجد وطال مكثه . وجاء على بن أبى طالب ولم يتجاوز بعد العاشرة من عمره ليطوف بالبيت ، فألفى أبا ذر جالسا وقد سجا الليل فذهب نحوه وقال :

ـــ كأن الرجل غريب ؟

ـــ نعم .

ـــ تعال معى .

فانطلق على به إلى حيث ينزل الضيفان بدار خديجة فبات أبو ذر ليلته ، ولما أصبح الصباح خرج إلى الحرم يبحث عن النبى لا يسأل أحدا ولا يخبره أحد عنه بشىء . وانقضى النهار وجاء الليل وأقبل على ومر بأبى ذر فقال :

ـــ أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

ـــ لا .

ـــ فانطلق معى .

فانطلقا وبات أبو ذر ليلته ، ثم خرج إلى المسجد يبحث عن النبى وتصرم النهار وأرخى الليل سدوله ، وجاء على ومر بأبى ذر فقال :

ـــ تعال معى .

ـــ وسارا صامتين ثم قال على :

ـــ ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟

ـــ إن كتمت علىّ أخبرتك .

ـــ فإنى أفعل .

ـــ بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبى ، فأرسلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر فأردت أن ألقاه .

ـــ أما إنك قد رشدت . هذا وجهى إليه فاتبعنى ، ادخل حيث

أدخل ، فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى فامض أنت .

وانطلقا ودخل علىّ على النبى — ﷺ — وأبو ذر معه . فلما رأى النبى — ﷺ — استشعر استبشارا وقال :

— السلام عليكم .

وكانت أول تحية ألقيت فى الإسلام ، فقال النبى — صلوات الله عليه — :

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

— أنشدنى ما تقول .

— ما هو بشعر فأنشدك ، ولكنه قرآن كريم .

— اقرأ علىّ .

وراح النبى يقرأ على الرجل ما أنزل عليه من ربه وأبو ذر يصغى وهو مأخوذ ، ثم قال :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وقال له النبى :

— ممن أنت ؟

— من غفار .

فجعل النبى — ﷺ — يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا ، لما كان يعلم من غفار قبيلة السطو والنهب وقطع الطريق ، ثم قال :

— إن الله يهدى من يشاء ، يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتونى ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل .

— والذى بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم .

كان رسول الله — ﷺ — يدعو من يثق بهم إلى الإسلام سرا ، وكان المكيون ينظرون إليه وهو يصلّى فى الحرم وبعض أنصاره دون مبالاة ، فالحرية الدينية مكفولة فى بيت الله ما دام العابد لا يتعرض لديانة قريش بسوء ولا يجرح شعورهم ، وكان أقصى ما يفعلونه أن يسخروا من ذلك الذى يزعم أن الخبر يأتيه من السماء ويصفونه تارة بأنه شاعر وتارة أخرى بأنه كاهن أو ساحر . وكان بعض أصحاب الأمزجة الحادة يؤدبون من انسلخ من الصابئين عن دين الآباء ثم يفل سلاحهم أمام صمود المؤمنين . ها هو ذا أبو ذر يأبى أن ينسل إلى قومه راضيا بإيمانه الذى أشرق فى قلبه ، بل وطد العزم على أن يعلن إسلامه مدويا فى جنبات بيت الله ، فلما اجتمعت قريش بالمسجد نادى بأعلى صوته :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

كانوا فى لهوهم وعبثهم فما بال هذا الرجل قد جاء يعكر صفوهم ، فمال عليه أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خر مغشيا عليه . فأكب عليه العباس ثم قال لهم :

— ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم عليهم ! فخلوا عنه ، فجاء زمزم فغسل عنه الدم وقصد رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا بكر ، فقال له محمد — صلوات الله عليه وسلامه — :

— متى أنت هاهنا ؟

— كنت هاهنا منذ ثلاثة أيام .

— فمن كان يطعمك ؟

— ما كان لى طعام إلا ماء زمزم .

فقال أبو بكر :

— ايذن لى يا رسول الله فى طعامه الليلة .

وانبلج صبح اليوم التالى فخرج أبو ذر إلى المسجد فألفى قريش فى نواديهم ، فنظر إليهم فهانوا فى عينيه ، وأحس رغبة فى أن يعاود الجهر بإسلامه فصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ... يا معشر قريش .

فالتفت الناس إليه فصاح فيهم :

— أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فزمجر القوم وقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر مغشيا عليه ، وأقبل العباس يواسيه ثم أقبل على القوم فقال :

— ويلكم تقتلون رجلا من غفار وتُجُركم وممركم على غفار !.

ترى أكان العباس الذى أسلمت زوجه أم الفضل مشفقا على قومه حقا أم أم أن قلبه قد مال إلى دين ابن أخيه فراح يحميه ويحمى المؤمنين برسالته وإن التمس أعذارا تبدو فيها النصيحة لقومه !

وعاد إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — فجلس راضى النفس ثم استأذن فى العودة إلى قومه فقال له الرسول الكريم :

— إنى قد وجهت إلى أرض ذات نخل فلا أحسبها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك لعل الله عز وجل ينفعهم بك ويأجرك فيهم ؟

— نعم أفعل .

وخرج أبو ذر وأتى أنيسا فقال له أخوه :

— ما صنعت ؟

— قد أسلمت وصدقت .

— ما لى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت .

فأتيا أمهما فقالت لأبى ذر :

ـــ ما رأيت ؟

ـــ رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا أبدا ولا ماريا أحدا ، حتى سماه قومه بالأمين ، يدعو إلى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأسلمت وأسلم أخى أنيس .

فقالت أمهما :

ـــ ما لى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت .

وأتى أبو ذر قومه فألفاهم جالسين عند خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى سيدهم ، فراح يتحدث فى إيمان عن محمد ـــ ﷺ ـــ ويحبب أهله فى الإسلام ، حتى أسلم خفاف بن رحضة وتبع كثير من القوم سيدهم ، وطمع أبو ذر فى إسلام غفار كلها فالتفت إلى من أبوا أن يدخلوا فى دين الله وقال :

ـــ وأنتم . ما يمنعكم من الإسلام ؟

فقالوا :

ـــ إذا قدم رسول الله أسلمنا .

## ٢٠

فى عماية الصبح فتح باب دار خديجة فخرج منه رسول الله — ﷺ — وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة وهند بن أبى هالة بن سعيد بعد أن هجر أباه ولزم النبى ﷺ ، وانطلقوا فى شوارع مكة الضيقة المسقوفة حتى بلغوا الحرم فطافوا بالبيت سبعا ، ثم انسلوا إلى شعاب مكة ليلتقوا بالمسلمين ليصلوا لله بعيدا عن عيون الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام .

ومن دور بنى تيم خرج أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة وصهيب مولى عبد الله بن جدعان وطلحة بن عبد الله .

وخرج من دور بنى هاشم جعفر بن أبى طالب فى خطى ثابتة فأبو طالب يعلم بإسلامه بل هو الذى أمره أن يصلى مع ابن عمه ، فقد رأى النبى — ﷺ — وعليا يصليان وعلىّ على يمينه ، فقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فصلى عن يساره ، وكان جعفر فى حيرة من أمر أبيه فهو لم يثر لما عثر ذات يوم على النبى — عليه الصلاة الله وسلامه — وعلى ابنه علىّ وهما يصليان فى الشعب مستخفيين ، بل قال لابنه : إنه لم يدعُك إلا إلى خير فاتبعه ، فلمادا لم يتبع أبو طالب ابن أخيه ؟ أحقيقة إنه يخشى أن تقول نساء قريش إن شيخ بنى هاشم قد أسلم قياده إلى فتى من فتيان بنى هاشم أم لأنه يؤمن بأن الله أجل من أن يبعث رجلا رسولا ؟

ومن دور بنى أمية خرج عثمان بن عفان وهو على يقين من أن إسلامه قد

ثلم كرامة الأمويين ، فالمنافسة على السيادة كانت مشتعلة الأوار بين بنى هاشم وبنى أمية ، وقد كاد أبو سفيان أن يكون زعيم قريش بلا منازع . أفيقبل بنو أمية أن يكون من منافسيهم رسول يأتيه خبر السماء ؟ ترى ماذا يفعل أبو سفيان عندما يعود من رحلة اليمن ويعلم أن وحيا من السماء قد نزل على محمد بن عبد الله سليل البيت الهاشمى العتيد ؟

كان عثمان هاشميا من ناحية أمه أمويا من ناحية أبيه فكان موزع العواطف بين الحيين المتنازعين على زعامة قريش ، فلما أشرق قلبه بنور اليقين نسى عصبيته لقبيلته ، بل جعل دبر أذنه عصبيته لقوميته بعد أن علمه رسول الله — ﷺ — أن الناس سواسيه وأن لا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالتقوى ، فصارت غاية أمانيه أن يهدى الله قومه إلى الحق وأن تفيض رحمة ربه على العالمين .

وخرج من دور بنى أسد الزبير بن العوام وكان فى الثانية والعشرين من عمره وقد فرحت عمته خديجة بإسلامه ، إلا أن ذلك الفرح قد كدره عدم إسلام ابن أخيها حكيم بن حزام ، فهى تحب ابن حزام وتتمنى له الهداية وأن يكون من السابقين لتلبية نداء الله . ولكن ما كان ذلك ميسورا فحكيم قد أصبح صاحب دار الندوة اشتراها بماله ليكون له شرف امتلاك دار حكومة قومه ، وهو مسموع الكلمة فى الدار التى يشرئب بأعناقهم إليها الطامحون من رجال قريش ، وهو شريف معدود من أشراف قريش . أوَ يترك كل هذا المجد ليصبح تابعا من أتباع زوج عمته ؟! إن قلب حكيم مشغول بالدنيا متعلق بغرورها بينما كان الزبير لا يزال خلى الفؤاد لم يعم قلبه عن الحقيقة ، فلما بزغ نور الحق لم تعترض سبيله عوائق من المطامع والأهواء .

وخرج من دور بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأخوه عامر ، وقد كانت أمهما تعير سعدا بأخيه عامر وتقول : هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا . وقد جاء سعد ذات يوم والناس مجتمعون على أمه وعلى أخيه عامر فقال : ما شأن الناس ؟ فقالوا : هذه أمك قد أخذت أخاك عامرا وهى تعطى الله عهدا لا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته . فالتفت سعد إليها وقال : والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار .

كان عبد الرحمن يشق طريقه ليكون من أشهر تجار مكة ، وقد ذاعت أمانته فى الأمصار حتى إن البضائع كانت ترسل باسمه حيثما كان فى الأسواق ليبيعها ويأخذ نصيبه ثم يرد الأموال وأرباحها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة . وكان سعد فى التاسعة عشرة وكان عامر فى السادسة عشرة وكانا على الرغم من صغر سنهما يرغبان فى الحقيقة ، فلما اتضح لهما صدق دعوة محمد — ﷺ — أسرعا بالتصديق ، ولم يؤثر فيهما وهما البارات بأمهما صياحها ومحاولاتها لتعيدهما إلى الظلمات بعد أن عرفا طريق النور .

ومن دور بنى مخزوم التى كانت تطل على الحرم من فوق الصفا خرج الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى أخو أبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) فأمهما أسماء بنت مخربة التميمية . وكان عياش يعرف قسوة قلب أبى الحكم وأطماعه التى ليس لها حد ، فأموال بنى المغيرة ممدودة ورجال بنى مخزوم رجال الكر والفر والطعن والنزال ، ومن هذه صفاته لا بد أن يرنو إلى الصدارة وإلى منافسة بنى هاشم وبنى أمية . فإن كان الوليد بن المغيرة هو سيد بنى مخزوم فما أقصر أيامه فى

الأرض ، فإن ذهب فلا خليفة له غير أبى الحكم . كانت الدنيا تملأ قلبه وتستولى على تفكيره ، وكانت السيادة تتخايل له والزعامة هدف حياته فما كان يستطيع أن يتصور أن يقوم فى قريش من ينافسه فى أطماعه ، فما بالك إذا قامت دعوة تقوض كل قصور أحلامه وأمانيه ؟

كان عياش يرتجف فرقا من أخيه وكان يجل أبا الحكم ، فلما عرف الإيمان طريقه إلى قلبه هان فى عينيه كل سلطان إلا سلطان الله ، ولم يعد يخشى بنى المغيرة ولا بنى مخزوم بل ولا العالم بأسره ، فإن كان ينسل الآن ليصلى مع رسول الله — ﷺ — فما ذلك إلا استجابة لرغبة النبى الكريم ، فهو لا يريد أن تقف النبتة فى وجه العواصف قبل أن يشتد عودها .

وخرج أبو سلمة المخزومى مشرق النفس فأمه برة بنت عبد المطلب تبارك دعوة ابن أخيها ، فهو كالزبير بن العوام كلاهما ابن عمة صاحب الدعوة ، غير أن الزبير ابن أخى خديجة حاضنة الإسلام .

وخرج عمار بن ياسر وأبوه ياسر متسللين حتى لا يفجأهما أحد من بنى مخزوم ، فهما ليسا منهم بل حلفاء لهم . تزوج ياسر سمية وكانت جارية من جواريهم ، فلماء جاء عمار ثمرة ذلك الزواج شب فيهم وإن كانت عواطفه منذ نعومة أظفاره مع محمد بن عبد الله ، فقد بهرته مكارم أخلاقه وما آتاه الله من الحكمة ، فلما سمع أن الله قد بعث صديقه العظيم رسولا إلى الناس كافة هرع إليه مغتبطا ليعلن إسلامه ، فهو يراه خليقا لأن يكون رسول رب العالمين .

ومن دور بنى جمح خرج عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وحاطب بن الحارث وأخواه حطاب ومعمر وبلال بن رباح مولى أمية بن

خلف ، وانطلقوا فى هدوء لا يترقبون قد غمرتهم نشوة روحية أنستهم كل خطر ، وكانوا فرحين بما آتاهم الله يغذون السير لينعموا بلقاء رسول الله ﷺ ويسعدوا بالوقوف بين يدى رب العالمين .

وخرج عبد الله بن مسعود من دار عقبة بن أبى معيط ، إنه يخرج فى غنم لآل عقبة ، وذات يوم جاء رسول الله — ﷺ — ومعه أبو بكر إلى حيث كان عبد الله يرعى الغنم . إنه قصير طوله نحو ذراع ، خفيف اللحم رجلاه دقيقتان ، ما يراه أحد إلا ويبتسم لقصره ودقة رجليه ، إلا أن النبى ﷺ دنا منه وقال فى صوت رصين ليس فيه أثر من سخرية أو هزء :

— هل عندك لبن ؟

— نعم ، ولكن مؤتمن .

وكشف الصبى القصير عن ضمير حى ومعدن نفيس . فأقبل رسول الله عليه السلام يحادثه وابن مسعود يستشعر كأن نورا يصب فى فؤاده فتشرق نفسه بالنور . وما انتهت المقابلة إلا وكان ابن أم عبد — وكان يعرف بأمه — قد نطق الشهادتين بلسانه بعد أن أقر بهما فؤاده ، وقال : يا رسول الله علمنى . فمسح رأسه وقال : بارك الله فيك فأنت غلام معلم .

كان صدق إيمانه وحسن حظه ونعمة الله عليه ما حرك لسانه بالتماس العلم من ربيب السماء ، فإذا به يحس بعد أن مسح رسول الله — ﷺ — رأسه كأن كنوزا من الحكمة تفجرت فى قلبه ، وتعلق الفتى بالرسول الذى آمن به وصدقه فسار يمشى أمامه ومعه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام ، فعرف بصاحب سر رسول الله .

وخرج أبو عبيدة بن الجراح مشرق القلب يحمد الله على أن هداه إلى

الإسلام ، فمن حسن طالعه أنه كان يألف أبا بكر ، ومن رحمة الله عليه أن جعله ذا بصيرة تستطيع أن تغوص فى نفس أبى بكر لتكتشف الكنوز الزاخرة فيه بالصدق ورجاحة العقل وإرهاف الضمير ، فوقر فى وجدانه أن أبا بكر رجل عظيم لا تهفو نفسه إلا إلى العظمة والكرامة والطهر . فإن كان أبو بكر قد آمن بما جاء به محمد بن عبد الله فلا بد أن ما جاء به شىء عظيم ! فلما ألقى سمعه إلى الرسول — ﷺ — إذا ما رآه وما سمعه يفوق كل ما تصوره عقله . وإذا بغشاوة تنزاح عن قلبه ، وإذا به يمتلئ بأنوار اليقين .

وخرج من دور بنى عدى سعيد بن زيد وما كان يهاب من قومه غير عمر بن الخطاب ، فهو يعرف ما نال أباه زيد بن عمرو بن نفيل من اضطهاد الخطاب بن نفيل لما آمن بوحدانية الله وفكر فى أن يدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم . إن الخطاب كان يحرض عليه شباب مكة فكانوا يرمونه بالحجارة حتى اضطروه لأن يفر إلى الجبال ، وهو على ثقة بأن عمر بن الخطاب أشد تعصبا لآلهة قومه من أبيه ، فلو عرف عمر أن سعيدا ابن عمه قد أسلم وكفر بدين آبائه ، وأنه قد يسر لأخته فاطمة بنت الخطاب الدخول فى الدين الجديد ، فسيبطش عمر الجبار به وبزوجه ولن يرقق قلبه أنه ابن عمه وأنها أخته ، فهو لا يحفل بأية صلة إذا ما ثار للأرباب !

ومن دور عبد شمس خرج هاشم بن عتبة بن ربيعة . إنه ابن سيد عبد شمس ، بل ابن من تجله قريش كلها حتى إن أبا سفيان يراه أشرف الناس . أوَيرضى عتبة عن صبوة ابنه ؟ عتبة الذى كان يرشحه أمية بن أبى الصلت للرسالة لما عرف من الرهبان أن الرسالة المنتظرة فى قريش وليست فى ثقيف ؟ إنه كان يراه الرسول الموعود لولا أنه أزرت به السن فقد فات عتبة

الأربعين ، وقد قيل لأمية إن النبى المنتظر يبعث على رأس الأربعين . كيف فات هاشم أنه باتباعه لمحمد يسىء إلى أبيه وإلى أبى سفيان زوج أخته هند ؟! إن نور الدعوة قد بهره وبساطتها أرضت فطرته السليمة ، إنها الحق وإنها من ربه ، وما كان ليحفل بأبيه ولا بأبى سفيان بعد أن استبان له العدل وأن الشرك ظلم شديد .

بذر محمد — ﷺ — بذرة الإيمان فى كل بيت من بيوت شرف قريش العشرة بعون من ربه الذى جعل قلوب الأحرار والعبيد تفتح لدينه القويم . وستتغلغل البذور فى المجتمع المكى ، وستروى بدماء الشهداء لتستوى أعوادا قوية ، وتتفرع لتظلل الإنسانية من هجير الوثنية .

وأحس بعض المكيين بالمتسللين فخرجوا فى أثرهم يرصدونهم ، حتى إذا ما اجتمع المسلمون برسول الله — ﷺ — وألقوا إليه أسماعهم وتفتحت له قلوبهم ، عادوا مهرولين إلى دور بنى مخزوم وأفضوا إلى أبى جهل بما رأوا ، فجمع أبو جهل بعض رجاله ثم انطلق إلى حيث كان محمد — ﷺ — وصحبه .

كان المسلمون قد اصطفوا خلف نبيهم الأمين وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، قد قطعوا كل علاقتهم بالدنيا وراحوا ينعمون بمناجاة بهم الواحد القهار . فلما أقبل أبو جهل ورفاقه أخذهم ذلك الخشوع الذى ران على المصلين الواقفين بين يدى إلٰه لا يرونه ، فاختفوا خلف صخرة ينظرون وقد صوبت عيونهم إلى سليل بنى هاشم وقد أم أصحابه فاستشعر أبو جهل حسدا أسدل حجبا على بصره وبصيرته فلم ير عياش بن أبى ربيعة بين المصلين ، ولم ير الأنوار التى غمرت المكان وفاضت من القلوب . كل ما رآه أن على بعد خطوات منه جماعة شقت عصا الطاعة وعبدت إلٰها

غير ما يعبدون ، فوجب عليه تأديبهم . ولكنه رأى أن ما معه من رجال أهون من أن يقضوا على هؤلاء الصابئين ، فوقف ينظر وهو يتميز غيظا يكاد صدره أن يتمزق .

وقضيت الصلاة وانطلق سعد بن أبى وقاص وبعض أصحابه لقضاء حاجة فمروا بأبى جهل وصحبه ، فراح أبو جهل يسخر بمحمد وبما جاء به وبمن اتبعه ، فمشى الرجال إلى الرجال وتشابكوا بالأيدى وراحوا يتقارعون بالألسن . المسلمون يمجدون ربهم فى إيمانهم والمشركون يذكرون هبل واللات والعزى ومناة وما يخطر على قلوبهم من أسماء آلهتهم ، فكانت قلوب المسلمين على قلب رجل واحد تتجه إلى رب واحد . بينما كانت قلوب المشركين شتى تتعصب لآلهة متعددة لا ترتفع إلى أكثر من حجارة منحوتة و أخشاب محفورة أو منقورة أو معادن مصنوعة ، ما أيسر أن تكبها على وجوهها يد إنسان .

وامتدت الأيدى إلى الحجارة فما كانت السيوف فى مناطق الرجال ، وتناول سعد بن أبى وقاص عظم بعير فضرب به وجه رجل من رجال أبى جهل فشجه ، فسالت أول دماء بين المسلمين والمشركين . كانت دماء يسيرة ولكنها كانت إيذانا بإراقة دماء تروى أرض العرب فى الصراع المرير الذى سينشب بين الحق والباطل ، حتى يتم نور الله .

واشتد الصراع ضراوة وأصيب سعد بن أبى وقاص بشج أذنه وارتفعت أصوات المتلاحمين ، فخشى أبو جهل أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيخفوا لنجدة إخوانهم ، فانسل والذين معه من المكان وقد غرس فى قلب طاغية قريش كراهية محمد وأصحابه ، فإن كان ينقلب إلى أهله اليوم والغيظ ينهش صدره فسيعمل على استئصال البدعة التى جاءهم

بها ابن أبى كبشة ، فلم ينس القرشيون أن أبا كبشة جد محمد — ﷺ — من ناحية أمه قد ابتدع لقومه عبادة الشعرى دون سائر الكواكب والنجوم !

وعاد سعد ورفاقه إلى النبى — ﷺ — والدم يسيل من أذنه ، فضمد محمد — عليه السلام — له جرحه وقال له :

— فى سبيل الله دمك يا سعد .

## ٢١

خرجت قريش كلها لاستقبال القافلة العائدة من اليمن ، وانطلق أشراف قريش لاستقبال أبى سفيان فهو سيد بنى أمية ، وقد تزوج فى بيوت شرف قريش والقبائل فربط الأسباب بينه وبين ذوى الجاه فى العشائر ، فأمه صفية بنت حزن بن بجير من بنى عامر بن صعصعة ، فكان بنو عامر أخواله ، وهى عمة ميمونة وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب ، وقد تزوج صفية بنت أبى العاص بن أمية فكان له منها حنظلة ورملة وأميمة ، وتزوج زينب بنت نوفل فكان له منها يزيد بن أبى سفيان ، وتزوج عاملة بنت أبى أزيهر من الأزد فكان له منها عنبسة ثم محمد ، وتزوج صفية بنت أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان له منها عمرو وهند وصخرة ، وتزوج لبانة بنت أبى العاص بن أمية ، وتزوج هند بنت عتبة بّن ربيعة بن عبد شمس فكان له منها معاوية وجويرية وأم الحكم وعتبة .

جمع أبو سفيان بين الأختين وتزوج فى قريش وفى اليمن لأن هذه كانت سنة قومه ، وليجمع حوله الأصهار والأنسباء من ذوى الجاه والسلطان ممن يهبون لنصرته إذا تحزبت الأمور واحتاج إلى أعوان .

وتعانق الرجال الذين أشرقت وجوههم بالبشر للقاء بعد طول الغياب ، وهرع الأبناء ليلقوا بأنفسهم فى أحضان الآباء . ونظرت النسوة من الشرفات والقلوب تخفق بين الجوانح والدموع تترقرق فى

العيون والعواطف الجياشه تمور فى الصدور ، فاليوم من أيام مكة النابضة بأحر المشاعر وأغنى الإحساسات .

وانطلق أبو سفيان إلى داره ومن حوله أولاده وأصهاره حنظلة ويزيد وعنبسة وعمرو ومعاوية ، وعبيد الله بن جحش زوج ابنته أم حبيبة ، وحويطب بن عبد العزى زوج أميمة ، والحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب زوج هند ، وسعد بن الأخنث بن شريق الثقفى زوج صخرة وكان يبغض قريشا ، وأبو مُرة بن عروة بن مسعود ؛ وفتحت أبواب دار أبى سفيان لاستقبال الوافدين لتحية أبى حنظلة .

وجاء الناس يسلمون عليه ويسألون عن بضائعهم ، وجاء محمد — ﷺ — ودخل على أبى سفيان وهند بنت عتبة عنده تلاعب صبيانها فسلم عليه وسأله عن سفره ومقامه ولم يسأله عن بضاعته ، ثم قام — ﷺ — تعلوه المهابة والوقار فقال أبو سفيان لهند :

— والله إن هذا ليعجبنى . ما من أحد من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها وما سألنى هذا عن بضاعته .

فقالت له هند وهى مستمرة فى ملاعبة صبيانها :

— وأما علمت شأنه ؟

فقال أبو سفيان وهو فزع :

— ما شأنه ؟

— يزعم أنه رسول الله .

فشرد أبو سفيان وتذكر ما كان بينه وبين أمية بن أبى الصلت يوم أن خرجا معا إلى الشام ودخل أمية على عالم من علماء النصارى يسأله عن أشياء فقد كان يطمع فى أن يكون النبى المرتقب ، ورن فى وجدانه ما كان

بينهما من حوار :

ـــ حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

ـــ إى والله .

ـــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

ـــ إى والله .

ـــ وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

ـــ نعم !

ـــ فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

ـــ لا والله لا أعلم .

ـــ أمحوج هو ؟

ـــ لا . بل هو ذو مال كثير .

ـــ وكم أتى عليه من السن ؟

ـــ قد زاد على المائة .

ـــ فالشرف والسن والمال أزرين به ؟

ـــ كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

ـــ لا . تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت .. فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت يحجه العرب . قلت : وفينا بيت تحجه العرب ! قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين

دخل فى الكهولة . بدوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

فرجف أبو سفيان حتى قالت له هند :

ـــ ما لك ؟

فانتبه فقال :

ـــ إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا .

ـــ بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه .

ـــ هذا هو الباطل .

وخرج أبو سفيان ، فبينا هو يطوف بالبيت إذ به قد لقى الرسول عليه السلام فقال له :

ـــ إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومى . كان فيها خير .

فأبى رسول الله إلا أن يأخذ منه أبو سفيان ما يأخذه من قومه وقال :

ـــ إذن لا آخذها .

ـــ فأرسل فخذها وأنا آخذ منك ما آخذ من قومى .

فأرسل رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى بضاعته فأخذها ، وأخذ منه أبو سفيان ما كان يأخذه من غيره .

ولم ينشب أن أخرج إلى اليمن ثم قدم الطائف فنزل على أمية بن أبى الصلت ، قال أمية :

ـــ يا أبا سفيان ما تشاء ، هل تذكر قول النصرانى ؟

ـــ أذكره وقد كان .

— ومن ؟.

— محمد بن عبد الله .

فقال أمية فى انفعال :

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب . قالت لى هند : يزعم أنه رسول الله .

وأحس أمية كأن خنجرا يغوص فى قلبه ويمزق أحشاءه ، فقد عاش سنين طويلة وهو يحلم بأن يكون النبى المنتظر . ويا طالما جلس إلى نساء ثقيف يحدثهن حديث الدين ويقول فى زهو إنه المرتقب والموعود ومن بشرت به الأنبياء . وقد نزل به هم ثقيل لما قال له عالم النصارى إن الموعود من قريش وإنه فى الأربعين . فخرجت النبوة من يده فهو ليس من قريش وقد فات تلك السن بأعوام كثيرة . فلما تلفت فى قريش لم يجد فيها غير عتبة بن ربيعة إلا أن المال والسن والشرف أزرين به . وما خطر له على قلب أبو القاسم فهو فى عزلة عن نوادى قومه وساحات الشعراء ، وقد حسب أنه استكان إلى الدعة التى وفرتها له الطاهرة وسيدة نساء قريش .

كان حزنه عميقا لما وصف له النصرانى نبى الأميين ، وقد اعتكف بعد عودته من تلك الرحلة وكره الدنيا والناس . أفيستمر فى زعمه بأنه ينتظر أوامر ربه ليبلغ رسالته أم يطبق شفتيه ويلتزم الصمت حتى ينسى أهل الطائف ما سرى بينهم من وهم كان هو مصدره ؟

تبخرت آمال سنين عقب مقابلة ذلك النصرانى ، وهانت فى عينيه مسوح الرهبان التى كان يرتديها ، وفترت حماسته وهو ينظر فى كتب الدين فقد كان يتعبد لغاية . فلما تصدع يقينه واهتز إيمانه باصطفاء الله إياه استشعر هوان أمره ، وتمنى من أعماقه لو أن الناس غضوا أبصارهم عنه

وتركوه فى زوايا النسيان يمضغ آلامه وحده .

إنه عانى أعمق الأسى لما قيل له إنه ليس المنتظر . أما وقد بعث الله رسوله فهو يستشعر بنفسه تذهب شعاعا وكأنما لم يعد له وجود ، وأحس استحياء من نساء قريش وإن لم يلق منهن أحدا أنه كان يحدثهن أنه هو .

وقال فى صوت خافت كأنما يأتى من قرار سحيق :

ـــ فالله يعلم ؟

وأخذ يتصبب عرقا ثم قال :

ـــ والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهى ، ولئن ظهر وأنا حى لأطلبن من الله فى نصره عذرا .

ترى أوَيصدق وعده ويتبع أمية بن أبى الصلت من كان يطمع فى النبوة محمدا رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وقد استبان له الرشاد ؟

ومضى أبو سفيان إلى اليمن وكان فى القافلة العباس بن عبد المطلب ، وراحت الأيام تمضى فى هدوء أشبه بذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة .

## ٢٢

دبت الحياة فى بيت خديجة ، فأم أيمن تغدو وتروح فى الدار وقد لاح على وجهها الاهتمام ، ووقفت فاطمة الزهراء عند مدخل غرفة نوم أمها الحبيبة ، بينا كانت زينب والقابلة عند فراش الطاهرة ينتظران أن تضع ما فى بطنها .

وجلس محمد ــ ﷺ ــ حيث اعتاد أن يجلس أهل البيت ، وعلى مقربة منه على بن أبى طالب وهند بن أبى هالة وزيد بن حارثة وقد لزموا الصمت وإن أرهفت حواسهم وامتدت آذانهم إلى حجرة سيدة نساء قريش .

وخفت الرجل بعد أن هرعت أم أيمن إلى سيدتها ، ولف الدار سكون وعلا الوجوه ترقب وانتظار ، وإذا بصوت وليد يجلجل فى المكان فتنتشى النفوس وتنزل طمأنينة بالقلوب وتنبسط الأسارير ، وإن كان فى الضمائر تشوف إلى نوع المولود .

وجاءت أم أيمن تسبقها فاطمة وعلى وجهيهما البشرى ، وقبل أن تصلا إلى حيث كان رب الدار سبقتهما إليه أصواتهما النابضة بالفرح :

ــ ولد .. ولد .

وانفرجت ابتسامة رضا عن أسنان رسول الله ــ ﷺ ــ المفلجة ، وحمد الله على ما آتاه ، وغمر الدار فرح فياض . وزاد فى غبطة رسول الله ــ عليه السلام ــ أن رأى تهلل الاستبشار على وجوه على وفاطمة وهند

وزيد وأم أيمن ، فقد كانت المشاعر النبيلة تهزه حتى لتكاد تبلل أهداب عينيه .

وقام ليدخل على زوجه التي واسته وشدت أزره ووقفت إلى جواره على الدوام ، فمشى يتقلع كأنما ينحط من صبب ذريع الخطوة سائل الأطراف تعلوه مهابة . فقد غض طرفه ليخفى الفرح الذى يترقرق فى مقلتيه .

وتقدم من فراش خديجة فتوجت شفتيه ابتسامة رقيقة ما إن رأتها زوجه حتى تبددت كل أوصابها واستشعرت كأن رحمة من ربها فاضت عليها ، فإذا بكل مشاعرها تسجد لله شكرا وإذا بروحها تؤدى فى لحظة أعمق صلاة .

ومدت زينب يديها ورفعت الوليد فى رقة فقدمته إلى أبيها ، فأخذه رسول الله — عليه السلام — على كفّى الحنان فدفقت من كنوز قلبه مشاعر نابضة بأجمل ما فى النفس البشرية من إحساسات الحب والرأفة والرحمة والإشفاق .

ورنت خديجة إلى زوجها وفلذة كبدها بين يديه وهو يميل عليه ليضع قبلة على جبينه فأحست كأن فؤادها يلثم الوجود جميعه ، وكأن كل أفراح الأرض والسماء تنسكب فى وجدانها وتغمر عواطفها ، فلا تجد لها منفسا إلا أن تترقرق فى مآقيها الدموع كأنها من رحمة الرحمة وعين الرأفة وذات الرقة والإشراق . كانت ترجو أن يكون لها ولد من الرجل العظيم الذى اصطفاه رب العالمين لتبليغ رسالته ، فهو شرف لا يدانيه شرف فى الدنيا أن يكون لها ولد من خاتم الأنبياء . وكانت تقدر النعمة التى خصها الله بها من فيض كرمه فلم تجد للتعبير عن شكرها العميق لما أعطاها الله غير

الإنفاق فى سبيل الله ، فأمرت بنحر النحائر وتوزيعها على فقراء مكة ابتغاء مرضاة الله .

وذاع فى مكة أن الطاهرة وسيدة نساء قريش أنجبت لأبى القاسم ذكرا وأنه سماه عبد الله ، فهرع المسلمون مستبشرين فرحين إلى دار النبى — ﷺ — مهنئين بأن منَّ الله عليه بمن يرث الأمجاد . ولما خرج أبو القاسم عليهم به خفقت قلوبهم بالحب وهم يمدون أعينهم إلى بضعة من الرسول — عليه السلام — . ولما كان عبد الله قد ولد بعد اصطفاء الله لأبيه — ﷺ — ولم يشهد من أمر الجاهلية شيئا ، فقد لقبه المسلمون بالطيب والطاهر ، ولا غرو فقد ولد فى نور الإسلام .

وتعلق قلب خديجة بالوليد فأبت أن تدفع به إلى المرضعات فى اليوم الثامن من مولده كما كانت عادة سادات قريش ، وأقنعت نفسها بأنه لن يجد فى قبائل البادية من هو أفصح من رسول الله — ﷺ — ولا من هو فى مثل علم على بن أبى طالب ربيب ربيب السماء . كانت دارها منارة للدين الجديد وإنه لخير لعبد الله أن يشب فى منبع الحكمة والنور .

وكان على وفاطمة يداعبان عبد الله وخديجة ترنو إليهما متفرحة وسرعان ما يشرد خيالها فتذكر ما قال زوجها الحبيب ليلة مولد ابن أبى طالب : « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » . ففى تلك الليلة كشف عن بصر محمد — ﷺ — فشاهد أنوارا وهو يتبتل فى غار حراء ، وكان رسول الله — ﷺ — يتيمن بتلك السنة ويسميها سنة الخير وسنة البركة .

كان على فى حجر ابن عمه ولد على الفطرة وقبل أن يفسد أبواه تلك الفطرة بتلقينه عادات قومه ومعتقداتهم ، أكرمه الله بأن دفع به إلى دار

الندوة ليتولى أبو القاسم تربيته فيعصمه من مساوئ الجاهلية ، فإن كان الله قد كرم وجه على وقد ولد قبل الرسالة بعشر سنين فعبد الله قد ولد بعد المبعث ولا كان كافرا طرفة عين .

كانت خديجة سعيدة بعلى ، سعيدة بفاطمة ، سعيدة بنور النبوة التى أشرقت فى دارها . وبلغت سعادتها ذروتها لما أنجبت لرسول الله — ﷺ — عبد الله . فغبطتها قد فاقت ذلك السرور الذى غشيها لما جاءت بالقاسم ، فالقاسم كان ابن الرجل النبيل الذى تطمع خديجة فى أن يكون هو النبى المرتقب . أما عبد الله فهو وريث مجد رسول الله من اصطفاه ربه ليبلغ الناس رسالته . وهو مجد ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وراحت خديجة تحتضن ابنها وقد جاشت عواطف الأمومة فيها حتى كادت تفتنها عن جليل رسالتها . فهى لم تخلق لتكون حاضنة لوليد حتى لو كان ولد رسول الله — ﷺ — ، بل خلقت لتكون حاضنة أعظم رسالة حملها بشر ، لتكون أمّا للمؤمنين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، أمّا يفيض حنانها وعطفها وشذى ذكراها العطرة على أبناء ذلك الدين القويم الذى بزغ نوره أول ما بزغ من دارها على مر السنين والأجيال والقرون . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كان الإسلام لا يزال سرا فى صدور المؤمنين به ، فإن كان الله قد أمر رسوله بأن يقوم وينذر ويكبر ربه فقد كان يدعو صحابته ومن يثق بهم . وكان أبو بكر يدعو سرا فى ناحية وعثمان يدعو سرا فى ناحية وسعد والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وكل من أشرق قلبه بنور اليقين يدعون إلى الدين الجديد همسا ، فما استعلن أمر الإسلام بعد ،

وهو فى حاجة إلى جهود مضنية وصبر طويل وكفاح مرير حتى يتم الله نوره ، وهو أحوج ما يكون إلى إيمان خديجة ونصرتها وصمودها كالطود إلى جانب الرسول — عليه السلام — ، لا تزعزعها عواصف الشرك ولا تنال من عزيمتها أسلحة الاضطهاد ولا يشغلها عن تأييد دين الله مشاغل من ولد ودنيا ، فقد ارتضت أن تكون لله ومن كان لله لا يشغل عنه بما سواه .

ومرت الأيام ومحمد — ﷺ — يقابل الراغبين فى الدين الجديد فى داره أو فى شعاب الجبال بعيدا عن عيون سادات مكة وأشرافها . يعرض عليهم الإسلام أو يفقههم فيه ثم يعود إلى خديجة يقص عليها ما كان فى يومه وهى تصغى إليه فى فرح واستبشار . ثم تدفع إليه بابنه عبد الله فيأخذه ويقبله ويداعبه فيستشعر كأن أوصاب اليوم قد تبخرت وأن عواطف رقيقة حانية تتفجر من فؤاده فتغمره بسعادة واستبشار .

كان يحب زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكان يفيض عليهن من فيض قلبه الكبير . وقد حزن على موت القاسم ، فلما منَّ الله عليه بعبد الله وجد فيه عوضا عن أخيه فتعلق به وأحبه . وكان يحس غبطة لما يسمع أصحابه يكنون الصغير بالطيب والطاهر . وقد شكر الله بلسانه وفؤاده وكل جوارحه أن جاء عبد الله بعد أن اصطفاه ربه لرسالته ، فسيشب فى وهج الأنوار .

وذات يوم هرعت إليه خديجة وفى وجهها هلع وقالت له إن عبد الله مريض ، فخف إلى حيث كان ابنه فى أحضان أم أيمن ونظر فى وجهه فألفاه ذابلا وقد ضاق صدره وكأنه يتنفس من ثقب إبرة ، فأحس أبو القاسم أسى يطوف به ، وتحركت رقته فمد يديه وتناول ابنه وضمه إلى صدر

الحنان ، فاستشعر بالطيب ينتفض فى حضنة فترقرق الدمع فى عينيه . ورأت خديجة العبرات بين أهدابه الطويلة . فاشتد وجيب قلبها وانتشرت رهبة بين ضلوعها ونزل حزن ثقيل . فقد فطنت إلى أن عبد الله يموت .

أيمضى عبد الله هكذا سريعا بعد أن ملأ الدار حياة وأملا ؟ أتموت أمانيها المشرقة المجنحة العريضة التى داعبتها كلما مدت عينيها إلى ابن رسول الله — ﷺ — ؟ كانت ترى فيه وريث النفحة الإلٰهية والشرف الذى لا يسمو إليه شرف . وما اتضحت لها فى ذاك الوقت حقيقة أن ما جاء به محمد عليه السلام ليس ميراث فرد من البشر أو جماعة من الناس ، بل ميراث البشرية جمعاء .

إنها تقرأ فى وجه زوجها هول الفاجعة وتستشعر من الأسى الذى غمره قمة المأساة فترتجف من الرأس إلى القدم ، فعبد الله يجود بأنفاسه ويدب الفناء فيه ليودع الدنيا .

واحَر قلباه ! واكَرباه ! ذهب عبد الله ولن يئوب ، وسيقبر كما قبر أخ له من قبل مخلفا فى القلب حسرات . إنها حزنت على فقد القاسم ولكن حزنها على فقد عبد الله يفوق كل ما مر بها من أحزان ، فالأمل فى أن تنجب لأبى القاسم ولد بعد القاسم كان كبيرا ، أما اليوم فلا أمل فى الإنجاب . ووقعت عيناها على زوجها الواله الحزين وهو يسجى ابنه الحبيب فى فراشه والدموع تسيل على خديه وتبلل لحيته ، فلم تستطع احتمال لوعة النفس فأجهشت بالبكاء . وارتفع صوت أم أيمن بالنحيب ، وجاء على وفاطمة وقد فطنا إلى أن الموت قد اختطف الطيب فخنقتهما العبرات . وراحت خديجة تذرف الدمع الهتون ولقيت من مصيبتها نصبا ، فذهب إليها رسول الله — ﷺ — يواسيها ويمسح بحنانه عن فؤادها الأحزان ، وإن كان فؤاده يكاد ينفطر على الطاهر الحبيب .

## ٢٣

راح محمد — ﷺ — يدعو الناس إلى الإسلام سرا وجهرا ، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول . ودخل دار الأرقم بن أبى الأرقم وكانت على الصفا تطل على الحرم ودار الندوة وتكشف حركات سادات قريش وكل ما يجرى فى الكعبة .

وفى دار الأرقم كان المسلمون يصلون ويتفقهون فى أمر الدين ، وكان الراغبون فى الإسلام يفدون إلى رسول الله — ﷺ — يلقون إليه أسماءهم فتنشرح صدورهم للدين الجديد ، وما كان كفار قريش يفعلون أكثر من السخرية من ذلك الذى يأتيه خبر السماء فما كانوا يقدرون خطر دعوته .

كانت العبادات تمارس فى حرية فى أول بيت وضع للناس ، فكانت اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية والحنيفية والصابئة تعيش فى ظل الكعبة جنبا إلى جنب ما دام أصحاب تلك الديانات لا يعيبون دين قريش . وما كان أكابر القوم يرون فى دعوة ابن عبد الله ما يثير غضبهم فقد حسبوها فى أول الأمر دعوة من دعوات التوحيد الهادئة التى كانت تظهر بين الحنفاء بين الحين والحين .

وأوحى الله إلى عبده : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض

جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾[١] . فاشتد ذلك على النبى — ﷺ — فمكث شهرا جالسا فى بيته يفكر فى أمر الله وخديجة تشد أزره وتهون عليه الأمر ، وهو يستشعر عجزه عن احتمال الوقوف فى وجه بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى عبد شمس وبنى نوفل الثائرين الغاضبين .

وظنت عماته أنه مريض فدخلن عليه عائدات ، فقال — ﷺ — :

— ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرنى بقوله : وأنذر عشيرتك الأقربين . فأريد أن أجمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى .

— فادعهم ولا تجعل عبد العزى ( أبا لهب ) فيهم فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه .

وراح محمد — ﷺ — يفكر فيما أمره به ربه . إنه أوحى إليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[٢] . وقد نصحه عماته ألا يدعو عمه أبا لهب ولكنه لا يستطيع أن يستجيب لتلك النصيحة ، فعمه من عشيرته الأقربين . وما كان لرسول أن يعصى أوامر ربه وإن كان على يقين أن أبا لهب سيسمعه ما يكره ، بل قد تكون دعوته إلى الإسلام من أسباب تنغيص حياة ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم ، فقد زوج ابنتيه لابنى عمه عتبة ومعتب وهما ألعوبة فى يد أمهما أم جميل بنت حرب التى تنهش الغيرة قلبها إذا ما أصاب غيرها خير .

وأصبح الصباح فبعث رسول الله — ﷺ — إلى بنى عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب وقد ظن أنه ما جمعهم إلا لأنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون ، فقال له :

---

(١) الشعراء ٢١٤ — ٢١٥ (٢) الحجر ٩٤

— هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم بما تريد ، واترك الصبأة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة ، وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك . إن أقمت على أمرك فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فما رأيت يا بن أخى أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بشر مما جئتهم به .

ودار حوار شديد بين عبد المطلب وبين رسول الله — ﷺ — انتهى بأن انسحب الموجودون دون أن يستجيب أحد منهم إلى دعوة محمد — ﷺ — ، ومرت أيام ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى فجمعهم رسول الله — ﷺ — ثانيا وخطبهم ثم قال لهم :

— إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . والله يا بنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة .

فتكلم القوم كلاما لينا غير أبى لهب فإنه قال :

— يا بنى عبد المطلب هذه والله السوءة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم .

فقالت له أخته صفية :

— أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضىء ( أصل ) عبد المطلب نبى فهو هو .

قال أبو لهب فى ضيق :

ـــ هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب :

ـــ والله لنمنعنه ما بقينا .

وأحس محمد ـــ ﷺ ـــ صدق تأييد أبى طالب ، فذهب إلى داره واجتمع هناك ببنى عبد المطلب فقال لهم :

ـــ يا بنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة ، فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين . وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان : شهادة أن الله لا إلٰه إلا هو ، وأنى رسول الله . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

ـــ أنا يا رسول الله .

ـــ اجلس . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

ـــ أنا يا رسول الله .

ـــ اجلس .

ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم ، فقام على فقال :

ـــ أنا يا رسول الله .

ـــ اجلس ، فأنت أخى ووزيرى .

وعزم محمد ـــ عليه السلام ـــ على أن يدعو قريشا فقام على الصفا

وقال :

ـــ يا معشر قريش .

فقالت قريش :

ـــ محمد على الصفا يهتف .

فأقبلوا واجتمعوا فقالوا :

ـــ ما لك يا محمد ؟

ـــ أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟

ـــ نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط .

ـــ فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ...

حتى عدد الأفخاذ من قريش .

ـــ إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

فقال أبو لهب :

ـــ تبا لك سائر اليوم .

وانصرف أبو لهب وسار معه رجل من قريش ، فقال له الرجل :

ـــ فما تفعل إن كان ما يقوله محمد حقا ؟

فقال أبو لهب فى سخرية :

ـــ إن كان ما يقوله محمد حقا افتديت منه بمالى وولدى .

وعاد أبو لهب إلى داره وراح يروى على امرأته ما كان من محمد ابن أخيه ، فراحت أم جميل تشاركه فى هزئه وسخريته ولكن ذلك لم يشف غليلها فهى حاقدة بطبعها . أنانية لا تطيق الخير لغيرها . فهى تستشعر

بالنار ترعى فى أحشائها كلما وصف قومها خديجة بالطاهرة . ولولا الخشية من أن تكشف عن خبيئة نفسها الحاسدة الخبيثة لأعلنت على الملأ سب خديجة . فلما بلغها أن محمدا لم يكتف بأن زعم أن الخبر يأتيه من السماء بل دعا قومها إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأنه عبده ورسوله زاد حنقها على ابن عبد الله وزوجه ، فلو آمن الناس بدعوته لربا شرف سيده نساء قريش ، وأعمتها الغيرة عن أن ترى فى نبوة محمد شرف بنى هاشم بل شرف قريش كلها . وأبت أن تصيخ إلى صوت قلبها الذى حاول أن يقنعها بأن نبوءة محمد — ﷺ — شرف عظيم سيسربل ولديها معتب وعتبة زوجى ابنتى رسول الله ، فأحست رغبة طاغية فى أن تحطم الدعوة الجديدة وما تأتى به من أمجاد لغريمتها التى صارت هدفا لغل نفسها .

وانسلت من الدار لتدور على دور قريش تسب محمدا عليه السلام وتنال من خديجة لتشفى مرض قلبها وتحرض الناس على من جعل الآلهة إلٰها واحدا وزعم أنه يُكلَّم من السماء ، فطفقت تنفث سمومها وتزين للناس مقاومة الدعوة التى فرقت بين الأخ وأخيه ، والمرء وأبيه ، والرجل وصاحبته التى تؤويه . وبعد أن طافت بالدور وفيما هى فى طريق عودتها إلى دارها راحت تجمع الحطب . فلم تنس بخلها الذى جبلت عليه وهى تشن حربها الشعواء على محمد — عليه السلام — وزوجه ، فهى كأخيها أبى سفيان شحيحة وكان البخل أبرز صفاتهما .

وأوحى الله إلى محمد — ﷺ — ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾[1] . فأرسل لمن كان عنده من كتاب الوحى

---

(١) المسد ١ — ٥

ليكتب ما أنزل عليه.ولما انتهى شرد يفكر فى ذلك الهجاء الشديد لعمه وامرأته فتبين أن قد انفصمت كل الصلات الطيبة بينه وبينهما .

كانت رقية وأم كلثوم فى كنف ابنى عمهما وقد تيقن بعد نزول الوحى بسورة المسد أن لم يعد لبنتيه الحبيبتين مكان فى دار أبى لهب ، فلو كان الأمر بيده ما هجا عمه ولا امرأته وما عكر صفو رقية وأم كلثوم ، ولكن الله هجاهما وقد أمره الروح الأمين بأن يصدع بما يؤمر فراح يقرأ على المسلمين ما أنزل عليه .

وذاعت سورة المسد فى مكة ومشى بعض الناس بها إلى أبى لهب وأم جميل ، فاربد وجه أبى لهب واستبد به الحنق والغضب فبعث فى طلب عتبة ومعتب وقال لهما إن محمدا قد سبه وسب أم جميل ، ثم التفت إلى عتبة وقال :

ـــ رأسى ورأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد .

فقال معتب فى غضب :

ـــ لآتين محمدا فلأوذينه فى ربه .

وانطلق معتب إلى محمد عليه السلام وكان عند أبى طالب . فأتاه وسب إلـٰهه ثم بصق فى وجهه ورد عليه ابنته وطلقها . فقال محمد ـــ ﷺ ـــ :

ـــ اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك .

فوجم لها أبو طالب وقال :

ـــ ما كان أغناك يا بن أخى عن هذه الدعوة .

وخرج محمد عليه السلام إلى الحرم والتقى بأبى بكر فراحا يتحاوران ، وفيما هما فى حديثهما إذ أقبلت أم جميل وفى يدها حجر وقد أعماها

الغضب ، فلما رآها أبو بكر قال :

ـــ يا رسول الله إنها امرأة بذية فلو قمت فوالله لتؤذينك .

ـــ إنها لن ترانى .

فجاءت فقالت :

ـــ يا أبا بكر ، صاحبك هجانى .

ـــ لا ورب هذا البيت ما هجاك .

وكان أبو بكر يقول صدقا ، فما هجاها رسول الله بل ما هجاها إلا الله .

ـــ أنشد فىَّ شعرا .

ـــ والله ما صاحبى بشاعر وما يدرى ما الشعر .

ـــ والثواقب إنه لشاعر وإنى لشاعرة .

مذمما أبينـــــا ودينـــه قلينـــا

وأمره عصينا

ولم يغضب أبو بكر فقد صرف الله عن رسوله شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وهو محمد .

ثم ولت أم جميل ذاهبة فالتفت أبو بكر إلى الرسول ـــ ﷺ ـــ ، فلما قرأ فى وجه أبى بكر التساؤل قال :

ـــ جعل بينى وبينها حجاب .

ومر رسول الله ـــ ﷺ ـــ على قومه وهم يسجدون للأصنام فقال :

ـــ يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم .

وعرفوا أنه يعيرهم بعبادة الأصنام ، فيا طالما قال لهم إنها حجارة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فقالوا :

ـــ إنما نعبد الأصنام حبا لتقربنا إلى الله .

وانصرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى داره فهرع إليه أصحابه ليتفقهوا فى دينهم ، وجاءت قريش إلى حصين وكانت تعظمه فقالوا له :

ـــ كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ـــ ﷺ ـــ ، ودخل حصين وابنه عمران مع رسول الله ـــ عليه السلام ـــ ، فلما رآه النبى قال :

ـــ أوسعوا للشيخ .

فجلس حصين فقال :

ـــ ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟

فقال :

ـــ يا حصين كم تعبد من إلٰه ؟

ـــ سبعة فى الأرض وواحد فى السماء .

ـــ فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟

ـــ الذى فى السماء .

ـــ فإذا هلك المال من تدعو ؟

ـــ الذى فى السماء .

ـــ فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟ أرضيته فى الشرك يا حصين ؟ أسلم تسلم .

واستمر الحوار فإذا بحصين ينشرح صدره للدين الجديد فيعلن إسلامه ، فيقوم إليه ولده عمران فيقبّل رأسه ويديه ورجليه فرحا بأن هدى الله أباه إلى الإسلام وزحزحه عن نار جهنم .

وبكى رسول الله — ﷺ — فشخصت إليه الأبصار فقال :

— بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفّى حقه فدخلنى من ذلك الرأفة .

فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— شيعوه إلى منزله .

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش قالوا :

— قد صبأ .

وتفرقوا عنه وصدورهم تكاد تميز من الغيظ وتنفجر من الغضب .

## ٢٤

كان أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب يجوبان السوق فى اليمن وإذا برسول يقدم من مكة ويقدم إلى أبى سفيان كتابا من ابنه حنظلة ، فيقرأ الكتاب فيتغير لونه ويظهر فى وجهه أثر الانفعال . فلما رأى العباس ما اعتراه قال له :

ـــ ماذا فى الكتاب يا أبا حنظلة ؟

فقال أبو سفيان وهو شارد :

ـــ إن محمداقائم فى أبطح مكة يقول : أنا رسول الله ، أدعو إلى الله .

ففشا ذلك فى مجالس أهل اليمن فجاء حبر من اليهود إلى حيث كان أبو سفيان والعباس فقال :

ـــ بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال .

قال العُباس :

ـــ نعم .

فقال الحبر وهو يتفرس فى وجه العباس :

ـــ نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟

ـــ لا والله ولا كذب ولا خان ولا كان اسمه عند قريش إلا الأمين .

ـــ هل كتب بيده ؟

فأراد العباس أن يقول نعم ، فخشى من أبى سفيان أن يكذبه ويرد عليه فقال :

ـــ لا يكتب .

فوثب الحبر وترك رداءه وقال :

ـــ ذبحت يهود وقتلت يهود .

ورجع العباس وأبو سفيان إلى منزلهما فقال أبو سفيان :

ـــ يا أبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك .

كان العباس على علم بأن زوجه أم الفضل على دين محمد ، وكان فى كل ما فعل هواه مع ابن أخيه فقال :

ـــ قد رأيت لعلك أن تؤمن به .

ـــ لا أومن به حتى أرى الخيل فى كداء .

وعجب العباس فما كانت الخيل تطلع على كداء فهو جبل وعر ، فقال ؟

ـــ ما تقول ؟

ولم يدر أبو سفيان لم قال ذلك القول فقال :

ـــ كلمة جاءت على فمى إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلا تطلع على كداء .

ولو اخترق بصر أبى سفيان حجب الغيب لرأى خيل خالد بن الوليد تطلع على كداء يوم فتح مكة ، يوم يأخذه العباس إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليعلن إسلامه .

وأقبل أبو سفيان حتى نزل على أمية بن أبى الصلت بالطائف فقال :

ـــ يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

وصمت أمية قليلا وهو يفكر فى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، ثم قال :

ـــ قد كان لعمرى .

ـــ فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟

ـــ والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .

ورأى أبو سفيان الحيرة فى وجه أمية فقال له :

ـــ ما يمنعك من اتباعه ؟

فقال ابن أبى الصلت وهو يطرق برأسه :

ـــ ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف . إنى كنت أحدثهن أنى هو ثم يرينى تابعا لغلام من بنى عبد مناف .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال أمية :

ـــ كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

* * *

وكانت فى ثقيف بيت آخر قد أهمه ظهور محمد ـــ ﷺ ـــ ودخله من النفاسة والحسد ما أقلق أهله ، كان ذلك البيت بيت الحارث بن كلدة زوج خالة رسول الله ـــ عليه السلام ـــ . وكان الحنق يملأ جوانب ابن خالته النضر فهو يحسب أنه أعلم العرب طرا ما دام قد ذهب إلى الحيرة وجنديسابور وتعلم أجزاء الحكمة وأحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسفَنْديار . فلما بلغه أن ابن خالته قائم على أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أحس بالحقد ينهش فؤاده ولم يستطع صبرا ، فشد الرحال إلى مكة ليكون على ابن خالته يهزأ به ويؤلب عليه الناس .

وشد أبو سفيان الرحال إلى مكة وهو يفكر فيما دهاها . ترى ما أمر الناس بها ؟ كان أشياخ قريش فى طريقهم إلى أبى طالب وقد أجمعوا خلاف ابن أخيه وعداوته ، فلما جاءوه قالوا :

— يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله — ﷺ — يظهر دين الله ويدعو إليه لا يرده عن ذلك شيء ، واستشرى الأمر وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وأضمروا له العداوة ولصحبه ، فوثب الحكم بن العاص على ابن أخيه عثمان بن عفان وراح يعذبه ، وأخذ نوفل بن العدوية أبا بكر وطلحة بن عبد الله فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنى تيم وراح يعذب القرينين ، وكان نوفل جبارا وكان يدعى أسد قريش . وعاد عم الزبير إلى تعذيبه . وأقبل أبو سفيان إلى مكة فوجد أصحاب محمد — ﷺ — يضربون ويحقرون ، وتذكر وصف أمية للنبى المنتظر فى أثناء عودتهما من الشام : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة ، فجعل أبو سفيان يقول :

— فأين جنده من الملائكة ؟!

فدخله ما يدخل الناس من النفاسة فمشى إلى أبى طالب مع عقبة بن أبى معيط ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة بن عبد شمس ، وأبى البحترى العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنى الحجاج بن عامر ، والعاص بن وائل ، فقالوا :

— يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه

أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله — ﷺ — لهم ولا خذلانه ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا . فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله — ﷺ — أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه ، وإنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له :

— يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله — ﷺ — وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال :

— أقبل يا بن أخى .

فأقبل عليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله — ﷺ — وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

— يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك خير ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه

أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

ـــ والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا .

فقال له المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف :

ـــ والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال له أبو طالب .

ـــ والله ما أنصفوني ولكنك جمعت خِذلاني ومظاهرة القومَ على ، فاصنع ما بدا لك .

ـــ فأرسل إليه فلنعطه النَّصَف .

فأرسل إليه أبو طالب ، فجاء رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا بن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ قولوا أسمع .

ـــ تدعنا وآلهتنا وندعك وإلٰهك .

قال أبو طالب :

ـــ لقد أنصفك القوم فاقبل منهم .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أرأيتكم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيَّ كلمة ، إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟

فقال أبو جهل :

ـــ إن هذه الكلمة مربحة ، نعم وأبيك لنقولنها وعشَر أمثالِها .

قال :

ـــ قولوا لا إلـه إلا الله .

فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا ، وقال عقبة بن أبى معيط :

ـــ واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد .

وخرجوا من عند أبى طالب وهم يقولون :

ـــ لا نعود إليه أبدا وما خير من أن نغتال محمدا .

فلما كان من مساء تلك الليلة جاء أبو طالب وعمومة محمد ـــ ﷺ ـــ إلى منزله فقد بلغهم ما عزم عليه القوم فلم يجدوه ، فجمع أبو طالب فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب ثم قال :

ـــ ليأخذ كل واحد حديدة صارمة ثم ليتبعنى إذا دخلت المجلس فليجلس كل فتى منكم إلى عظيم من عظمائهم ، فيهم ابن الحنظلية ( أبو جهل ) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقال الفتيان :

ـــ نفعل .

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال :

ـــ يا زيد أرأيت ابن أخى ؟

فقال زيد :

ـــ نعم كنت معه آنفا .

فقال أبو طالب :

ـــ لا أدخل بيتى أبدا حتى أراه .

فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو فى بيت عند

الصفا ومعه أصحابه يتحدثون . فأخبره الخبر فجاء رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أبى طالب فقال :

ـ يا بن أخى أين كنت ؟ أكنت فى خير ؟

ـ نعم .

ـ ادخل بيتك .

فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبى ـ ﷺ ـ فأخذ بيده فوقف على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال :

ـ يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟

ـ لا .

فقال للفتيان :

ـ اكشفوا عما فى أيدكم .

فكشفوا فإذا كل رجل معه حديدة صارمة ، فقال :

ـ والله لو قتلتموه ما بَقيتُ منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم .

فانكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل .

## ٢٥

اجتمع المسلمون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يتحدثون وكانت الدار على الصفا تطل على الحرم ، وحانت التفاتة من أبى بكر فرأى قريشا فى مجالسهم فضاق بأن المشركين كانوا آمنين فى بيت الله بينما كان المسلمون يترقبون خشية من الناس . إنه على الحق وهم على الضلال فكيف يختفى النور تاركا الدنيا للظلمات ؟

وراح أبو بكر يحدث محمدا — ﷺ — ويلح على رسول الله فى الظهور ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا أبا بكر إنّا قليل .

كانوا قلة حقا ولكنهم كانوا أقوياء باليقين الذى نزل بأفئدتهم . فهان القوم فى عينى أبى بكر فجعل يتحدث فى حماس وصدق يزين له الخروج إلى المسجد لإعلاء كلمة الله ، ولم يزل به حتى خرج رسول الله — ﷺ — ومن معه من أصحابه إلى المسجد .

وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله — ﷺ — جالس ودعا إلى الله ورسوله ، فامتلأ سادات قريش حنقا فقد ضاقوا بدعوة ابن عبد الله وكلموا أبا طالب فيه وبيتوا الغدر لمن سب آلهتهم وسفه أحلامهم ، وقبل أن ينالوا منه شيئا ، أيأتى ابن أبى قحافة ليسخر منهم على أعين الناس ؟

إنها الفتنة وإن سكتوا عليها استشرى الشر فى مكة ، فثاروا على أبى بكر وعلى المسلمين وضربوهم ضربا مبرحا ، ووُطئ أبو بكر بالأرجل وضرب

ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مطبقتين ويحرفهما إلى وجهه بعنف حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فقد غرق فى دم غزير بعد هذه القسوة القاسية .

وطار الخبر إلى بنى تيم رهط أبى بكر فجاءوا والشر يطل من أعينهم وأصوات مزمجرة متوعدة تنطلق من أفواههم ، فأجلوا المشركين عن أبى بكر وحملوه فى ثوب إلى أن أدخلوه منزله لا يشكون فى موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا :

ـــ والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .

ثم رجعوا إلى أبى بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال :

ـــ ما فعل رسول الله ـــ ﷺ ـــ ؟

فراحوا يلومونه على ما فعل فعاد يقول :

ـــ ما فعل رسول الله ـــ ﷺ ـــ ؟

ونظر إلى أمه فقالت :

ـــ والله ما لى علم بصاحبك .

ـــ اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

وخرجت أمه إلى دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ودخلت على فاطمة بنت الخطاب وقالت لها :

ـــ إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله .

فقالت فاطمة :

ـــ لا أعرف محمدا ولا أبا بكر .

كانت فاطمة ترتجف خشية أن يعرف أخوها عمر بن الخطاب أمر

إسلامها فيأتى ليبطش بها ، فهو جبار لا يطيق الدعوة الجديدة ويقتفى أثر المؤمنين بها ليصب عليهم سوط عذاب ، فلما اطمأنت فاطمة إلى أم أبى بكر قالت لها :

ـ تريدين أن أخرج معك ؟

ـ نعم .

فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا فصاحت وقالت :

ـ إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم .

فقال لها أبو بكر فى لهفة :

ـ ما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ ؟

فالتفتت أم جميل ناحية أم أبى بكر وقالت :

ـ هذه أمك تسمع .

ـ فلا عين عليك منها .

ـ سالم .

ـ أين هو ؟

ـ فى دار الأرقم .

ـ والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ـ ﷺ ـ

وهمَّ أبو بكر بالنهوض فخفت إليه أمه وقالت :

ـ فأمهلنا .

وراحت أم أبى بكر تفكر فى ذلك الدين الذى يتحمل أتباعه فى سبيله كل هذا الاضطهاد فلا يزدادون إلا إيمانا وتسليما . إنها تعرف ابنها عاقلا

رشيدا وتعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة . فهو الأمين الصادق الذى عرف بخلفه القويم . واستمرت تفكر فى الدعوة التى جاء بها فألفتها دعوة يقبلها العقل ويستريح إليها الفؤاد ، حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجت به أمه وأم جميل بنت الخطاب يتكئ على أمه حتى دخل على رسول الله — ﷺ — ، فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله وأكب عليه المسلمون يقبلونه وقد غامت أعينهم بالدمع ، فقال أبو بكر :

— بأبى وأمى أنت يا رسول الله ما بى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار .

فدعا لها رسول الله — ﷺ — ودعاها إلى الإسلام ، فقالت :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فطفق أبو بكر يرنو إليها وليس على وجه الأرض من هو أسعد منه لإسلام أمه البارة بولدها .

ودخل إلى الحرم رسول الله — ﷺ — وبعض صحبه فيهم عبد الله ابن مسعود يمشى أمامه ، وجلس المسلمون وقام رسول الله — ﷺ — يصلى وقد نُحر جزور بين إساف ونائلة وبقى روثه فى كرشه . وكان أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وبعض سادات قريش فى مجلسهم ، فلما رأى أبو جهل محمدا — ﷺ — يصلى — قال لمن عنده :

— أيكم يأخذ سلى الجزور فيضعه بين كتفيه إذا سجد ؟

فقام أشقى القوم عقبة بن أبى معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى وهو ساجد . فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك . وكان صحابة الرسول — عليه السلام — من المستضعفين فهابوا أن يلقوه عنه — ﷺ — فما كانت لهم منعة ، وإذا بفاطمة قد

أقبلت ورأت الروث بين كتفى أبيها فخفت إليه وألقته عنه ، ثم نظرت إلى أبى جهل وعقبة وأمية بن خلف والذين معهم وفوضت أمرها وأمر أبيها إلى الله ، فلما قضى رسول الله — ﷺ — الصلاة رفع يديه وقال :

— اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام ( أبى جهل ) . وعتبة بن ربيعة ، وعقبة ابن أبى معيط ، وأمية بن خلف .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وهابوا دعوته .

وأصبحت العداوة سافرة بين محمد — ﷺ — وسادات قريش الذين كانوا يرتجفون فرقا من أن تذهب الدعوة الجديدة بنفوذهم وسلطانهم ، فكانوا كلما التقوا به آذوه وسخروا منه . فلما دخل — ﷺ — يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر ، كان فى الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ، فمر رسول الله — ﷺ — فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره . وكان عثمان ابن عفان جالسا فى الحرم فعرف فى وجه النبى — ﷺ — أثر ما قالوا من فحش القول ، فقام فدنا منه حتى جعله وسطا فكان — ﷺ — بين عثمان وبين أبى بكر ، وأدخل أصابعه فى أصابع عثمان فطافوا جميعا ، فلما حاذهم قال أبو جهل :

— والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أنا ذلك .

ثم مشى غنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان

الشوط الرابع قاموا له ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ـــ ﷺ ـــ فدفع عثمان صدره فوقع على إسته ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ـــ ﷺ ـــ عقبة بن أبي معيط ، ثم انفرجوا عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو واقف ثم قال :

ـــ أما والله ما تنتهون حتى يحل بكم عقابه . بئس القوم أنتم لنبيكم .

ثم انصرف إلى بيته وتبعه أبو بكر وعثمان حتى انتهى إلى باب بيته ، ثم أقبل عليهما بوجهه فقال :

ـــ أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا .

## ٢٦

اجتمع عقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام والعاص بن وائل وأبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى بن خلف وسهيل بن عمرو وسادات قريش وكبراؤهم فى الحجر وكانوا يحسدون رسول الله — ﷺ — على ما آتاه الله من فضله لخبث نفوسهم وتكبرهم وتعجبهم من أن يتقدم عليهم غلام يتيم ، وخوفهم من أن يقوض سلطانهم بدعوته التى استمالت الضعفاء فأحالت ضعفهم قوة . ولم يخطر لهم على قلب أنه لا يطمع فى مال ولا جاه فقد عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، فصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، فهو لا يزاحمهم فى دنياهم . فكل ما يبغيه أن يهديهم سبل ربهم ولو اهتدوا ما زاحموه فى لذته ، بل زادوه لذة بمشاركتهم إياه فى الأنس بالله .

إنه يطلب نعمة لا زحمة فيها ، ولذة لا كدر لها فقد عرف لذة الشوق بعد الذوق ، وهو يحب أن يرفعهم جميعا إلى موائد ربه ليذوقوا . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين .

وقال سادات قريش وكبراؤهم :

— ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط . ولقد سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا . لقد صبرنا على أمر عظيم .

ـــ يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة . أوصيكم بتعظيم هذه البنية ( الكعبة ) فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش .

صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة ( فسحة ) فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم . أجيبوا الداعى وأعطوا السائل ، فإن فيهم شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام .

وصمت أبو طالب يلتقط أنفاسه فدنا محمد عليه السلام من سريره ليقول له فى توسل : « قل يا عم لا إله إلا الله » ، ولكن أبا طالب قال وهو يقلب عينين واهنتين فى وجوه سادات قريش الذين بدوا له كأشباح :

ـــ وإنى أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن . وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا . إذ أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم يا معشر قريش ، كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد .

فلاحت الرقة فى وجه على بن أبى طالب واستبد به انفعال شديد ، فلم يبق على إسلام أبيه إلا أن ينطق بالشهادة فيتوج جليل أعمال له بتاج المتقين ، ويفوز بجنات النعيم . وراح يرقب رسول الله — ﷺ — وهو يدنو من أبيه الذى كان يعانى سكرات الموت بقلب يتأرجح بين الرجاء واليأس ، ويبتهل فى أعماقه إلى الله أن يشرح قلب الشيخ إلى الإيمان وأن ينيره بأنوار اليقين .

ومال محمد — ﷺ — على عمه الذى يجود بأنفاسه وقال وقد ترقرق الدمع فى عينيه :

— يا عم قل أشهد أن لا إله إلا الله .

كان رسول الله — ﷺ — يريد أن يدخل عمه فى رحمة الله ، يريد ألا يموت عمه وهو ظالم لنفسه ، يريد ألا يخزيه الله يوم القيامة ، يريد أن تتوفاه الملائكة طيبا . إنه يحرص على هداه ، فنياط قلبه تكاد تتمزق أسفا على أن عينى عمه فى غطاء عن ذكر الله . إنها لحظات فإن لم ينطق أبو طالب بالشهادة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه فستحبط أعماله فلا يقيم الله له يوم القيامة وزنا ، وأشفق عليه فقال فى نبرات متوسلة كأنها ذوب نفسه الطاهرة :

— يا عم قل أشهد أن لا إله لا الله .

وراح سادات قريش ينظرون فى قلق وقد تعلقت أعينهم بشفتى الرجل الذى كان يحتضر ، فإن نطق بالشهادة فسيزعزع ذلك موقف العناد الذى يتخذونه من ابن أخيه ، بينا كان على بن أبى طالب ومن حضر من المسلمين يتلهفون على أن ينطق الشيخ الجليل بالشهادة ليزحزح نفسه عن النار ، كانوا يستشعرون خطر اللحظة ، إنها كلمة ثم تصبح الجحيم هى المأوى أو

الجنة هى المأوى .

وخشى أبو جهل أن يلين الشيخ لتوسلات ابن أخيه وأن يرق لعبراته فقال :

ـــ بل على ملة عبد المطلب ..

وارتفعت أصوات الكافرين :

ـــ على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

فقال أبو طالب فى صوت خافت :

ـــ أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

واشتد وجد رسول الله ـــ ﷺ ـــ ونزل به جزع شديد ، وملأت الدموع عينى على بن أبى طالب ، وهل أوجع للقلب أن يرى الابن البار أباه الحبيب يلقى بنفسه فى أتون الجحيم ؟

إن عليا يكاد يتفجر أسى فهرع إلى أبيه يتوسل إليه أن يستجيب لدعوة رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبل الفوات ، وراح العباس يقلب عينيه بين أخيه الذى كان فى النزع الأخير وابن أخيه على بن أبى طالب الذى ارتمى على صدر أبيه يحاول أن ينتزع منه الشهادة قبل أن يسبقه الموت بانتزاع الروح ، وبين رسول الله ـــ ﷺ ـــ الذى ارتسم على وجهه المتألق بالنور أبلغ آيات الأسى العميق .

وراح أبو لهب يمد عينيه إلى ما يجرى أمامه فإذا به يتمنى أن تخمد أنفاس أخيه لينتهى ذلك القلق المدمر الذى استبد به ، فالانفعالات التى مارت فى وجدانه كانت أعنف من أن يحتملها الشيخ الذى أمضى حياته فى اللهو والميسر والشراب .

وكانت فاطمة بنت أسد تذرف الدمع الهتون وما كانت لتحفل بذلك الذى يجرى بين سادات قريش وبين الرسول عليه السلام ، فقد كانت حزينة حتى الموت لفراق الرجل الذى شاركها الحياة والذى كان نور العينين وهواء الرئتين وخفقات الفؤاد .

وشهق أبو طالب شهقة فإذا به فى الغابرين ، فأطرق رسول الله — ﷺ — وهو واله حزين ، ثم ألقى نظرة وداع على عمه الحبيب فقال :

— أما والله لأستغفرن لك .

وضاق صدر على ابن أبى طالب فجعل يغدو ويروح وهو يسح الدموع ، وملأ الرضا قلوب أبى سفيان وأبى جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبىّ ابنى خلف وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البخترى ، فقد مات أبو طالب على ملتهم ملة عبد المطلب وهاشم وآبائهم الأولين .

ورأى على بن أبى طالب من خلال دموعه الراحة التى ارتسمت على وجوه شيوخ قومه فأحس كأن خناجر مسمومة تمزق أحشاءه ، إنه لم يقف من قبل موقفا أغيظ له من هذا فأبوه قد اختار النار على الجنة ، وكفار قريش قد اغتبطوا لموت أبيه على الكفر فلن ينسى لهم أبدا أنهم هم الذين حرضوا أباه على أن يموت على ملة عبد المطلب وهاشم وقضى ، أيقظوا فيه فى لحظة ضعف عصبية الجاهلية ودفعوا به إلى السعير .

وخرج رسول الله — ﷺ — وعيناه تفيضان من الدمع حزنا يشكو بثه إلى الله ، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى خديجة ينبئها أن عمه الحبيب قد مات لتشاركه فى أحزانه ولتحمل عنه بعض ما يضيق صدره ، فخديجة مسجاة فى فراشها قد ثقل عليه المرض منذ أيام .

وبقى رسول الله — ﷺ — وحده وقد فاض فؤاده بالأسى ، وراح يتذكر أيامه مع أبى طالب ، يتذكر طفولته ورحلة الشام ، وعرض عمه عليه أن يؤجر نفسه لخديجة ، وخطبة عمه يوم أن ذهب معه ليخطب الطاهرة سيدة نساء قريش ، وذلك اليوم الذى تكلمت فيه قريش وطلبت منه أن يخلى بينهم وبينه عليه السلام ، وإباءه ذلك وقوله له عليه السلام اذهب يابن أخى وقل ما أحببت .

إنه جزء من حياته ، إنه جزء من رسالته ، فإن كانت خديجة أم المؤمنين حاضنة الإسلام فأبو طالب قد دافع عنه دفاع الصناديد ولو أنه لم يعتنق دينه إيمانا منه بالحرية . إنه أبى أن يسلم ابن أخيه وقبل منابذة المشركين لبنى هاشم وبنى المطلب ، ودخل فى الشعب وحوصر واحتمل آلام الاضطهاد والجوع . إنه يستحق أن يبتهل رسول الله — ﷺ — إلى ربه ودموعه تجرى على خديه وأن يستغفر للرجل الذى حدب عليه وكان يحيطه وينصره ، وقبل أن يرفع أكف الضراعة إلى الله تفصد العرق منه وثقل جسمه ونزل عليه الوحى بآيات ربه : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[1] .

---

(١) التوبة ١١٣ .

## ٢٢

كانت خديجة مسجاة فى فراشها وقد ذبلت ودب الوهن فى جسدها ، ولكن عقلها كان صاحيا فكانت الذكريات تنثال على رأسها ، إنها ترى ذلك اليوم الذى خرجت فيه إلى الحرم مع سيدات من قومها فى عيد من أعيادهم وجاء يهودى ووقف يصيح : هذا زمان ظهور نبى ، فمن استطاعت منكن أن تكون له فراشا فلتفعل . وإنها لترى النساء يحصبنه بالحصى بينما وقفت ساكنة ، وإن كان قوله قد استقر فى سويداء قلبها .

وإنها لتذكر ذلك اليوم الذى رأت فيه فى منامها الشمس تهبط من السماء لتستقر فى سقف دارها فتنشر منها ضياءها على العالمين ، ورأت بعين خيالها قوافلها تستعد للخروج إلى الشام ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح بين مخازنها والقافلة وهى ترقبه من العالية ، وسرعان ما رن فى ضميرها صوت ميسرة وهو يحدثها عن الأمين وعن الأرباح التى كسبوها بحسن خلقه وجميل شمائله .

وجاء رسول الله ــ ﷺ ــ وهو يحاول أن يخفى القلق الذى استبد به وراح يسألها كيف أصبحت ، وجلس إليها يحدثها فى رقة ويحوطها بحبه فكانت على الرغم مما تعانى من آلام مرضها تستشعر راحة نفسية ، فهو حبيبها وزوجها ورسولها الذى أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والسلام ، وأخذ بيدها إلى النبع الروحى الصافى الذى نهلت منه فلم تظمأ بعدها أبدا . إنه ارتفع بها من دنيا الماديات إلى عوالم السعادة الأبدية ، فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال نفحات ربها وعرفها سبل اللذة

الحقة ، لذة النظر إلى وجه الله والسعادة بالقرب منه والاستبشار بإشراق أنوار المعارف فى عين ذاتها .

ورأته بعينيها الزائغتين فحاولت أن تبتسم فى جهد دون جدوى ، فهى تحاول حتى فى أشد الأوقات قسوة أن تلقاه باشة ، فهو زوج كريم لم يخدش كبرياءها أبدا ، ظل منذ أن تزوجها الزوج الوفى الذى لم يفكر فى أن يتزوج أخرى أو يتسرى بجارية من الجوارى ، وما كان فى مكة كلها من اكتفى بزوجة واحدة فالرجال يتزوجون كيفما يشاءون ويتسرون بالإماء دون حدود . ولكن رسول الله — ﷺ — كان يحبها حبا ملك عليه كل عواطفه ، حبا صافيا عظيما جليلا لا يدع مجالا لحب آخر ، وقد شد أواصر ذلك الحب أن الزوجين الكريمين كانا يحبان ذات الله ويتفانيان فى عبادته .

ومرت بخيالها الليالى التى كانت تقومها خلف رسول الله — ﷺ — تصلى فى استغراق ، حتى تغيب عن الدنيا وترتفع على أجنحة الشوق لتهيم فى ملكوت السماء تغترف من خزائنه لطائف المعارف والسعادة السرمدية.. والساعات الطويلة التى كانت تقفها بين يدى ربها تبتهل إليه والدموع تسيل على خديها أن ينصر رسوله وأن يتم نوره ، فلفها أسى عميق أن ستغادر الدنيا تاركة محمدا عليه السلام ليقطع الشوط وحده دون أن تشاركه لذة الكفاح والبذل حتى يأتى نصر الله . فاغرورقت عيناها بالدموع وخنقتها عبراتها .

إنها ذاهبة إلى إله كريم زهدت فى الدنيا من أجله وأنفقت أموالها فى سبيله وبذلت كل ما فى طاقتها بل ما فوق طاقتها لتؤيد رسوله وتهيئ له الأسباب ليبلغ رسالات ربه . إنها ليست حزينة على إدبارها ولكنها تكاد

أن تتمزق أسى كلما خطر لها أن سيصبح زوجها الحبيب وحده أمام الذين قست قلوبهم ، دون أن يجد القلب الحنون الذى يمسح آلام نفسه التى تمزقها سخرية الساخرين وهزء المستهزئين ممن بعثه الله لهم هدى ورحمة ونورا .

إنها على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان يعود إليها بعد أن يعرض على الناس دين الله ويتلقى إهاناتهم مرهقا حزينا ، فكانت تواسيه وتغمره بعطفها حتى تصفو نفسه ويستعيد عزمه وتشتد روح الكفاح فيه . فإلى من يعود رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بعد الجهاد والتعب والكفاح ؟ سيعود إلى بيت خلا من الأنيس الذى يشاركه فى حمل متاعبه . سيعود إلى الوحدة والصمت وإرسال الخيال إلى ما لاقى من اضطهاد فيزداد حزنا على حزن .

سيتألم دون أن يجد من يخفف عنه آلامه . سيبكى دون أن يجد من يجفف له دموعه ، سيغلق صدره على لوعة نفسه فلن يجد من يبثه أشجانه ، سيدخل صامتا ويخرج صامتا وما أقسى أن يصبح صاحب الحس المرهف حليف الوحدة والأحزان .

كانت الدموع تبلل روحها والأسى يعتصر قلبها لأنها ستترك الرجل الذى ملأ حياتها غنى وحده ، لأنها ستحرم اللذة الروحية الصافية التى كانت تنعم بها حتى فى أقسى أيام الاضطهاد . لقد أكلت ورق الشجر أيام أن حاصرهم الكافرون فى شعب أبى طالب ، ولكنها كانت متفرحة بالله ، سعيدة بالأنس به ، مستبشرة بترقب رحمته . كانت حياتها مذ عرفت رسول الله — ﷺ — حقيقة أمتع من الأحلام ، مفعمة بالروعة والآمال التى كانت تسمو فوق كل الآلام .

وأطبقت جفنيها على عينيها ولكن الرؤى استمرت تلح على خيالها وصدى صوت رسول الله — ﷺ — يهمس فى وجدانها ، إنها تسمعه وهو يقول لها : إن جبريل يقرئك السلام من ربك ، فترتجف من الرأس إلى القدم ؛ ويسرى فى ضميرها ترجيع صوت الرسول عليه السلام وهو يتلو القرآن ، فتحس كأنما ترتفع لترفرف فى السماوات العلى وقد غمرتها رقة فياضة تفيض من المآقى عبرات وبستجيب لها القلب الواهن شدة خفقات .

ومر بخاطرها يوم أن مات القاسم فاستشعرت أسى ، إنها لم تفطن فى ذلك اليوم إلى عظم الفاجعة فما كان أبو القاسم قد نبئ بعد . أما الآن فإنها تقدر فداحة المصاب ، فلو أن القاسم كتب له أن يعيش لورث مجد النبوة ولكانت منه سلالة رسول الله — ﷺ — .

وطاف بها طيف عبد الله الطيب الطاهر الذى قرت به عينا وفرح رسول الله — ﷺ — لمولده وسر به المسلمون سرورا عظيما لأنه قد أصبح لنبيهم من يحفظ فيهم نسله الشريف . إنها كادت أن تطير به فرحا فقد جاءها بعد أن يئست من أن تلد لرسول الله — ﷺ — ذكرا . ولكن نشوتها ماتت فى مهدها فقد فاضت روح ابنها الحبيب فى أحضان أبيه الواله الحزين ، حزنت على عبد الله حزنا كاد ينقض ظهرها ولكنها وجدت السلوى فى تفريغ القلب من شواغله والإقبال بكنه الهمة على الله ، والعزاء فى أنها قد أصبحت أم المؤمنين جميعا .

وراح رسول الله — ﷺ — ينظر فى وجهها فيلفه خوف شديد . كانت الطاهرة وسيدة نساء قريش ناصعة البياض غاضت حمرة وجنتيها وخبا بريق عينيها ومشى الفناء فى جسدها المسجى . أتموت أم المؤمنين ولما

يمض على موت عمه ثلاثة أيام ! إنه لم يفق بعد من هول فجيعته فى عمه أبى طالب . إنه حزن لموت عمه الذى نصره حزنا عميقا وزاد فى أساه أنه كان قد عزم على أن يستغفر لعمه ولكن الله نهاه عن أن يستغفر له . وقد أحس فداحة غياب خديجة من حياته لما كتم آلامه و لم يبثها شجونه ، فكيف يشكو إليها ما به وهى مريضة تسرع الخطا فى طريق الفناء ؟

الموت ؟! أتموت خديجة حقا ؟! أتتركه بلا نصير يلاطم أمواج الحياة وحده ؟ أتذهب وتترك داره بلا روح ؟ ومن للصبية من بعد الأم الرءوم التى تبسط حنانها على الجميع ؟ وحانت منه التفاتة إلى فاطمة الزهراء فأحس كأن كبده تكاد أن تنفطر . وزاد فى كربه أنه فطن إلى أن ابنته الحبيبة الرقيقة قد عرفت الموت فى وجه أمها ، فراحت تغالب دموعها حتى لا تؤذى ببكائها من كانت تغمرها بالحب والحنان .

أيفقد أبا طالب وخديجة فى ثلاثة أيام ؟ أيفقد الحماية والرعاية والعطف والتأييد والنصر فى ساعات ؟ إن موت أبى طالب كان فاجعة ، أما موت خديجة فكارثة ، ستجرح قلبه جرحا لن يندمل على الأيام . صدقته لما كذبه الناس ، وأنفقت أموالها راضية فى سبيل الله لما بخل الناس ، وواسته ونصرته لما عز الأنصار ، ولولا حضانتها للإسلام لما بلغت دعوته ما بلغته .

وشرد رسول الله — ﷺ — وفى وجهه أعمق الأسى ، وراح يقلب صفحات الماضى فى وجد وقد غلبته رقته فترقرقت الدموع فى عينيه . رأى نفسه وقد عاد من غار حراء بعد أن نزل عليه الوحى ترتجف بوادره وخديجة تستقبله فى خوف ، حتى إذا ما سمعت منه ما كان بينه وبين الروح الأمين قالت له فى إيمان : أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده

إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

كان فى حاجة إلى من يسكن روعه ، فلم تكتف خديجة بإنزال السكينة على قلبه بل نفثت فى روحه من إيمانها وأيدته بتصديقها ، و لم تذهلها المفاجأة بل قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله — ﷺ — أنه رأى وسمع ، ثم رجعت مستبشرة إلى زوجها لتقول له إن ابن عمها قال لما سمع منها : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة .

وراحت خديجة تدور على أحبار اليهود ورهبان النصارى تسأل عن جبريل فيقال لها : قدوس قدوس ! يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم ؟ فتقول : بعلى ابن عمى أخبرنى أنه يأتيه . فيقال لها : ما علم به إلا نبى ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، فإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا أن يتسمى به .

إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى سمع فيه صوتا من السماء فرفع بصره فإذا الملك الذى جاءه بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعب منه أشد الرعب فرجع إلى خديجة يقول لها :

— زملونى زملونى !

إنه لا يستطيع أن ينسى عطفها السابغ وحدبها عليه وثباتها . فلو أن خديجة فزعت أو ذهبت نفسها شعاعا لزادت فى آلامه ، فإنه أشفق على نفسه أن يكون به كهانة ، وخشى أن يكون به جنون ، ولكن قولها العظيم الذى قالته بدد مخاوفه . إن ذلك القول يمده بقوة هائلة كلما اشتد به الكرب وإنه ليسرى فى ضميره كأجمل أنشودة ترددت فى وجدان الزمن :

« كلا يابن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » .

ورقت نفسه وود لو أجهش بالبكاء ، ولكنه كان يغالب دموعه وإن سرت فى كل كيانه مرارة الفراق . فما أقسى أن يتصور أن سيعود يوما إلى الدار وقد خلت من الطاهرة ، من كانت ابتسامتها التى تستقبله بها تغسل أوصاب نفسه ، وإقبالها عليه وقد تهللت بالفرح يجدد آماله التي كاد يزعزعها عناد المعاندين وهزء المستهزئين . إنه ما سمع شيئا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به . إنه لا يدرى ماذا يكون حاله لو لم يكن الله قد قيض له خديجة لتكون حاضنة الإسلام وراعية رسوله .

وأحس فى تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى أن الله قد اصطفى خديجة لتكون زوجة رسوله لأن الله يعلم ما أودع فى قلبها من كنوز غالية نادرة قلما تجتمع فى قلب امرأة : حب عارم لله ورسوله ، وإيمان عميق بالله ورسوله ، وعدم خشية لومة لائم فى الله ورسوله ، وإنفاق عن طيب خاطر فى سبيل الله ورسوله ، وتضحية عن رضا بكل غال مرضاة لله ورسوله ، وزهد فى الدنيا وقطع كل العلائق بها للإقبال بكنه الهمة على الله ورسوله . كان فؤادها مستودعا لكل ما فى البشرية من جلال وفضائل وخلق عظيم .

وطاف بذهنه أول يوم خرج فيه إلى الكعبة ليصلى لله و لم يكن معه غير سيدة نساء قريش وعلى بن أبى طالب . كانت ثابتة الخطو هادئة النفس لاذت بالسكينة كأنما لم تكن خارجة لتعلن على الملأ أنها اختارت دينا غير دين قومها ، وأنها كفرت بما ورثت من عقائد أسلافها ، غير حافلة بأنها تسفه أحلام الآباء ما دامت قد أحست إشراق أنوار اليقين فى عين ذاتها ، إن أروع ما فيها أنها صادقة مع نفسها قد وهبت حياتها وما ملكت يداها لله

ولرسول الله .

وجاء ابنها هند بن أبى هالة ومال عليها وقبلها وراح يسألها :

ـــ كيف أنت يا أمه ؟

فحاولت أن تحرك شفتيها ولكنها عجزت عن أن تتكلم ، ففتحت عينيها وملأتهما منه ، ثم التفتت إلى زوجها الكريم فإذا بالأسى يغمره وإذا به يحاول أن يبعد عينيه عن عينيها حتى لا ترى ما فيهما من أحزان . إنه رقيق مرهف الحس . ويا طالما تهللت بالفرح كلما ارتادت معه عوالم ما فوق الطبيعة وما وراء المحسوسات ، ويا طالما انقلبت مستبشرة بشرف ما حصلت عليه من معلومات وسعيدة بالعطايا النورانية التى وهبت لها من جود الله وكرمه ، ولكنها فى هذه اللحظة أحست أن يدا قوية تعتصر قلبها لا جزعا من الموت بل حزنا على فراق رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وجاء أسامة بن زيد وارتمى فى أحضان الرسول عليه السلام ، كان زيد ابن محمد قد تزوج أم أيمن وكان أسامة ثمرة ذلك الزواج الذى باركه رسول الله ـــ ﷺ ـــ . وكان عليه السلام يحب زيدا ويحب أسامة ، فكان يقال لأسامة الحب ابن الحب . وكان الرسول يبتهج إذا ما مشى إليه ، وكان يستقبله بالترحاب ويقبله فى عطف أبوى ، ولكنه احتوى الصبى بين ذراعيه وهو صامت ، فقد كان قلبه ينز حزنا على خديجة الوفية التقية التى أحسنت فى هذه الدنيا حسنة وهى على صراط مستقيم .

وذاع فى مكة أن أم المؤمنين تجود بأنفاسها فهرعت إليها أختها هالة وابنتها زينب وزوجها العاص بن الربيع ، وخرجت تشتد إليها أم الفضل زوجة العباس ، وفاطمة بنت أسد وإن لم يمض على موت زوجها أبى طالب ثلاثة أيام ، فقد تعلقت بالطاهرة القلوب .

ودخلت زينب على أمها ونظرت فى وجهها فلاح عليها الجزع الشديد ، ورأى رسول الله — ﷺ — الحزن والألم فى وجه ابنته فلم يحتمل البقاء فانسحب خارجا يبكى وينتحب ليطفئ النار التى تلظت بين ضلوعه .

وراحت زينب تنادى أمها الحبيبة فى لهفة ، وهالة تذرف الدموع على أختها ، وفاطمة الزهراء تتلوى من الألم وعبراتها تغسل وجهها . وفتحت أم المؤمنين عينيها فرأت زينب فمدت يدها وقبضت بها على يد الغالية ، وشرد خيالها فرأت رقية وزوجها عثمان بن عفان وقد وقفا يودِّعانها قبل الهجرة إلى الحبشة . كانا كملكين كريمين جميلين جليلين يفران من الأبالسة ، فعقبة بن أبى معيط زوج أم عثمان بعد موت عفان ، قد سامهما سوء العذاب حتى هان عليهما فراق الأهل والوطن والأحباب .

وملأها على الرغم من الوهن الذى مشى فى بدنها حنين إلى رقية وعثمان ، فيا طالما سمعت من زوجها عن جمال سارة زوج إبراهيم فكانت تتخيلها كرقية ، ويا طالما سمعت منه عن جمال يوسف فكانت تراه بعين خيالها فى صورة عثمان . وكانت تصغى إلى سورة يوسف فتتحرك أشجانها للغلام الذى انتزعته القسوة من أحضان أهله . وما دار بخلدها أن سيأتى يوم تفر فيه بناتها من وجه الاضطهاد .

إن رقية هناك فى الحبشة وهى تتلهف على أن تراها قبل أن تموت ، إنها فى شوق إلى أن تشم ريحها ، إلى أن تمرر يدها على شعرها ، إلى أن تضم صدرها إلى صدرها ، إلى أن تلثم عينيها ووجنتيها وشفتيها ، وأن تمتزج دموعها بعبراتها ، وأن تختلط أنفاسها بأنفاسها ، ولكن هيهات ! ستذهب دون أن تودع فلذة كبدها فقد كان وداعها يوم أن خرجت إلى الحبشة

آخر الوداع .

وشهقت أم كلثوم شهقة وهى فى غمرة الأسى فالتفتت إليها العيون الدامعة كأنما تنهاها عن ذلك النحيب الذى يؤذى الطاهرة ، فانسلت من الغرفة لا يرقأ لها دمع فإذا بأبيها عند باب الغرفة واقف يسح الدموع ، فاستشعرت أم كلثوم كأنها ستلفظ زوجها مع عبراتها .

ودخل على بن أبى طالب وقد تمزق حزنا على موت أبيه على كفره ، وما مد الفتى عينيه إلى أم المؤمنين حتى أحس بقلبه ينخلع من مكانه ، أينضب ينبوع الحنان الذى نهل منه أنبل المشاعر مذ جاء إلى هذه الدار مع ابن عمه ؟ أتغيب أم المؤمنين من حياة رسول الله عليه السلام ؟ وما دار بخلده ذلك الخاطر حتى فزع وغص فما كان بقادر على أن يتصور عيش رسول الله الحبيب وقد اختفت من حياته الطاهرة وزيره وعونه بعد الله .

وراح الفتى يبكى فى صمت المروءة والشجاعة والأنفة والحنان وحلاوة اللسان وصدق النية وصلاح السريرة ، إنها كانت تعمل للآخرة دائما أبدا ، لا تنفك عن ذكر المعاد . رضيت عن الله ورضى الله عنها ، فطوبى لخديجة ولرسول الله العزاء .

وجاء حكيم بن حزام يلقى على عمته نظرة أخيرة فوقف أمام جلال الموت مطأطئا حزينا ، نسى فى تلك اللحظة أنها حاضنة ذلك الدين الذى جاء به زوجها ليسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ويفرق به بين الأخ وأخيه والرجل وصاحبته والأب وبنيه ، و لم يعد يذكر إلا أنها عمته التى كانت تغمره بحنانها وكان يهفو إليها قلبه . إنه يحبها حبا صادقا على الرغم من كل ما كان بينه وبينها من أمر الدين ، وإنه يحسن غصص الدموع فى حلقه وقد فاض بها وجدانه ، وراح يجاهد دموعه فلزم الصمت فكان صمته أبلغ

بيان .

وهرعت نساء بنى هاشم وبنى أسد إلى دارها وفاضت بهن غرفتها ، وجاءت أم أيمن إلى رسول الله — ﷺ — وقد أفحمت بالبكاء تقول له إن سيدتها الطاهرة تطلبه ، فوقف عليه السلام أمام باب حجرتها لا يستطيع أن يتقدم خطوة ، فأم المؤمنين فى النزع الأخير وهو لا يحتمل أن يراها وقد ضاق صدرها بروحها . إنه يتمزق من الألم ويهتز من الحزن حتى ليكاد ينهار ، واختلس إليه النظرات على بن أبى طالب وزيد بن محمد وهند بن أبى هالة فانقبضت قلوبهم وأحسوا كأن شوكا يعترض حناجرهم وقد تحركت فيهم الشفقة على حبيبهم حتى كادت أن تنسيهم عظم فجيعتهم فى الأم الحنون التى سكبت فى وجدانهم أرق المشاعر وأنبل الإحساسات .

وجاءت أم الفضل إلى رسول الله — ﷺ — وعيناها تفيضان من الدمع حزنا لتقول له إن خديجة تناديه ، فجعل رسول الله يتلفت بعينين زائغتين وقد نزل به حزن ثقيل ، وأشفق على نفسه من قسوة معاينة الطاهرة وهى تموت فلم تطاوعه قدماه على الدخول بل ظل فى مكانه عند الباب لا يريم وقد سرت جمرات الحزن بين ضلوعه .

وارتفعت الأصوات بالنحيب فكان ذلك إيذانا بانطواء أربع وعشرين سنة وثمانية أشهر شاركت فيها خديجة بعلها العظيم حياة التقشف التى فرضها على نفسه قبل الرسالة ، وحياة الكفاح وتحمل كل الإساءات فى سبيل الرسالة وإشراق النور . وصكت الأصوات آذان الواقفين خارج غرفة الطاهرة مطرقين فانفجروا بالبكاء . وقد ذهل رسول الله — ﷺ — عن نفسه فانخرط فى النحيب ، ولم تقو رجلاه على حمله فانهار وهو يحس كأن نارا استشرت فى جوفه ، فإنه لشىء أليم موجع لقلبه أن تذهب

خديجة رفيقته وأنيسته وأن تتركه وحده فى ظلام الطريق .

واستشعر كأن العواصف والأعاصير قد هبت عليه وهو يضرب فى بيداء الحياة وليس له من ناصر يعينه على تبليغ رسالات ربه . وزاد فى كربه أن زينب وأم كلثوم وفاطمة الزهراء كن يولولن ويندبن الطاهرة سيدة نساء قريش وأم المؤمنين ، وأن أم أيمن جعلت تغدو وتروح والهة حزينة بينا راح أسامة يجأر بالبكاء يعلو صوته على صوت الجميع .

وجاء المسلمون إلى بيت نبيهم مهطعين يحملون أحزانهم وقد راح كل منهم يفكر فى أسى فى كلمات يعزون بها رسول الله — ﷺ ، حتى إذا ما أقبلوا عليه ورأوا فى وجهه لوعة الحزن عقدت ألسنتهم فقد عز العزاء ، وأطرقوا برءوسهم يبكون فى صمت أليم .

وأقبل أبو بكر يستعبر فلما رأى حبيبه محمدا عليه السلام قد هدته الفاجعة سرت فى بدنه رعدة و لم يقو على كبح جماح عواطفه فارتفع صوته بالنشيج ، واندفع إلى رسول الله عليه السلام وضمه إلى صدره كأنما يود لو يحميه من الأشجان التى انقضت عليه ، فتعانق الصديقان يبكيان ويذرفان أغلى الدموع على جاضنة الإسلام الغالية .

ونظر حمزة وعمر إلى الصديقين المتعانقين اللذين غسلت العبرات وجهيهما ، فتفجرت ينابيع الأسى بين ضلوعهما وسحت أعينهما الدموع تنفيسا عن اللوعة التى تكاد أن تكتم الأنفاس ، ورنا أبو لهب إلى ابن أخيه الذى أعتق جاريته يوم أن بشرته بمولده فرق له قلبه ونسى فى غمرة الحزن ما كان بينهما من خصام ، فسالت دموعه تغسل لحيته الحمراء .

وجهزت خديجة فحمل المسلمون نعشها وساروا به فى الطريق الذى طالما قطعته خديجة فى جاهليتها وفى إسلامها ومن حولها إماؤها إلى الحرم .

وكان وجوه قريش وسادات مكة من مسلمين وكافرين يسيرون فى الجنازة مطرق الرءوس يسيرون فى هدوء ، وقد غمرتهم الأحزان . فمنذ ثلاثة أيام قبروا أبا طالب وها هم أولاء ينطلقون اليوم لقبر الطاهرة ، فأفئدتهم لا تزال ممتلئة بالعبرة .

وساروا إلى الحجون وقد ثارت العواطف فى الأفئدة . كان رسول الله ــ ﷺ ــ الذى ألف الله به إخوانا وفرق أقرانا وأعز به الذلة وأذل به العزة يستشعر كأنما يودع قطعة عزيزة من نفسه ، أو جزءا أصيلا من سويداء قلبه ، وكانت وجوه المسلمين باسرة وقلوبهم باكية يزيد فى أساهم أنهم يحسون فى صميم وجودهم أن السماء تبكى على أم المؤمنين ، ناصرة الإسلام .

وبلغوا القبر فاشتد النحيب حتى تجاوبت به جبال مكة التى تطل على الحجون ، والتف المسلمون برسول الله عليه السلام يبكون وهو يذرف الدمع الهتون ، فكانت أفئدتهم تتمزق حزنا لحزن نبيهم الذى نزل حبه بسويداء قلوبهم . ودلى الجسد الطاهر فى القبر فجأر الناس بالبكاء وجزع المسلمون جزعا شديدا ، فنبيهم الكريم قد خنقته عبراته وارتفع صوته بالنشيج لينفس عما يتلظى بين ضلوعه من نيران الأحزان .

وغيبت فى الثرى أول من أشرق قلبها بأنوار اليقين بعد رسول الله ــ ﷺ ــ ، وطويت صفحة من أنبل صفحات البشرية ، وأغلى الدموع تذرف على الطاهرة سيدة قريش حاضنة الإسلام أم المؤمنين عليها السلام .

## ٢٣

مات أبو طالب فأحس أعداء الرسول — ﷺ — راحة فقد انهار السد المنيع الذى كان يحول بينهم وبين صب جام غضبهم على أبى القاسم ، فلن يجد بعد اليوم من يمنعهم من إنزال الأذى به وتعذيبه حتى يعود إلى ملتهم ، أو يقتلوه وبستريحوا من تلك الفتنة التى لم تترك دارا من دور مكة إلا دخلتها وفرقت أهلها شيعا وأحزابا .

وماتت خديجة فنزل بدارها حزن عميق ، وكان أكثر المحزونين محمدا عليه السلام ، فلم تكن خديجة زوجة عاقلة رشيدة وحسب ، بل كانت نعم العون لزوجها على تبليغ رسالات ربه ، إن قلبه يتمزق أسى على فراقها ولكن ما كان حزنه ليمنعه من أن يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الصراط المستقيم ويرشدهم إلى سبل ربه .

غادر محمد عليه السلام الغرفة التى أعدت لعبادته وسار فى الردهة خطوات يتحاشى أن يلتفت إلى الحجرة التى فاضت فيها روح الطاهرة ، ثم هبط فى الدرج ومشى هونا فى الممر الذى يقود إلى الباب . حتى إذا ما وقف على عتبته وهم بأن يصعد إلى الطريق إذا بالحجارة تصوب إليه من دور أبى جهل والأسود بن عبد يغوث وأمية وأبّى ابنى خلف والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، فتقهقر عليه السلام يحتمى بالحجر الكبير الذى كان فى ممر الدار ، والحجارة تهطل عليه هطول المطر المدرار .

وامتلأ رسول الله عليه الصلاة والسلام بالحنق والغضب ، فقومه قد بيتوا العزم على أن يجاهروا بعداوته وأن يسوموه سوء العذاب وأن يقتلوه

دون أن يخشوا بنى هاشم وبنى المطلب . فقد أصبح فى الغابرين الرجل الذى كان يستطيع أن يجمع الهاشميين جميعا مسلمين وكافرين لنصرة ابن أخيه ، وما من رجل هاشمى بقادر على ذلك غير أبى لهب ، وأبو لهب من حزبهم قد شن أقسى ألوان الاضطهاد على ابن أخيه واشترك مع الكافرين فى حصار عشيرته فى شعب أبى طالب .

رأى رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — تهجم قريش فتذكر أبا طالب فقال :

— يا عم ، ما أسرع ما وجدت فقدك .

لم يكن رسول الله عليه السلام يخشى القتل بعد أن كتب الله على نفسه أنه سيعصمه من الناس ، ولكنه ما كان بقادر على أن يخرج من خلف الحجر الذى احتمى به ، فقذائف الحجارة تنهال عليه من بيوت جيرانه فى إصرار كأنما قد عزموا على أن يضعوا حدا للعداوة الناشبة بينهم وبينه .

كانت دار أبى لهب تطل على دار خديجة فصكت أصوات الحجارة مسامع أبى لهب فراح ينظر ، فرأى جيران ابن أخيه يلقون عليه الحجارة فى ضراوة . لقد نالت قريش من رسول الله — ﷺ — ما لم تكن تناله فى حياة أبى طالب ، فتحركت فى أبى لهب نخوته فانطلق مهرولا إلى حيث كان ابن أخيه مختبئا . فلما رأى الرجال أبا لهب يشتد إلى دار خديجة كفوا عن إلقاء الحجارة وقد تهللوا بالفرح ، فقد حسبوا أن أبا لهب سيسلمه لهم ليقتلوه فتطيب نفوسهم بعودة عزتهم التى أذلها ابن عبد الله .

وجاء أبو لهب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، امض لما أردت وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه . لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وخرج أبو لهب مع ابن أخيه يحدثه فى ود وأبو جهل والنضر وعقبة بن أبى معيط وسادات قريش الذين قبضوا على الحجارة بأيديهم ينظرون فى دهش ، فما خطر لهم على قلب أن يحمى أبو لهب ابن أخيه الذى قال فيه قرآنا كله هجاء قاذع يتلوه المسلمون .

واتفق أن أحد المستهزئين سب النبى — ﷺ — فأقبل عليه أبو لهب ونال منه ، فولى وهو يصيح :

— يا معشر قريش ، صبأ أبو عتبة .

فأقبلت قريش على أبى لهب وقالوا له :

— أفارقت دين عبد المطلب ؟

— ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكن أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى إلى ما يريد .

— أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

وما كانوا صادقين فيما قالوا بل كانوا لا يريدون معارضة أبى لهب حتى لا يزداد إصرارا على تأييد الرسول عليه السلام . وأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بين أبى القاسم وعمه فما أيسر إثارة غضب حليف الخمر والميسر .

وجعل الرسول عليه السلام يدعو الناس إلى الإسلام وهو مطمئن إلى نصرة عمه لا يخشى إيذاء المشركين ، وأحنق أبا جهل وعقبة بن أبى معيط بسط أبى لهب حمايته على ابن أخيه ، فقد رسما خططهما بعد موت أبى طالب للإجهاز على عدوهما اللدود ظنا منهما أن اختفاء أبى طالب سيترك الصابئ بلا ناصر . أما وقد قام أبو لهب دونه فلا بد من الإيقاع بين سيد بنى هاشم الجديد وأبى القاسم .

كان عجبا أن يقوم عدو ابن أخيه اللدود دونه ، فراحت أم جميل تلوم زوجها على مساندة من هجاهما فى قرآنه أشد الهجاء ، ومشى رجال من أعداء الرسول عليه السلام إلى المرأة الحانقة يؤججون نيران حقدها على ابن عبد الله ويوسوسون لها أن تلتقط أذن زوجها تنفث فيها نقض ذلك العهد العجيب الذى قطعه على نفسه ، وما كانت المرأة فى حاجة إلى إيعاز فنفسها الممرورة كانت كفيلة بأن تحيل حياة أبى لهب جحيما مادام على عهده لمنافس أخيها أبى سفيان .

ومكث رسول الله أياما يعرض نفسه ودين الله على الناس لا يتعرض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب ، إلى أن انطلق أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى رسول الله — ﷺ — فقال له أبو جهل :

— يا محمد أين مدخل أبى طالب[1] ؟

— فى النار .

فانطلق أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى أبى لهب فقالا له :

— أأخبرك ابن أخيك أين مدخل أخيك أبى طالب ؟ يزعم أنه فى النار .

فذهب أبو لهب إلى ابن أخيه فقال :

— يا محمد أين مدخل أبى طالب ؟

لم يشأ أن يثير عداوة عمه الذى يحميه ، و لم يكن ليكذب قط ولو خسر العالم كله فقال :

— مع قومه .

---

(١) فى الأصل عبد المطلب وأعتقد أن ذلك خطأ لأن عبد المطلب من أهل الفترة ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

فخرج أبو لهب إلى أبى جهل وعقبة فقال :

ـــ قد سألته فقال مع قومه .

فقالا :

ـــ يزعم أنه فى النار .

فعاد أبو لهب إلى الرسول عليه السلام فقال :

ـــ يا محمد أيدخل أبو طالب النار ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أسى :

ـــ نعم ، ومن مات على مثل ما مات عليه أبو طالب دخل النار .

إنه موقف شديد على الرسول عليه السلام ، فأبو طالب قد نصره وهو يحبه ولكن حبه ربه أشد ، وما كان يستطيع أن يكذب على الله ولو فقد تأييد أبى لهب ، فقال أبو لهب فى حدة :

ـــ لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن أبا طالب فى النار .

واشتد على رسول الله عليه السلام وعادت قريش إلى إيذائه ، فبينا هو فى طريقه إلى داره حزينا لموت أبى طالب وفقد خديجة التى كان يجد عندها العطف والمواساة ، إذا ببعض سفهاء قريش نثر على رأسه التراب فدخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكى ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول لها :

ـــ لا تبكى ، لا تبكى يا بنية ، فإن الله تعالى مانع أباك .

وجلس الرسول صلوات الله وسلامه عليه مهموما من كيد الكافرين ، وزاد فى أساه أنه بدأ يحس قسوة غياب خديجة من حياته ، فما ملكت بناته غير البكاء وما خفت إليه إحداهن تمسح عنه أحزانه ، وما كان ليرضى أن يبثهن آلامه أو يحدثهن عن لوعة الأسى المتأججة بين ضلوعه ، فقد كان

أكبر من أن يحملهن همه ، بل صار عليه أن يحملا أعباءه وأعباءهن بعد أن استجابت سيدة الدار لنداء ربها ، وتركته بلا أنيس فى الأرض يكشف له عن خبيئة نفسه ، ولا وزير صدق يشاركه التفكير والتدبير ، بينما العواطف الجياشة تمور فى الصدور .

وأطرق عليه السلام يفكر فى أمره ، فوجد أشد الناس عداوة له أبا جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وابنى خلف . فأبو جهل قد شنها عليه حربا لا هوادة فيها منذ أوحى إليه ، وعقبة قد داس على رقبته ذات يوم بينا كان ساجدا لله فى الحرم حتى إن عينيه كادتا أن تخرجا من محجريهما فانتصب عليه السلام قائما وهو يتوعد عقبة بالقتل إن لقيه خارج مكة ، ومنذ ذلك اليوم لم يُنه — ﷺ — عما توعد به ابن أبى معيط وزاد عقبة طغيانا وكفرا .

تزوج عقبة بن أبى معيط أروى بنت عمر بن كريز ابنة عمته أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله بعد أن مات عنها عفان ، و لم يخفف زواجه من ابنة عمته من حدة عداوته للإسلام والمسلمين ، بل إنه أوغل فى الكيد لرسول الله — ﷺ — واشتد فى إيذاء عثمان بن عفان ابن زوجه ورقية بنت محمد عليه السلام حتى خرجا مهاجرين إلى الحبشة ، فرارا من اضطهاد عقبة وصحبه .

ونهض عقبة مع أبى جهل والنضر وابنى خلف فى أمر مقاطعة بنى هاشم وضرب الحصار عليهم فى شعب أبى طالب ، وكانت له اليد الطولى فى تأليب عمه أبى لهب عليه بعد أن رق له قلبه وبسط عليه حمايته . كان محمد قد توعد عقبة بالقتل إذا لقيه خارج مكة ، وإنه وهو فى إطراقته الحزينة بعد أن استأنف أبو لهب عداوته واشتد عليه هو وقريش يجد أن القتل جزاء

وفاق لعقبة بن أبى معيط على ما جنت يداه .

وجعل يفكر فى النضر بن الحارث ابن خالته ، إنه يؤذيه ويكثر من إيذائه والنيل منه . وما أكثر أقاربه الذين آذوه ولكن النضر قد تجاوز كل حد فى عداوته ، لم يكتف بالسخرية منه بل راح يستهزئ بالله سبحانه وتعالى وقرآنه استهزاء الجاهلين . ولو وقع النضر ذات يوم فى يده فلن يدعه يمشى من بعد فى الأرض التى دنسها بأساطيره وسب الله بغير علم ، سبحان الله عما يصفون ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وانقضى الليل والرسولْ عليه السلام يناشد ربه ويدعوه ويشكو إليه هوانه على الناس والدموع تنهمر من عينيه ، فالخطوب تحيط به من كل جانب ، حزن ثقيل نزل بقلبه لموت أبى طالب وأم المؤمنين ، واشتداد الكافرين عليه شدة لم يذق مثلها قبل أن يفقد عمه الحبيب ، إنه أضعف من أن يقف أمام ذلك الطغيان الهائل وحده ، وهو فى أشد الحاجة إلى عون الله ونصره ، وهو على ثقة بالرغم من كل ما يلاقى من صعاب بأن نصر الله قريب .

وخرج إلى المسجد وهو شارد يستشعر فى أعماقه أن الكافرين يتربصون به ، ودخل إلى الحرم من باب بنى مخزوم ومد بصره فإذا بأبى بكر وعلى وبعض الصحاب قد جلسوا بالقرب من زمزم ، فمشى إليهم فوقعت عليه أعين سادات قريش فهبوا إليه مزمجرين وأخذوا يتجاذبونه وهم يقولون له ـــ ﷺ :

ـــ أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا .

وجعل بعضهم يدفعه إلى بعض وما دنا من أصحابه أحد إلا أبو بكر ،

لم يحتمل أن يرى رسوله ونبيه وصفيه وحبيبه وهم يتجاذبونه فانطلق إليهم يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول :

ـــ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

و لم يكن لينفعه دفاع أبى بكر عنه فالعداوة قد بلغت ذروتها ، فإما القتل وإما أن يخرج من مكة ، وفى شوال سنة عشرة من النبوة خرج إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة ضيق الصدر كسير الفؤاد ، لعله يجد فى ثقيف من يشرح الله صدورهم للإسلام ويقومون معه على من خالفه من قومه .

كان الحارث بن كلدة زوج خالته فى الطائف . أيكذبه الحارث كما كذبه ابنه النضر وقاوم رسالته ؟ وكان بها أمية بن أبى الصلت من كان يرجو أن يكون رسول الله ، وكان يجلس إلى نساء ثقيف يحدثهن أنه النبى الأمى الذى تفيض بذكره الكتب المقدسة ، فلما أخبره أبو سفيان أن النبى الذى كان يحدثه عنه قد بعث وأنه محمد بن عبد الله حسده ، فلما قال له أبو سفيان : أتصدقه ؟ قال أمية : ما كنت أتبع نبيا من غير ثقيف .

وكان بها أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفى . إنهم سادات ثقيف وأشرافها ، فلو تابعوه لوجد منعة ورجالا يناصرونه على الإسلام . وذهب ومعه زيد إلى دار الحارث ابن كلدة طبيب العرب وراح عليه السلام يعرض على زوج خالته الإسلام فلم يلق إليه سمعه ، بل راح يتيه عليه بأجزاء الحكمة التى جاء بها من الحيرة وحوران وبصرى ، وما كان ما جاء به إلا فتات موائد فلاسفة اليونان والرومان وأساطير الفرس .

وأعرض الحارث بن كلدة عن دعوة رسول الله ـــ ﷺ ـــ كما أعرض عنها من قبل ابنة النضر ، فقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو ضيق الصدر

يسير ومعه زيد بن حارثة إلى دار أمية بن أبى الصلت .

وفى دار أمية اشتد الجدال بين رسول الله — ﷺ — وبين من كان يطمع فى النبوة ، وقد كان حديث ابن أبى الصلت يقطر حسدا وحقدا . إنه لبس مسوح الرهبان وانقطع للعبادة وعكف على قراءة الكتب ليكون أهلا للرسالة ، ولكن الله جلت قدرته اصطفى غيره والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وغادر رسول الله — ﷺ — دار أمية بن أبى الصلت وهو حزين قد ضاق صدره بعناده ، فالرجل على علم بالله وكتبه ورسله ، بل إنه ليعلم أنه رسول الله حقا وصدقا ، فما باله لا يصدقه ولا يتبع الهدى ؟ فأنزل الله عليه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهد الله فهو المهتدى ومن يُضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] .

ودخل رسول الله — ﷺ — وزيد بن حارثة على أولاد عمرو بن عمير ، وكانوا إخوة ثلاثة : عبد ياليل وعبد كلال وحبيب . فلما جلس إليهم راح يكلمهم فيما جاءهم به ، يقول إنه رسول رب العالمين ويعرض عليهم الإسلام ونصرته والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم :

---

(١) الأعراف ١٧٥ — ١٧٨ .

ـــ إنى أمرط ( أنتف ) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال له آخر مستهزئا :

ـــ ما وجد الله أحدا يرسله غيرك .

وقال له الثالث :

ـــ والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسول الله كما تقول أنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام ـــ ﷺ ـــ من عندهم وقد أيس من خير ثقيف ، وخشى أن يبلغ قومه ما لقى من ثقيف من خذلان فيشتد أمرهم عليه ، فالتفت إلى أولاد عمرو بن عمير الثقفى وقال فى صوت متهدج قد بللته الدموع :

ـــ اكتموا على.

ـــ اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض .

وسار رسول الله عليه السلام ليخرج من الطائف وقد ضاق صدره وتعب خاطره واستولى عليه حزن ثقيل ، وانطلق زيد بن حارثة مطرق الرأس كسير الفؤاد ، وما ابتعدا قليلا عن سادات ثقيف وأشرافهم حتى أغروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم فخفوا إليه يسبونه ويصيحون به :

ـــ الكافر باللات . الصابئ .

واجتمع الناس عليه يؤذونه وزيد بن حارثة يحاول أن يفض السفهاء من حوله دون جدوى ، فقد كبر عليهم أن يأتى من مكة رجل يسب آلهتهم اللات فى عقر دارهم .

وقعدوا له صفين على طول الطريق وفى إيديهم الحجارة ما إن يمر بين الصفين حتى يرموا رجليه بالحجارة لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا

أرضخوها بالحجارة ، ونظر زيد بن حارثة فى جزع إلى الصفين فإذا بهما يمتدان على مدى بصره .

وراح رسول الله — ﷺ — يتقدم والسفهاء يدقون رجليه بالحجارة دقا ، وزيد بن حارثة يحاول أن يقيه بنفسه دون جدوى فشج رأسه وسالت الدماء من رجليه ، بيد أن ألمه لرسول الله — ﷺ — كان أشد من إلمه على نفسه .

واختصب نعلا رسول الله عليه السلام بالدماء ووجد ألم الحجارة ، فقعد إلى الأرض وقد نال منه الجهد وارتسم على وجهه أعمق آيات الألم وراح يلتقط أنفاسا مكروبة ، وزيد بن حارثة يحس أنه سيموت كمدا على الرسول الحبيب ، فخف السفهاء إليه فأخذوا بعضديه فأقاموه فدفعوه ليستأنف مسيره .

وراح محمد ( ﷺ ) يسير والحجارة تصوب من الصفين إلى قدميه فيسيل الدم الطاهر على الأرض ويترنح عليه السلام من العذاب بينا ضحكات السفهاء الماجنين تجلجل فى الفضاء ، وراح زيد بن حارثة يعاون أحب أهل الأرض إلى قلبه ليقيم صلبه ويقطع طريق الآلام ، ولكن الطريق ما كان لينتهى فالألم الذى كانا يحسانه كان فوق طاقة البشر . فقعد الرسول عليه السلام على الأرض مبهور الأنفاس ، وارتمى زيد بن حارثة وهو يكاد أن يغيب عن الوجود ، فخف الرجال إليهما فأخذوا بعضديهما فأقاموهما فدفعوهما إلى الطريق ليستأنفوا رضخ أقدامهما بالحجارة وهم يضحكون ، فالدماء الطاهرة التى تسيل على الرمال كانت تثير ضحك غلاظ الأكباد قساة القلوب .

وسارا وهما يسمعان الضحكات كأنما كانت آتية من مكان سحيق ،

وقد مادت الأرض تحت أقدامهما ورأيا السماء تتراقص وقد راحت الدماء ترسم أربعة خطوط حمراء على الأرض ، وقد ضاق صدر رسول الله — ﷺ — وصدر زيد بذلك الظلم المبين ، فما كان يخطر على قلب أن أقواما تقسو قلوبهم حتى يصبح تعذيب الأبرياء لعبتهم التى تشرح الصدور .

وتحمل الرسول عليه السلام ومولاه عذاب الهون حتى خلفا الصفين اللذين اصطفا من الظالمين على جانبى الطريق ، فلم يقو زيد على الوقوف فارتمى على الأرض يلهث ويلتقط أنفاسه فى جهد جهيد ، بينا رفع رسول الله — ﷺ — رأسه والدم يسيل من رجليه والعرق يتفصد من جبينه وقد امتزج بالتراب وراح يناجى ربه ويقول :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

كان طريق الآلام ينتهى عند بستان لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ، وكانا فى البستان يريان ما لقى أبو القاسم من سفهاء أهل الطائف فأشفقا عليه وطافت بهما رأفة ، فما ناله ابن عبد الله من إيذاء يمزق أقسى القلوب ، إنه كان ينوء من الجهد فتأبى قسوة السفهاء إلا أن يأخذوا بعضديه ليقيموه حتى يستأنفوا دق رجليه بالحجارة وهم يضحكون ملء الأشداق ، وهو يرفع رجليه ويضعهما والدماء تنبتق منهما لتروى الأرض .

وراح رسول الله — ﷺ — يعاون مولاه على النهوض ، حتى إذا ما

استطاع زيد أن يقيم صلبه راحا يتقدمان إلى البستان وهما يترنحان وقد زاغت منهما العيون ، ويزفران ويشهقان فى صوت مسموع ، حتى إذا ما بلغا شجرة راحا يستظلان بها وتمددا تحتها يلتقطان الأنفاس .

وتحركت لأبى القاسم رحِمُهما فدعوا غلاما لهما يقال له عداس فقالا له :

ـــ خذ قِطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، ثم قال له :

ـــ كل .

ووضع زيد فيه يده ، فلما وضع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيه يده قال :

ـــ باسم الله .

ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ثم قال :

ـــ والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟

ـــ أنا نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .

ـــ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فقال عداس فى دهش :

ـــ وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت منها وما فيها عشرة يعرفون ما متى ، فمن أين عرفت أنت متى وأنت أمى وفى أمة أمية ؟

ـــ ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى .

فأكب عداس على رسول الله — ﷺ — يقبل رأسه ويديه وقدميه وزيد ينظر وقد اغرورقت فى عينه الدموع تأثرا .

رأى عتبة وشيبة ابنا ربيعة ما يفعل عداس بأبى القاسم فالتفت أحدهما إلى الآخر فى عجب ثم قال :

— أما غلامك فقد أفسده عليك .

فلما جاءهما عداس قالا له :

— ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟!

— ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه و لم نرك فعلته بأحدنا .

فقال عداس وقد أشرق وجهه بالإيمان :

— يا سيدى ، ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

— ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك .

— لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع ودينك خير من دينه .

ويئس رسول الله — ﷺ — من خير ثقيف فانصرف من الطائف راجعا إلى مكة وهو حزين ، وزيد بن حارثة ينطلق معه يفكر فيما سيفعل حبيبه بعد أن أخرجه قومه من مكة وبعد أن لقى أبشع ألوان الاضطهاد فى الطائف .

وسارا صامتين على راحلتيهما ، رسول الله ﷺ يستشعر أعمق آيات الأسى ، فقد انقضت عشر سنين منذ أوحى إليه أول مرة وما انتشر دين الله فى مكة و لم تستجب له القبائل ، وقد ردته الطائف ردا قاسيا غير كريم . إنه سأل القوم أن يكتموا عليه خشية أن يصل إلى قومه أنباء خذلان ثقيف له ورفضهم دعوته فيزداد إيذاء قريش له ، ولكن عتبة وشيبة ابنى ربيعة

كانا فى بستانهما وقد رأيا ما فعل به سفهاء الطائف وما نالوا منه .

وكان زيد يئن أنينا مكتوما فوقع الحجارة منه لا يزال يؤلمه . ولكن ألم نفسه كان أقسى وأشد ، فما بال الناس يؤذون فى ضراوة من يريد أن يفتح عيونهم العمى وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ؟ وما بال قريش قد لجت فى العداوة حتى إنها أخرجته من داره ؟ وكيف يعود رسول الله عليه السلام إلى مكة بعد أن طرده أعداؤه منها ؟

ونزلا بوادى نخلة على مسيرة ليلة من مكة ، وقام — ﷺ — فى جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجن فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

وأقام رسول الله — ﷺ — بنخلة أياما ، فقال له زيد :

— كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟

— يا زيد . إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

لم يتزعزع إيمانه بنصر الله لحظة فى أحلك أيام رسالته ، كان على يقين من أن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . فإن كان قد مكث فى نخلة أياما فقد أقام بها حتى يلتقط أنفاسه بعد ما لقى من سفهاء ثقيف . وإنه داخل على قومه على الرغم من أنهم أخرجوه ليبلغ رسالات ربه ، فإن لم يفعل فإنه يكون قد تقاعس عن تأدية رسالته وحاشا لله أن يكون من اصطفاه خوارا ، أو أعجز من أن ينهض بأمانته .

وامتطى رسول الله — ﷺ — راحلته وانطلق إلى مكة وزيد فى رفقته يستشعر خوفا على النبى عليه السلام ، وانتهت الرحلة عند غار حراء فنزل به رسول الله ، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره . كان الأخنس

يعطى النبى — ﷺ — من طرف اللسان حلاوة وكان يظهر له الود ، فإذا ما انصرف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وجلس إلى المشركين نال من أبى القاسم ، وعاد الرجل الذى بعثه محمد عليه السلام إلى الأخنس فقال :

— إن الأخنس يعتذر بأنه حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث — ﷺ — إلى سهيل بن عمرو فقال :

— إن بنى عامر لا يجير على بنى كعب .

وراح رسول الله — ﷺ — يفكر فى شريف من أشراف قريش يجيره فتذكر مطعم بن عدى وبلاءه فى رفع الحصار عن بنى هاشم لما حاصرهم أعداء الرسول فى شعب أبى طالب فأرسل رجلا من خزاعة إليه يقول : « أدخل فى جوارك » .

وبلغ الخزاعى مطعم بن عدى فقال له :

— إن محمدا يريد أن يدخل فى جوارك .

فقال مطعم دون أن يتردد :

— نعم .

ودعا بنيه وقومه فقال :

— تلبَّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا .

فدخل رسول الله — ﷺ — حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدى على راحلته فنادى :

— يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجُه أحد منكم .

فانتهى — ﷺ — إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ومطعم وولده مطيفون به وفى أيديهم السيوف ، قد أجاروا رسول الله

من أعدائه وإن لم يدخلوا فى دين الله .

وخفت فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما يقبلانه فى وجد والدموع تنهمر من أعينهما ، وهرع أسامة بن زيد إلى النبى فضمه إليه فى حب ، ثم دخل غرفته التى أعدت لعبادته وشرد بذهنه فرأى بعين خياله سفهاء ثقيف وهم يأخذون بعضديه ويرفعونه بينهم لينتصب واقفا بعد أن يكون قد قعد على الأرض من الإعياء ليتمكنوا من دق رجليه بالحجارة فى أثناء سيره وهم يتضاحكون ، كانت قسوتهم أليمة ولكن رفضهم لدعوته كان أقسى على قلبه من كل آلام بدنه وما حاق به من عذاب . وفيما هو شارد حزين إذ أوحى إليه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

وفصم عنه الوحى فرفت على شفتيه ابتسامة عذبة وأحس رضا ، فقد كان إسلام الجن بعد ما لاقى من اضطهاد قريش وثقيف تسرية عنه وبارقة ضياء لمعت فى الظلام ، فازداد يقينا على يقين أن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

# تذييـــل

قال بعض الزنادقة وهم يحاورون جعفر الصادق منتقدين القــرآن الكريم :

ـــ طعنًا فى القرآن ، لو قال امرؤ القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . وكرر ذلك أربع مرات فى نسق أما كان عيبا ؟ فكيف وقع فى القرآن : ﴿ قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾[1] ؟ وهى مثل ذلك .

فقال جعفر الصادق :

ـــ قال له المشركون : اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعبد معنا آلهتنا شهرا لنعبد معك إلهك سنة . فنزلت إنى لا أعبد ما تعبدون يوما ولا أنتم عابدون ما أعبد عشرة ، ولا أنا عابد ما عبدتم شهرا ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة .

وقد تضمنت كتب التفسير بحوثا فى تعليل سبب تكرار آية « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فيرى بعضهم أنها ضرب من ضروب التأكيد وبعضهم الآخر يرى أن واحدة منهما تشير للمستقبل والثانية تشير إلى الماضى .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده :

ـــ مفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام فى المعبود ، ومفاد الجملتين

---

(١) سورة الكافرون .

الأخرين تمام الاختلاف فى العبادة : فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك إلاٰله الواحد المنزه عن الند والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه والذى تعبدونه على خلاف ذلك .

وعبادتى مخلصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة ، فأين هى من عبادتى ؟.

وجاء فى منتخب تفسير القرآن :

« قل يا محمد : يأيها الكافرون المصرون على كفرهم . لا أعبد الذى تعبدون من دون الله . ولا أنتم عابدون الذى أعبد وهو الله وحده . ولا أنا عابد مثل عبادتكم لأنكم مشركون . ولا أنتم عابدون مثل عبادتى لأنها التوحيد . لكم دينكم الذى اعتقدتموه ولى دينى الذى ارتضاه الله لى » .

وأعتقد أن السورة تحتمل كل هذه التفاسير .

وقد حاول الزنادقة الطعن فى القرآن والتشكيك فى صدق رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام فوضعوا أحاديث نبوية لزعزعة ضعاف الإيمان ، وكان مما وضعوه حديث ما ألقى الشيطان فى روع الرسول عليه السلام من كلمات لما أنزلت عليه سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾[1] وقد أخذ بعض الرواة والإخباريون المولعون بكل غريب هذا الحديث دون تمحيص ودسوه فى سيرة سيد المرسلين ، وإن كان بادى الاختلاق .

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه : لما رأى

---

(١) النجم ١ .

رسول الله ـــ ﷺ ـــ من قومه كفًّا عنه ، جلس خاليا فتمنى فقال :

ـــ ليته لا ينزل على شيء ينفرهم عنى .

وقارب رسول الله ـــ ﷺ ـــ قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة ﴾[1] ألقى الشيطان على لسانه كلمتين : « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ولما بلغ الغرانيق العلا قال الواقدى : فتكلم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا ، ورفع المغيرة بن الوليد ترابا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود . ويقال : إن أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ ترابا إلى جبهته فسجد عليه ـــ وكان شيخا كبيرا ـــ فرضوا بما تكلم به رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقالوا :

ـــ قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فأما إذ جعلت لها نصيبا عندك فنحن معك .

فكبر ذلك على رسول الله ـــ ﷺ ـــ من قولهم حتى جلس فى البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة ، فقال جبريل :

ـــ ما جئتك بهاتين الكلمتين .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ قلت على الله ما لم يقل .

فأوحى الله إليها : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى

---

(١) النجم ١٩ ـــ ٢٠ .

علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾[1] .

ففشت تلك السجدة فى الناس حتى بلغت أرض الحبشة ، فبلغ أصحاب رسول الله — ﷺ — أن أهل مكة قد سجدوا فأسلموا ، حتى إن الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة قد سجدا خلف النبى — لله — ، فقال القوم :

— فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء ! عشائرنا أحب إلينا .

فخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم ، فقال الركب :

— ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد يشتم آلهتهم وعادوا له بالشر فتركناهم على ذلك . فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة . ثم قالوا : قد بلغنا . ندخل فننظر ما فيه قريش ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع .

فدخلوا مكة و لم يدخل أحد منهم إلا بجوار ، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيرا ثم رجع إلى أرض الحبشة ، فكان خروجهم فى شهر رجب سنة خمس ، فأقاموا شعبان ورمضان وقدموا فى شوال من السنة .

هذا الحديث الذى فيه الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها و لم يدخله البخارى ولا مسلم ولا ذكره فى علمه مصنف مشهور . والغرنوق طائر طويل العنق وهو الكركى أو يشبهه ، ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أن تلك الطيور تعلو وترتفع فى السماء ، فالأصنام شبهت بها فى علو

---

(١) الإسراء ٧٣ — ٧٥ .

القدر وارتفاعه ، وقبل أن أقول رأيى فى هذا الموضوع سأورد آراء من كذبوا ذلك الحديث أو سلموا به من السالفين .

قال القاضى عياض فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » :

ـــ اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، مع ضعف نقلته واضطراب رواته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته ، فقائل يقول : إنه فى الصلاة ، وآخر يقول : قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أخذته سنة . وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها . وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبى ـــ ﷺ ـــ لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك . وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبى ـــ ﷺ ـــ قرأها ، فلما بلغ النبى ذلك قال : « والله ما هكذا أنزلت » إلى غير ذلك من اختلاف الرواة .

ومن حُكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية . والمرفوع فيها حديث شعبة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أحسب . قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى ـــ ﷺ ـــ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبى . عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف

ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه .

وأما حديث الكلبى فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار البزار إليه ، قال : والذى منه فى الصحيح أن النبى — ﷺ — قرأ « والنجم » وهو بمكة ، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

هذا توهينه من طريق النقل ، والله أعلم بالصواب .

وأما من جهة المعنى : فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته — ﷺ — ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبى — ﷺ — أن من القرآن ما ليس منه حتى يُنبهَه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع فى حقه — ﷺ — من قبل نفسه عمدا — وذلك كفر — أو سهوا ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد تقرر بالبرهان وبالإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا ، أو أن يتشبه عليه من يلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو يتقول على الله لا عمدا ولا سهوا . وقد قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾[1] الآية . وقال : ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾[2] الآية .

ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا ، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبى — ﷺ — ولا من

---

(١) الحاقة ٤٤ .

(٢) الإسراء ٧٥ .

يحضره من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك — وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حلمه واتسع فى باب البيان معرفة فصيح الكلام علمه ؟!.

ووجه ثالث ، أنه قد علم من عادة المنافقين ومعانـدى المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبى — ﷺ — لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة ، ولم يَحْك أحد فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا فى قصة الإسراء وقصة القضية ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بُطلها واجتثاث أصلها .

قال القاضى عياض : ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبِّس به على ضعاف المسلمين .

ووجه رابع ، ذكره الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾[1] الآيتين .

وهاتان الآيتان ترددان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، فمضمونه هذا .

---

(١) الإسراء ٧٣ ، ٧٤ .

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيرا ! وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه السلام : « افتريت على الله وقلت ما لم يقل » . وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كل ما فى القرآن كاد فهو ما لا يكون . قال الله تعالى : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[1] ولم يذهب .

قال القاضى القشيرى : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ، وما كان ليفعل — ﷺ .

وأما المأخذ الثانى — وهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعاذنا الله من صحته — فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاضى عياض وضعف بعضها واستحسن بعض ، نذكر منها ما استحسنه وجوزه إن شاء الله .

منها ما ذكره القاضى أبو بكر فى أجوبته عن هذا الحديث قال :

— لعل النبى — ﷺ — قال ذلك فى أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، لقول إبراهيم عليه السلام ﴿ هذا ربى ﴾[2] على أحد التأويلات . يريد : أهذا ربى ؟! ولقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾[3] بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته ، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو .

---

(١) النور ٤٣ .

(٢) الأنعام ٧٦ .

(٣) الأنبياء ٦٣ .

قال القاضى عياض : ولا يعترض على هذا بما روى أنـه كان فى الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع . والذى يظهر ويترجح فى تأويله عند القاضى أبى بكر وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبى — ﷺ — كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآى تفصيلا فى قراءته كما رواه الثقاة عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبى — ﷺ — بحيث يسمعه من دنا منه من الكفار ، فظنوها من قول النبى — ﷺ — وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى وتحققهم من حال النبى — ﷺ — من ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه ، وقد حكى موسى بن عقبة فى مغازيه نحو هذا وقال : إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقـى الشيطـان ذلك فى أسماع المشركين وقلوبهم .

قال القاضى عياض ويكون ما روى من حزن النبى — ﷺ — لهذه الإشاعة والشبهة وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾[1] الآية . فمعنى ( تمنى ) تلا . قال الله تعالى : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾[2] أى تلاوة ، وقوله : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾[3] أى يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته .

ومما يظهر فى تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة : « والغرانقة العلا » . فإن سلمنا القصة قلنا : لا يبعد أن هذا كان قرآنا ، والمراد

---

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .

بالغرانقة العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى : الملائكة على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبى الغرانقة أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم ورد عليهم فى هذه السورة بقوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾[١] . فأنكر الله كل هذا من قولهم .

وقيل : إن النبى — ﷺ — لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، خاف الكفار أن يأتى بشىء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا تلاوة النبى — ﷺ — ويشغبوا عليه على عادتهم قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[٢] ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه ، وأشاعوا ذلك وأذاعوه ، وأن النبى — ﷺ — حزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾[٣] الآية ، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل ، وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه الله تعالى من قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٤]

وقال الفخر الرازى : هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القبول بها ، قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[٥] ، وقال بصحتها جمع منهم الشهاب بن حجر وقال :

— رد عياض لا فائدة فيه ولا يعول عليه .

هذه جملة آراء السلف السابقين فى حديث « الغرانيق العلا » .

---

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .
(٤) الحجر ٤٩ . (٥) النجم ٣ ، ٤ .

وعندى أنه موضوع قد أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، فهو حديث لا يثبت للنقد . ومن عجب أن يلقى الشيطان فى روع رسول الله — ﷺ — بكلمتين فى سورة يقول فى صدرها علام الغيوب : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾[1] . أفكان عالم الغيب والشهادة لا يعلم أن الشيطان سيجترئ أن ينطق بشىء من الوحى ؟. إن كان سبحانه وتعالى يعلم فما كان يؤكد فى صدر السورة أن رسوله لا ينطق عن الهوى ، وإن كان لا يعلم — وحاشا لله ألا يعلم — فتلك نقيصة يتنزه عنها رب العزة ، ألصقها بذاته العلية كل من قال بصحة ذلك البهتان والزور .

ولو استشهدنا بتسلسل أحداث السيرة لانهارت هذه الفرية من أساسها ، فالمشهور أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى قد عادوا إلى مكة قبل حصار الكافرين لبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب ، وما لا جدال فيه أنهم عادوا بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة . وسواء أكانت عودتهم أنهم قد بلغهم أن عظماء مكة قد سجدوا مع المسلمين لما قرأ الرسول عليه السلام سورة والنجم ، أى أن سورة « والنجم إذا هوى » كانت قد نزلت قبل عودة المسلمين من الحبشة ، ولكن أحداث التاريخ تكذب ذلك الزعم ، فسورة والنجم قد نزلت بعد أن أسرى به — ﷺ — ، وقد أسرى به بعد عودة المسلمين العودة الأولى من الحبشة ، وبعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها ،

---

(١) النجم ١ — ٥ .

وبعد خروجه إلى الطائف وما لقى به من عذاب ، فكل قول بأن سورة النجم قد قرئت أيام كان المسلمون الذين هاجروا الهجرة الأولى فى الحبشة قول خاطئ يكذبه الواقع التاريخى ، فكيف يتحدث القرآن عن الإسراء والمعراج وما كان الإسراء قد وقع ؟! إن حديث « الغرانيق العلا » حديث موضوع دون مهارة ، فهو مضطرب الروايات متقطع الإسناد ، قد مزج المدح بالذم ، يكذبه الواقع التاريخى وتسلسل أحداث السيرة . ولو كان النبى — ﷺ — قد نطق بالشهادة لأصنام قومه لظهر هذا الحدث الخطير فى أقوال أعدائه الذين لم يكن لهم من حياتهم إلا مجادلته وإظهار جوانب الضعف فى دعوته .

وقد قيل فيما قيل من غث الحديث أن الكلمتين اللتين ألقى الشيطان بهما فى روع الرسول ، وحاشا لله أن يكون للشيطان عليه سلطان — قد نسختا ، وهذا الزعم يجرنا إلى توضيح الناسخ والمنسوخ فى القرآن .

والنسخ لغة إبطال الشىء ورفعه ، والمتكلمون عن النسخ فى القرآن يجعلونه على ثلاثة أضرب(١) .

١ — ما نسخ خطه وحكمه ، ويروون فى ذلك عن أنس أنه قال : « كنا نقرأ على عهد رسول الله — ﷺ — سورة تعدلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة : « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب لا بتغى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

كما يروون عن ابن مسعود أنه قال : أقرأنى رسول الله — ﷺ — آية

---

(١) تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإبيارى .

فحفظتها وكتبتها فى مصحفى ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحفى فلم أرجع منه بشىء ، وغدوت على مصحفى فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبى — ﷺ — فقال لى : « يابن مسعود تلك رفعت البارحة » .

وهذا عندى قسم يكاد سرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيما عليما ، وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيما سينقض بعد حين . ولقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء . ولقد كان عليه السلام يعارضهم ما حملوه عنه على التوالى حرصا على سلامة الوحى من أن يختلط به غيره . وكم من سامع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردود إلى السلامة حين يلقى بما عنده الرسول أو صحابيا على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور وسرعان ما كان يبين هذا من ذاك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت العرضة الأخيرة للقرآن ولم تكن إلا لهذا ومثله .

٢ — ما نسخ خطه وبقى حكمه ، ويروون لهذا خبرا عن عمر بن الخطاب يقول : « لولا أكره أن يقول الناس قد زاد فى القرآن ما ليس فيه لكتبت آية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله — ﷺ — ، لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا منن الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صح هذا عنه وأنه سمعها عن الرسول ما تخلف عن أن يكتبها ، ثم ألم يسمعها مع عمر غيره فيجعل منه شاهدا معه ، إن كان عمر لا يرى أنه وحده مجزئ ، اللهم إن هذا ينقض علينا ذاك التحرى فى

الجمع الذى قام به الصحابة ، وينقض علينا تلك المعارضات التى كانت تتم بين الرسول والقارئين ، وينقض علينا التفكير السليم ، وما نحب لمن يعالج ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ ــ ما نسخ حكمه وبقى خطه . وهذا شىء يقتضيه التشريع والانتقال والتى انتهت بقوله يخاطب نبيه : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[١] وكانت قبلها ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[٢] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إنما حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ فجاء قوله عليه الصلاة والسلام « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » . يستثنى شيئا من الميتة المذكورة فى القرآن .

وقد عد الناظرون فى هذا نحوا من ١٤٤ ، منها : ثلاثون آية فى البقرة : عشر آيات فى آل عمران ، أربع وعشرون آية فى النساء ، تسع آيات فى المائدة ، خمس عشر آية فى الأنعام ، آيتان فى الأعراف ، ست آيات فى الأنفال ، إحدى عشرة آية فى التوبة ، ثمانى آيات فى يونس ، أربع آيات فى هود ، آيتان فى الرعد ، آية فى إبراهيم ، خمس آيات فى الحجر ، أربع آيات فى النحل ثلاث آيات فى بنى إسرائيل ، آية فى الكهف ، خمس آيات فى مريم ، ثلاث آيات فى طه ، ثلاث آيات فى الأنبياء ، ثلاث آيات فى الحج ، آيتان فى المؤمنين ، سبع آيات فى النور ، آيتان فى الفرقان ، آية واحدة فى النمل ، آية واحدة فى القصص ، آية واحدة فى العنكبوت ، آية واحدة فى

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١١٥ .

الروم ، آية واحدة فى السجدة ، آيتان فى الأحزاب ، آية واحدة فى سبأ ، آية واحدة فى الملائكة ، أربع آيات فى الصافات ، آيتان فى ص ، ثلاث آيات فى الزمر ، آيتان فى حم « المؤمن » ، آية واحدة فى حم « السجدة » ، سبع آيات فى الشورى ، آيتان فى الزخرف ، آية واحدة فى الدخان ، آيتان فى الجاثية ، آيتان فى الأحقاف ، آيتان فى محمد ، آيتان فى ق ، آيتان فى الذاريات ، آيتان فى الطور ، آيتان فى النجم ، آية واحدة فى القمر ، آية واحدة فى المجادلة ، ثلاث آيات فى الممتحنة ، آيتان فى القلم ، آيتان فى المعارج ، ست آيات فى المزمل ، آيتان فى الإنسان ، آية واحدة فى عبس ، آية واحدة فى التكوير ، آية واحدة فى الطارق ، آية واحدة فى الغاشية ، آية واحدة فى التين ، آية واحدة فى العصر ، آية واحدة فى الكافرون .

فهذا بيان الآيات التى فيها نسخ نستطيع أن نرجع إلى تفصيلها فى كتب النسخ مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » لأبى القاسم هبة الله بن سلامة المتوفى سنة ٤١٠ هجرية ، ثم فى كتب التفسير .

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتب أحكام اقتضاها التشريع السماوى ، الذى أملاه نزول القرآن مجزءا وفق أحوال المسلمين وتدرجهم فى الحياة .

هذا هو ما جاء فى تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإبيارى ، وإن أى عاقل يفهم مبادئ البلاغة ليستطيع أن يجزم بأن ما زعم من أنه كان فى القرآن ما نسخ حكمه وخطه إن هو إلا من وضع من أرادوا الكيد لقرآن الله المجيد ، فما من كلمة أنزلت قد رفعت ، وإن ما استشهد به المولعون بتدليس الروايات ونسبتها إلى كبار الصحابة ليحمل فى طياته دليل بطلان الدعوة ،

أيصدق أى لبيب أو غير لبيب أن مثل هذا القول المتهافت الذى وضعه الواضعون : « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب وفضة لابتغى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » يمكن أن يكون من نبع القرآن العظيم ؟ إن هذا الزعم لا يزيد على أنه استخفاف بالعقول .

وما زعم من أن فى القرآن ما نسخ خطه وبقى حكمه ، فهو قول لا يستند إلى دليل ، بل إنه افتراء على الله ، فإذا كان مبدأ الرفع من القرآن معترفا به فلماذا بقيت الآيات التى قيل إنه نسخ حكمها .

إن بقاء الآيات التى قيل إن أحكامها نسخت فى القرآن لخير برهان على أن ما ينزله الله لا يرفع ، فما كان القرآن من عمل بشر يبدل ويغير فيه ويرفع آيات وينزل آيات ، بل هو من لدن عليم حكيم خبير ، فليس فى القرآن ما نسخ خطه وحكمه وليس منه ما نسخ خطه وبقى حكمه .

بقى ما زعم أنه بقى خطه ونسخ وحكمه ، وفى رأيى أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ ، فإنى أنزه الله سبحانه وتعالى عن أن ينزل حكما ثم ينسخه ، وإذاما رجعنا إلى الآيات الـ ١٤٤ التى زعم أنها نسخت لوجدنا أن أحكامها لا تزال قائمة ، فمن يستطيع أن يقول إن آية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[1] قد نسختها آية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[2] إن آية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ تقرر حقيقة ستظل حقيقة لا ريب فيها ما دامت الأرض والسماوات . وهل يمكن أن يقال إن آية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من

---

(١) البقرة ١١٥ .

(٢) البقرة ١٤٤ .

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾[١] قد نسختها آية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ؟

إنى أعتقد فى يقين أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ فى أى صورة من الصور التى زعم المتكلمون عن النسخ فى القرآن أنها على ثلاثة أضرب ، فالقرآن قد نزل من عند أحكم الحاكمين ، ولو أن الكافرين قد علموا بوقوع هذا النسخ لوجدوا حجة تؤيد زعمهم أن القرآن إن هو إلا من إملاء رسول الله — ﷺ — .

قالوا فيما قيل إن آية : ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾[٢] قد نسخت ، فهل نزلت آية صرحت للمسلمين بأن يقربوا الصلاة وهم سكارى ؟ إننا لو استعرضنا جميع الآيات التى قيل إنها نسخت نجد أن حكمها لا يزال قائما ، وأعتقد أن بدعة الناسخ والمنسوخ قد شاعت بعد صدر الإسلام عندما شغل الناس بإحصاء عدد آيات القرآن وترتيب الآيات وترتيب السور والبحث عما هو مكى منها وما هو مدنى . وقد شجع بعض العلماء على الخوض فى الناسخ والمنسوخ عدم فهمهم حقيقة تفسير : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾[٣] . فقد حسبوا أن التبديل إنما يقع على الآية القرآنية وهى طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ، بينما المقصود بالآية هنا المعجزة التى يقوم بها الأنبياء ، فالمراد أن معجزة عيسى

---

(١) البقرة ١٧٧ .

(٢) النساء ٤٣ .

(٣) النحل ١٠١ ، ١٠٢ .

كانت غير معجزة موسى ، فمعجزة عيسى عليه السلام كانت إحياء الموتى ، بينا كانت معجزة موسى عليه السلام لما واجهه فرعون بالسحرة أن يلقى عصاه فإذا هى حية تسعى . ولما بعث الله محمدا — ﷺ — إلى قوم اشتهروا بالبلاغة والبيان بدل الله معجزته وأنزل على رسوله عليه السلام القرآن ، ويؤيد هذا ما جاء فى « المنتخب » فى تفسير : « وإذا بدلنا آية .. » : ( وإذا جعلنا معجزة لك بدلا من معجزة مساوية لنبى سابق فجئناك بالقرآن معجزة ، رموك بالافتراء والكذب على الله ، والله وحده هو العليم علما ليس فوقه علم بما ينزل على رسله من المعجزات ، ولكن أكثرهم ليسوا من أهل العلم والمعرفة الصادقة ) .

ولقد مات رسول الله ( ﷺ ) والقرآن كله مكتوب على العُسُب ( جريد النخل ) واللخاف ( صفائح الحجارة ) والرقاع والأديم والأكتاف ( عظام الأكتاف ) والأقتاب ( ما يوضع على ظهور الإبل ، كما كان محفوظا فى صدور الرجال يحفظه حفظة من المسلمين ) .

وكان رسول الله — ﷺ — يقرأ القرآن على جبريل عليه السلام مرة فى شهر رمضان ، فلما جاءت السنة التى مات فيها قرأه عليه مرتين فى رمضان ، فراح رسول الله — ﷺ — يعارض ما أنزله عليه ربه بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، فكان فى صدور الحفظة صورة مما كان فى صدر الرسول .

وبعد موت الرسول — ﷺ — ارتدت بعض القبائل عن الإسلام فأعلن أبو بكر الصديق الحرب عليها ، وقد اشتد القتل يوم اليمامة بقراء القرآن فخف عمر بن الخطاب إلى أبى بكر يعرض عليه جمع القرآن قبل أن يذهب من الصدور . وراح أبو بكر يفكر فيما عرضه عليه عمر فاقتنع

بضرورة جمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت وكان من كتاب الوحى فى المدينة ، وحضر زيد مجلس أبى بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه فإذا هو معهما فى الرأى ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حسن الاستجابة يتجه إليه ويقول :

ـــ إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبع القرآن اجمعه .

فراح زيد بن ثابت يتتبع القرآن يجمعه وما كان ذلك أمرا عسيرا ، فقد كان هناك حفظة من المسلمين . ولو أردنا اليوم أن نجمع القرآن مرة أخرى دون أن نرجع إلى المصحف فما أيسر ذلك لو جئنا بعشرة من القراء الحافظين .

وفى أيام عثمان رضى الله عنه عاد حذيفة بن اليمان من حرب أرمينية وأذربيجان ودخل على أمير المؤمنين فزعا من اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن ، وراح يقول لعثمان :

ـــ أدرك الأمة قبل أن يختلفوا .

أرسل عثمان يطلب الصحف من عند حفصة بنت عمر زوج النبى عليه السلام ، وأرسلت حفصة بالصحف إلى عثمان ، وجمع عثمان إليه زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام وكلهم من كتاب الوحى ، وأمرهم بنسخ هذه الصحف بعد أن وقف يخطب الناس يناشدهم أن يأتوه بما معهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبى عليه السلام قريبا ، إذ لم يكن مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة ، فراح الرجال يأتونه بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولم يكتف عثمان بذلك بل دعاهم رجلا رجلا يسألهم عما إذا كان

رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد أملاه عليه ، فيقول الرجل نعم ، حتى إذا فرغ من ذلك قال :

ـــ من أكتب الناس ؟

فقال الناس :

ـــ كاتب رسول الله زيد بن ثابت .

قال عثمان :

ـــ فأى الناس أعرب ؟

ـــ سعيد بن العاص .

وكان سعيد أشبههم لهجة برسول الله عليه السلام ، قال عثمان :

ـــ فليمل سعيد وليكتب زيد .

وتم جمع مصحف عثمان ، ولما قورن بالمصحف الذى جمعه أبو بكر رضى الله عنه وشارك فيه عمر وجد أنه هو هو الذى جمعه عثمان ثانية واستحلف الناس عليه ، وأرسل عثمان ستا من هذه المصاحف إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس مصحفا بالمدينة ، وأمر عثمان فحرق ما كان مخالفا لمصحفه .

ويقول ر . ف . بودلى فى كتاب « الرسول : حياة محمد » عن القرآن : « إنه لمن الغريب أن تلاحظ دون أسباب ثابتة وطيدة أن هناك سوء فهم عام لمحمد ـــ ﷺ ـــ أكثر من أى مؤسس آخر من مؤسسى الديانات العظيمة . إننا لا نجد ما دونه معاصرو موسى أوكو نفوشيوس أو بوذا ولا نعرف إلا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته ولا نعرف شيئا عن الثلاثين سنة التى مهدت الطريق للسنوات الثلاث التى بلغ فيها أوجه ، ولكننا نجد أن قصة محمد ـــ عليه السلام ـــ واضحة كل

الوضوح . ففى سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموض ، ونعرف الشيء الكثير عنه ، كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا فى زمان أكثر قربا من زماننا ، وما كان تاريخه الخارجى وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة من الخرافات ولا شائعة من الشائعات ، وما كان تاريخه الداخلى وقد وضح بعد رسالته برواية مبهمة لمبشر غامض أو متوش ، فبين أيدينا الآن كتاب معاصر فريد فى أصالته وفى سلامته لم يشك فى صحته كما أنزل أى شك ، وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . ولو أن الأفكار قد دونت فى الرقاع وسعف النخل والعظام فى لحظات غريبة ، فالسور والآيات الأصلية قد حفظت ، وما كان هذا هو الحال فى العهد القديم والعهد الجديد ( التوراة والإنجيل ) بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت الرسول، فإن أبا بكر خليفة محمد — ﷺ — قد جمع الرقاع التى دون فيها القرآن ونسخها حرفيا ، وحفظت هذه النسخة عند حفصة إحدى زوجات محمد ( عليه السلام ) .

وفى عام ٦٤٦ بعد الميلاد ، أى بعد موت محمد — صلوات الله عليه وسلامه — بأربع عشرة سنة ، أحرق عثمان خليفة محمد الثالث وصديق محمد ومعاصره جميع نسخ القرآن التى كتبها الأتباع المتحمسون من الذاكرة ولم يبق إلا مصحف حفصة ، وقد نسخ عنه جميع المصاحف الأخرى ، ومنذ ذلك الوقت لم يضف إلى القرآن شيء ولم يحذف منه شيء » .

وهذا رأى لكاتب أمريكى آخر فى القرآن وإعجازه[1] ، قال : « إن

---

(١) المستشرقون والإسلام للأستاذ المهندس زكريا هاشم زكريا .

كل نبى يجب أن يأتى ببرهان عن طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ويسمى كرامة ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فإن جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزا ، وهما يضعان من يتلوه ، ولو كان أقل الناس تقوى فى حالة خاصة من الحماسة .

لقد تحدى محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . و لم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فإن محمدا كان يحتقر الشعر ودفع عن نفسه أن يكون واحدا من الشعراء .. ولكن الأمر يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الإله وإلهام الشياطين » .

وقد عكف كبار الكتاب الغربيون على قراءة القرآن وقد تأثر به كثير منهم ، فقد قرأ جوته القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته ( فرانكفورت ) المستشرق العلامة مرجولين ( ١٧٧٢ م ) ، حتى إذا ما فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها طبعها فى مدينة ( بادوا ) فى الشمال الشرقى من إيطاليا القس الجزويتى ( ماراتشى ) Marracci عام ١٦٩٨ م ، وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية .

وما أن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية نقلا عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة شول Sholl عام ١٨٤٦ م وهذه الآيات قوله تعالى :

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾[١] .

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾[٢] .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[٤] .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٥] وكلها من سورة البقرة ، ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾[٦] .

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء

---

(١) البقرة ١١٢ . (٢) البقرة ١١٥ . (٣) البقرة ١٦٤ .
(٤) البقرة ١٧١ . (٥) البقرة ١٧٧ . (٦) آل عمران ١٤٤ .

فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾[١] .

ومن سورة النساء : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[٢] .

ومن سورة المائدة : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعلمون ﴾[٣] .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾[٤] .

ومن سورة الأنعام : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾[٥] .

ومن سورة يونس : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ﴾[٦] .

. ومن سورة يوسف : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾[٧] .

ومن سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ﴾[٨] .

ومن سورة العنكبوت : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن

---

(١) آل عمران ١٧٩.
(٢) النساء ١٤٣ .
(٣) المائدة ٦٥ ، ٦٦ .
(٤) المائدة ١٠١، ١٠٢.
(٥) الأنعام ٧٥
(٦) يونس ١٠ .
(٧) يوسف ٨ .
(٨) طه ٢٥ .

فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾[١] . ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لا رتاب المبطلون ﴾[٢] .

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾[٣] .

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن إمعان الباحثين وهو يقول : إن القارئ الأجنبى يمله لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب إليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم . ويستشهد جوته فى كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٤] .

ويقول جوته : إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة . وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون لأن محمدا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من المخيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإنما

---

(١) العنكبوت ٤٤ .
(٢) العنكبوت ٤٨ .
(٣) العنكبوت ٥٠ .
البقرة ٢ — ٧ .

محمد نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيهم القنوت والإيمان ، ومن ثمة نراه إذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر فى شعر جوته الأخير الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته .. فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته : لله المشرق ولله المغرب وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا ، هو الحق وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسم الحق وتعالى علوا كبيرا ، آمين . ينازعنى وسواس الغى وأنت المقيد من شر الوسواس الخناس ، فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم ، ومهما زينت النزعات والشهوات فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعا ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء تنطلق عارجة إلى أوج العلا .

« وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير . هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب ، فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ويعمد جوته أحيانا إلى التضمين الصريح ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه : « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله

لا يستحى أن يضرب مثلا للحياة ببعوضة ؟ » « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينى الحبيبة لمحة من جماله رائعة عجيبة » .

ويقول جوته فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه : « من حماقة الإنسان فى دنياه .. أن يتعصب كل منا لما يراه .. وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين » .

* * *

هاجم كثير من المستشرقين والمهتمين بالدين الإسلامى من كتاب الغربيين نبى الإسلام والقرآن ، فمنهم من زعم أن محمدا عليه السلام قد ادعى النبوة وأنه قد وضع القرآن مستمدا أسس دينه من التوراة والإنجيل ، وقد سمع بما فيهما أثناء رحلاته إلى الشام ، ولم يأت هؤلاء النقاد بجديد فمعاصرو النبى صلوات الله وسلامه عليه من الكافرين كانوا يقولون افتراه ، وأن القرآن يتلى عليه ، وأن بعض النصارى يعلمونه ما يقول ، وقد رد القرآن الكريم على هذه الافتراءات .

إن محمدا عليه السلام تحمل أفدح ألوان الاضطهاد وصبر صبر أولى العزم من الرسل ، ولو كان مدعيا للنبوة فى سبيل مغنم أرضى لقبل ما عرض عليه من جاه وسلطان وأموال ، أو لنصب من نفسه ملكا على جزيرة العرب بعد أن دانت له المدن والقبائل بالولاء ، ولما عاش عيشة الكفاف التى اختارها لنفسه .

وقد سبق فى التذييلات السابقة أن دفعت افتراء الزعم بأن محمدا عليه السلام قد أخذ من التوراة والإنجيل ما جاء به من تشريعات ، وقلت إن الديانات كلها قد عرفت منذ بدء الخليقة بالإسلام ، وأنه كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ودخلت الأساطير فى الديانات بعث الله الرسل

ليعيدوا الإسلام نقيا كما كان . وإن التشابه بين ما فى القرآن وما فى التوراة وما فى الإنجيل فإنما مصدره أن النبع الروحى الذى استمدت منه كل الديانات السماوية واحد . ولو عثر على صحف إبراهيم وإدريس فلن تفترق فى قليل ولا كثير عن القرآن ، والتوراة قبل أن يعاد كتابتها فى أرض السبى ، وإنجيل السيد المسيح الذى لم يصل إلينا ، فالأناجيل الأربعة التى اعتمدت فى مجمع نيقية إن هى روايات يفترض أن بعض الحواريين قد كتبوها و لم يقل أحد أنها منزلة من عند الله .

القرآن معجزة الإسلام ، وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن على أن يأتوا بآية من مثله فعجزوا على مر العصور . إن ما فيه من علوم يفوق كل ما كانت تعرف البشرية فى ذلك الوقت ، فما بالك بعلوم محمد ابن عبد الله ، ولا تزال الكشوف الحديثة تلقى أضواء على تفسير بعض ما فيه من آيات اليوم والغد ، وقد صدق الإمام على كرم الله وجهه لما قال : « القرآن حمال معان » .

إذا كانت التوراة قبل أن يعتورها التبديل من عند الله ، وإذا كان الإنجيل قد نزل على عيسى عليه السلام من السماء ، فلماذا لا يوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد بن عبد الله عليه السلام ؟ الحقيقة لا يمكن تجزئتها ، فإما وحى أو لا وحى ، فإن الله يكلم رسله وحيا أو من وراء حجاب أو يبعث رسولا ، فقد أوحى الله إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه قرآنه ، وقد قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] فكلما مر يوم والقرآن يقرأ فى الأرض كان ذلك تأكيدا على صدق محمد عليه

---

(١) الحجر ٩ .

السلام ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وقد خالف الإسلام اليهودية والنصرانية فى كثير من الأصول والعقائد والعبادات ، وأقول اليهودية والنصرانية ولا أقول إسلام موسى وإسلام عيسى ، فاليهودية والنصرانية إنما تطلقان على ما طرأ على إسلام موسى وعيسى من تبديل وتحوير . ومخالفة الإسلام لليهودية والنصرانية إنما هى إعادة تشريعات الديانتين السابقتين إلى الحق الذى كانتا عليه قبل أن تخضعا لأهواء حكماء صهيون والمجالس المسكونية والمؤتمرات الدينية التى كانت تسخر الدين لخدمة الأباطرة والحكام .

زعم اليهود أن عزيرا ابن الله ، وقال النصارى المسيح ابن الله أو الله أو ثالث ثلاثة ، يضاهئون قول الذين من قبلهم . وما من دين سماوى إلا وقد جاء ليؤكد وحدانية الله ، فنوح كان يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإدريس من قبله وإبراهيم من بعده وموسى وعيسى والحواريون لم يعبدوا إلا الله وحده . فجاء الإسلام ليعيد هذه الحقيقة الأزلية ويمحو الشرك من الأديان .

وراح اليهود يعبدون أنفسهم غرورا ويزعمون أنهم شعب الله المختار وأنهم الناس ومن عداهم أمم ، كما فعل من قبلهم اليونان والرومان والفرس ومن بعدهم العرب فى الجاهلية ثم الإنجليز والألمان وكل الدول التى ظنت أنها عظمى فى العصر الحديث . وجاء الإسلام ليعيد إلى البشرية كرامتها وليؤكد أن الناس إخوة وأن كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وراح اليهود عباد المال يفترون على الله ويحللون الربا ، وما من دين سماوى قد أباح الربا ، وقد جاء الإسلام ليقول للناس إن الله يمحق الربا

ويربى الصدقات .

وقد عبث الفريسيون والصدوقيون ومن قبلهم من المتنطعين فى الدين اليهودى فى العقيدة والتشريع ، فجاء الإسلام ليصحح العبث فى الميراث وليعيد للمرأة حقوقها وإنسانيتها وكرامتها التى أهدرت على أيدى نجار الدين ، الذين قالوا إنها نجس وحرموها من الميراث إذا كان لها أخ ، فإذا لم يكن لها أخ ، فعليها أن تتزوج رجلا من عشيرتها ليكون لها حق فى الميراث ، أما إذا ما مات عنها زوجها فلا حق لها فى ماله ، وكانت إذا ما جاءها المحيض تطرد من الدار طرد الكلاب .

جاء الإسلام معترفا بكل الأديان السماوية التى سبقته ، مطهرا لها من كل ما لحق بها من شوائب وما دخل عليها من أساطير الأولين ، معترفا بالوحى الذى ينزل على الأنبياء جميعا ، لا فرق بين نبى من بنى إسرائيل أو نبى من الأمم ، فلم يتناقض مع نفسه ولم يتحزب لنبى دون نبى كما فعل معتنقو الأديان التى سبقته: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1] .

كان كتاب أوروبا فى العصور الوسطى يعتقدون أن الإسلام دين وثنى ، فكانوا يصورون محمدا عليه السلام عابد أوثان ، وينسجون حول شخصيته الكريمة مزاعم وأوهاما تحط من شأنه ، ولكن قام بعض المستشرقين فى القرن العشرين بعدة محاولات لتقديم محمد عليه السلام فى صورة مقبولة ولا أقول صحيحة . ففيما يكتبون بعض الثغرات إما لأنهم

---

(١) البقرة ١٣٦ .

لا يؤمنون بالوحى إطلاقا ، وإما عن سوء قصد مبررين طعناتهم بأنهم يتبعون الأسلوب العلمى الذى لا يؤمن إلا بالتحليل وأنبوبة الاختبار !

وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britanica الطبعة الحادية عشرة : كان « محمد » أشهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا . ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض ، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ، ولا مبادئ مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفخرون به من الفن أو العلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجى وكانوا مفككين لا رابط بينهم . كل قبيلة وحدة مستقلة ، وكل منها فى قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت ، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ، ولكن ظهر النبى « محمد » الذى أرسل هدى للعالمين فاستطاع فى سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المحطمة إلى التوحيد ، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والفرقان فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد ما كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا فى الأرض يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق العبادة حتى فاقوا النساك والزاهدين . ولكنهم كانوا يأخذون من الدنيا ، فإذا ما أذن للصلاة تركوا التجارة والبيع وتوجهوا إلى الله رب العالمين ، وكانوا يقضون القسم الأكبر من الليل فى عبادة وتسبيح . وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المنقطعين فى الصوامع للتعبد ، فسموا بفعل الإسلام إلى ذروة السمو الخلقى . وكانت أعمالهم فى دنياهم مصداقا لتقواهم ، فاحتلوا مكانا مرموقا بين غزاة العالم العظام . لقد ذابت الإمبراطوريات العظمى تحت حرارة إيمانهم كما يذوب الجليد تحت حرارة الشمس اللافحة . ولم يكتفوا بغزو الأقطار

الشاسعة بل أقاموا أركان دولة عظيمة دامت أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، قوية عزيزة الجانب بغض النظر عن الأجيال التى تضعضعت أخيرا . لقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحى والرخاء الاقتصادى وتثقفوا بعلوم الإسلام التى فاض خيرها على العالم أجمع فى ذلك الوقت ، والتى تغلغل ضوؤها ليبدد دياجير الجهل المتفشى فى كل مكان ، وإنه لعجيب حقا أن يتم هذا فى عشرين عاما فقط . إذن لقد كانت تعاليم النبى سهلة من الميسور الأخذ بها وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البازع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية ، كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول ، بل من يقوم بإصلاح العالم فيهديه الصراط المستقيم » .

ويبرز هنا تساؤل : لماذا ضعفت الدول الإسلامية أخيرا ؟ السبب أن الدول الإسلامية وقعت فريسة للاستعمار الأوروبى المسيحى فى القرن التاسع عشر ، وكانت الدول المسيحية قد أعلنت الثورة على الدين ، ولما كان الضعفاء يحاولون دائما تقليد الأقوياء دون تفكير ، فقد سرت موجة من الإلحاد فى العالم الإسلامى ونخرت فيه ، على الرغم من أن ثورة المفكرين الأوروبيين على الكنيسة كان لها مبرراتها و لم يكن هناك أى مبرر للثورة على الإسلام ، ولكنه التقليد .

لما اعتنق بولص المسيحية راح يقيم أركانه على مبادئ لم يأت به السيد المسيح ، قال إن السيد المسيح هو الله وهو ابن الله ، فنشأت نظرية لاهوت السيد المسيح وناسوته ؛ وقال إن السيد المسيح قد جاء ليطهر البشرية من خطيئة آدم التى ورثها أبناؤه على مر السنين ، وأن السيد المسيح إنما قبل أن

يصلب تطهيرا للبشر من تلك الخطيئة . وقد قبضت الكنيسة على رقاب العباد لا يفكرون إلا بوحى منها ، وأن يسخر العلم لخدمتها ، وكل من قال برأى يخالف رأيها يقتل أو يحرق أو يطرد من رحمة الله .

رأى نيتشة أن الله قد تجسد ومشى فى الأسواق وانتصر عليه أعداؤه وتمكنوا من صلبه ، فلم يستطع عقله أن يتصور جسدا يبقى دون أن يفنى ، فقال إن الله قد مات . وله عذره فى ذلك التصور فمن يمشى على الأرض لا بد أن يموت . ووجد أن فكرة الخطيئة الموروثة فكرة تتنافى مع العدل الإلهى ، وعجب كيف أن الله يسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض ، فكفر بذلك الإله الظالم وآمن بالحس الأرضى وقال أن لا بد للمؤمنين بالحس الأرضى من أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة ويهتف : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله » ، ويعنى بذلك أن المعرفة الحقة إنما هى تلك المعرفة الفرحى المنتشية التى تنبعث من صميم الإحساس الأرضى .

ولو أمعنا الفكر لوجدنا أن نيتشة قد ثار على الله الذى تصوره فكر بولص الرسول ، على الله الذى تجسد وأكل الطعام ومشى فى الأسواق . ولو عرف نيتشة الله الرحيم الغفور الودود الكريم الذى لا يزر وازرة وزر أخرى ، ماثار نيتشة ولما جرؤ أن يقول إن الله قد مات ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وقد عبر ماركس عن نزعة الإلحاد المتطرفة حينما كتب : « إن أى موجود كائنا من كان لا يمكن أن يكون مستقلا فى عينى نفسه إلا إذا كان مستكفيا بذاته ، وهو لا يمكن أن يكفى نفسه بنفسه إلا إذا كان لا يدين بوجوده لأحد سواه . أما الإنسان الذى يحيا بمدد من إنسان آخر يكون له الفضل عليه فإنه لا بد من أن يشعر فى نفسه بأنه مخلوق مستعبد

خاضع مفتقر ، وأنا أشعر بأننى أحيا تماما على حساب موجود آخر أو بفضل نعمة ذلك الموجود الآخر ، ليس فقط حينما أكون مدينا له ببقائى والمحافظة على حياتى ، وإنما أيضا حينما يكون هو الذى وهبنى الحياة باعتباره مصدر كل الحياة ، ولا بد من مصدر حياتى من أن يكون بالضرورة خارجا عنى ، حينما لا تكون حياتى من خلقى أنا . وهذا هو السبب فى أنه قد يكون من العسير بمكان أن نطرد فكرة « الخلق » من أذهان العامة .. وأما نظر الرجل الاشتراكى — على العكس من ذلك — فإن تاريخ الكون بأسره ليس شيئا آخر سوى عملية خلق الإنسان ، بفضل الإنتاج البشرى ، أعنى عملية التحكم فى مصير الطبيعة بفضل تدخل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان الاشتراكى إنما يملك الدليل الواضح الذى لا سبيل إلى دحضه على خلقه نفسه بنفسه ، أو على عملية إبداعه لمصيره الذاتى » .

وكان ماركس ضحية أخرى من ضحايا تعاليم بولص وسجن الكنيسة للأفكار المتحررة ، كما كان كل الفلاسفة الملحدين الذين ناقضوا أنفسهم باستمرار مع تتابع مذاهبهم ، والذين أوضحت مذاهبهم فى جلاء أنهم جميعا خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة ، فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة .

وراح سارتر يقرر أن الإنسان حر ، يعنى بذلك أن « الله غير موجود » وأن الموجود البشرى إنما ينزع إلى شىء واحد فقط ألا وهو « الوجود » ، أى أن الإنسان ينزع إلى أن يكون إلها .

تعقيد وترديد وتجريد وتسكع ذهنى لا طائل تحته ، وبذور تبذر فى الصحراء ، ومحاريث تحرث فى الماء ، وبعد عن الإنسانية وإفقارها بهدم تراثها الروحى كنز البشرية ما داموا يريدون أن يروا كل شىء بالحواس

وعلى الحواس غشاوة ، وما داموا لا يفرقون وهم فى خضم الضياع بين النار والنور .

إن كان لهم العذر أن يثوروا على ما جاءهم بولص من أوهام فعلى ماذا نحن نثور ؟ هل قال لنا الإسلام إننا ورثنا خطيئة آدم ظلما . لقد كان الله أرأف بعباده من بولص فقال جل شأنه : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾(١) ، هل قال الإسلام إن الله سبحانه وتعالى نزل إلى الأرض وأكل الطعام ومشى فى الأسواق وأن له طبيعتين إلهية وإنسية ؟ لقد حرص الإسلام على تنزيه الله تعالى عن التجسيد . فكيف يخطر على ذهن مسلم يعرف حقيقة دينه أن الله قد مات أو أن العلم قد انتصر على الله . هل وقف الدين الإسلامى فى سبيل حرية التفكير والكشف والاختراع ؟ لقد كان الإسلام يدفع أتباعه على الدوام إلى التدبر فى الكون والسير فى مناكب الأرض وجعل طلب العلم فريضة ، هل كان فى الإسلام رجال دين وكنيسة تفرض آراءها على الجميع وتطرد المعارضين من رحمة الله ؟ لم يعرف الإسلام وظيفة رجل الدين ولم يعرف الوساطة بين الخالق والمخلوق ، بل كان يصر على تأكيد الصلة المباشرة بين العبد وربه . فعلى أى شىء تثورون أيها الثائرون ؟ أتثورون على جهلكم يا عبيد الاستعمار الفكرى ؟ ولم تتشككون ؟ وما الذى يدفعكم إلى العربدة الذهنية والطريق واضح والسبيل مستقيم ؟ وكيف يرضى أصحاب العقول السليمة أن يستبدلوا اللآلئ والدرر بالماس المصنوع وإن بدا للعيون تألقه وبريقه ؟ ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ٣٧ .

(٢) الرعد ١٧ .

أين كانت فلسفة الغرب يا أصحاب العقول قبل عصر النهضة فى أوروبا ، ومن أين جاءت هذه النهضة التى يتغنى بها ضحايا الاستعمار الفكرى من المسلمين ؟ يقول الأستاذ أحمد أمين والدكتور زكى نجيب محمود فى كتابهما « قصة الفلسفة الحديثة » : اتصل الأوروبيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقا واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى إن كثيرا مما بقى من مؤلفات « ابن رشد » حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد لها أصلا بالعربية . وفى القرن الثالث عشر كانت كل « كتب ابن رشد » تقريبا قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتبا قليلة منها كتاب « تهافت التهافت » الذى رد به على « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، فقد ترجمت فى القرن الرابع عشر .

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، « فروجر بيكون » الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ودرس فلسفة ابن رشد .

والقسم الخامس من كتاب فى البصريات Optics مستمد ومسايـر كتاب « ابن الهيثم » فى « هذا الموضوع نفسه » .

إن فلاسفة الإسلام هم الذين فتحوا أعين فلاسفة الغرب على ما فى أقوال بولص من تناقض مع المفهوم السليم والعدل الإلهى ، فهم أصحاب الفضل فى تحريرهم من رق الكنيسة ومن أن السلطة الكنيسية هى وحدها مصدر الحقيقة !

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « التفكير الفلسفى فى الإسلام » الجزء الثانى « على أن الله قد وفق رجالا متعصبين من الغرب لرد هجمات التعصب والهوى الصادرة من بنى وطنهم ، ونكرر القول بأنهم ليسوا من المستشرقين ولا من أذناب الاستعمار ، ومن أمثلة ذلك :

الأستاذ كاردانوس وهو فيلسوف ورياضى إيطالى يقول عن « الكندى » إنه واحد من بين الاثنى عشر الممتازين فى العالم .

ويقول الأستاذ فلنت عن ابن خلدون : « إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ليسوا نظراء لابن خلدون ، وكل من عداهم غير جدير بأن يذكر إلى جانبه » .

ويقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » ترجمة الأستاذ عباس محمود : « لقد كانت أوروبا بطيئة — نوعا ما — فى إدراك الأصل الإسلامى لمنهجها العلمى . وأخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة » .

ويقول بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » : إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس « لروجر بيكون » ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان المذهب التجريبى العربى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس — فى لهف — على تحضيله فى ربوع أوروبا .

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، و لم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية .

فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوروبى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره ، أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم — كما رأيناه — لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، و لم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعو النظريـات ، ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ،

والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلينى .

أما ما تدعوه العلم فقد ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى » :

ومن يشأ الاستزادة فى معرفة فضل العرب على الفلسفة الغربية الحديثة فليرجع إلى كتاب الفلسفة الحديثة فى الميزان لفضيلة الدكتور محمد فتح الله بدران .

هذه بعض الحقائق نضعها أمام المفتونين بكل ما تأتى به الحضارة الأوروبية من إلحاد وانحلال وتفكك ، راجين أن يعودوا إلى كتابهم الكريم ليتدبروا ما فيه من سمو ورفعة ، وإلى تراث المفكرين الإسلاميين السابقين ليعلموا أى نبع غزير قد نهل منه المفكرون الغربيون .

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الصواب .

القاهرة فى ١٦ / ٥ / ١٩٦٨ .

# المراجـع


| | |
|---|---|
| **القرآن الكريم** | |
| **الكتاب المقدس** | |
| **صحيح البخارى** | |
| **السيرة النبوية** | لابن هشام |
| **السيرة الحلبية** | لعلى برهان الدين الحلبى |
| **نهاية الأرب فى فنون الأدب** | للنويرى |
| **بلوغ الأرب** | للألوسى |
| **المستشرقون والإسلام** | المهندس زكريا هاشم زكريا |
| **قصة الفلسفة الحديثة** | أحمد أمين وزكى نجيب محمود |
| **الفلسفة الحديثة فى الميزان** | الدكتور محمد بن فتح الله بدران |
| **الرسول . حياة محمد** | بودلى<br>ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار |
| **الأغانى** | لأبى الفرج الأصفهانى |
| **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى** | للسمهودى |
| **تحت راية الإسلام** | الدكتور أحمد الحوفى |
| **جمهرة نسب قريش وأخبارها** | للزبير بن بكار |
| **مشكلة الحرية** | للدكتور زكريا إبراهيم |
| **مشكلة الإنسان** | للدكتور زكريا إبراهيم |
| **إيران فى عهد الساسانيين** | لكريستينس — ترجمة يحيى الخشاب |

**شرح نهج البلاغة** لابن أبى الحديد

A Literary History of the Arab By Ntchilson .

Muslim Institutions By Maurice Gaudefroy - Demombynes .

**العقد الفريد** لابن عبد ربه

**تاريخ القرآن** لإبراهيم الإبيارى

**أسباب النزول** للنيسابورى

١ ـ ابراهيم ابو الانبياء
٢ ـ هاجر المصرية ام العرب
٣ ـ بنو اسماعيل
٤ ـ العدنانيون
٥ ـ قريش
٦ ـ مولد الرسول
٧ ـ اليتيم
٨ ـ خديجة بنت خويلد
٩ ـ دعوة ابراهيم
١٠ ـ عام الحزن
١١ ـ الهجرة
١٢ ـ غزوة بدر
١٣ ـ غزوة أحد
١٤ ـ غزوة الخندق
١٥ ـ صلح الحديبية
١٦ ـ فتح مكة
١٧ ـ غزوة تبوك
١٨ ـ عام الوفود
١٩ ـ حجة الوداع
٢٠ ـ وفاة الرسول

## محمـــد رســـول الله والذين معـــه

( في عشرين جزءا )

### للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

قصة الاسلام منذ ايام ابراهيم الخليل الى ان لحق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . وقد كتب المؤلف الحقائق التاريخية فى أسلوب قصصى أخاذ .

وفى هذه الأجزاء يستقصى المؤلف تاريخ العرب قبل الاسلام ، وكتب لأول مرة تاريخ العرب ما بين ابراهيم ونشأة العدنانيين ، معتمدا على ما كشفت عنه الحفريات الأخيرة فى بلاد العراق وسورية وارض العرب ، وهى حقبة لم يتعرض لها الاخباريون ولا المؤرخون الاسلاميون .

ويسر المؤلف التاريخ تفسيرا روحيا من خلال سرده للحقائق التاريخية . انها موسوعة عربية اسلامية بذل فيها الجهد الكثير .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه
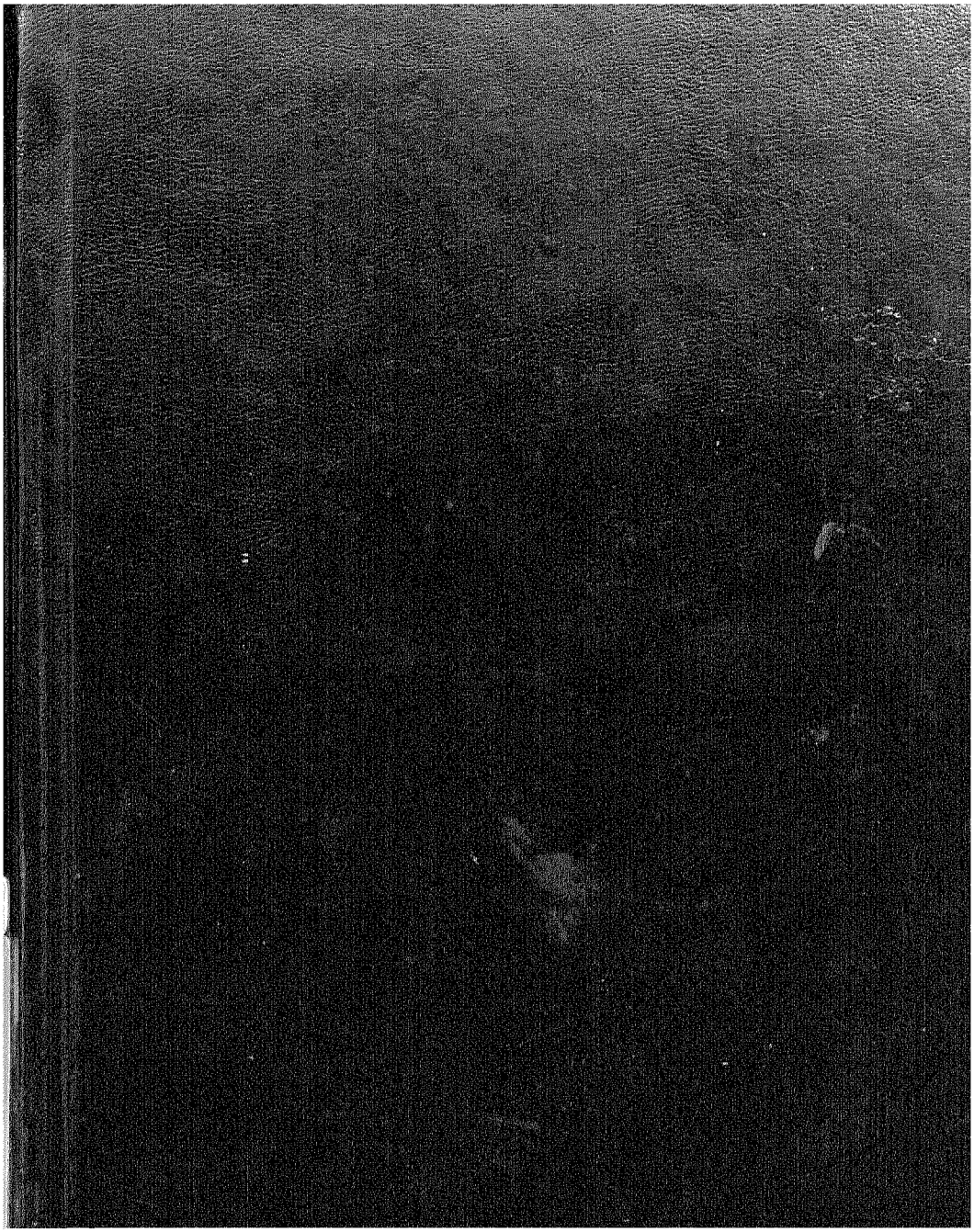
رقم الإيداع ٣٩٧٠
الترقيم الدولى ٧ ــ ١٦١ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧